

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز بالرياض

العدد الرابع • السنة الخامسة عشرة • رجب ، شعبان ، رمضان ١٤١٠ هـ





بسم الله الرحمن الرحيم

دارة الملك عبد العزيز

أنشئت بمقتضى المرسوم الملكي الكريم رقم م/٤٥ في ١٣٩٢/٨/٥هـ كهيئة مستقلة ذات شخصية اعتبارية، يديرها مجلس إدارة له كافة الصلاحيات اللازمة لتحقيق أهدافها.

والغرض من إنشائها: خدمة تاريخ المملكة وجغرافيتها، وآدابها، وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة، والجزيرة وبلاد العرب والإسلام بعامة وذلك عن طريق إنجاز البحوث ونشرها، وجلب الوثائق والمخطوطات وتحقيقها، وإصدار مجلة تحمل اسمها.

كما أنها «المركز الوطني للوثائق والمخطوطات»، بمقتضى الموافقة السامية رقم ١٢٦٠٨/٥ في ١٣٩٦/٥/٢٠هـ.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز

العدد الرابع • السنة الخامسة عشرة •

رجب، شعبان، رمضان ١٤١٠هـ

☒ ٢٩٤٥ ـ الرياض: ١١٤٦١ المملكة العربية السعودية

رقم الفاكسيميلي: ٠٠/٩٦٦/١/٤٤١٧٠٢٠



البحوث

ترسل البحوث باسم
رئيس التحرير
☎ : ٤٤١٧٠٢٠

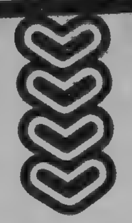
الإدارة والتحرير

☎
٤٤١٣٩٤٤ – ٤٤١٢٣١٨
الفاكس : ٤٤١٢٣١٦

الاشتراكات

ترسل الاشتراكات بشيك
مصدق باسم
دارة الملك عبد العزيز

● آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة ●



● ترسل البحوث مطبوعة على الآلة الكاتبة أو بالكمبيوتر على ألا تزيد عن ثلاثين صفحة من القطع المتوسط، وأن يكون اسم الباحث رباعياً، وأن يذكر عنوانه مفصلاً.
● ترسل البحوث سرياً إلى محكمين، ويتم نشرها بعد النظر في صلاحيتها لمنهج المجلة.
● ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث.
● لن ينظر في البحوث غير المستوفية لشروط المجلة.
● لا ترد البحوث إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

*** الاشتراكات السنوية ***

■ ٢٠ ريالاً للاشتراك السنوي داخل المملكة العربية السعودية.

● وفي البلاد العربية ما يعادلها.

■ ٦ دولارات خارج البلاد العربية.

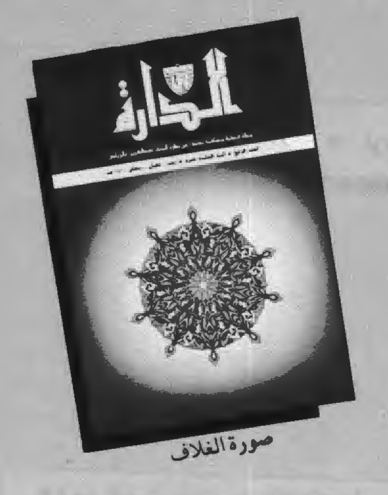
قيمة العدد

السعودية: ثلاثة ريالات ـ الامارات العربية: أربعة دراهم
قطر: أربعة ريالات ـ مصر: ٤٠ قرشاً ـ المغرب خمسة دراهم ـ تونس ٤٠٠ مليم
خارج البلاد العربية: دولار للعدد

الموزعون

● **السعودية**: الشركة السعودية للتوزيع
✉ ١٣١٩٥ جدة ٢١٤٩٣ ـ ☎: ٦٦٩٤٧٠٠
☎ ٤٧٧٩٤٤٤ الرياض
■ **أبو ظبي**: مكتبة المنهل
✉ ٣٧٧٨ أبو ظبي ـ ☎: ٣٢٣٠١١
● **دبي**: مكتبة دار الحكمة
✉ ٢٠٠٧ ـ ☎: ٢٢٨٥٥٢
■ **قطر**: دار الثقافة
✉ ٣٢٣ ـ ☎: ٤١٣١٨٠

● **البحرين**: مؤسسة الهلال للتوزيع
✉ ٢٢٤ المنامة ـ ☎: ٢٦٢٠٢٦
■ **مصر**: مؤسسة الأهرام للتوزيع
شارع الجلاء ـ القاهرة ☎: ٧٥٥٥٠٠
● **تونس**: الشركة التونسية للتوزيع
5 نهج قرطاج
■ **المغرب**: الشركة الشريفية للتوزيع
✉ 683 الدار البيضاء 5


صورة الغلاف

زخرفة عربية

في هذا العدد

● الافتتاحية .... رئيس التحرير ٥

■ حركة إحياء التراث بعد توحيد الجزيرة العربية «كتب الجغرافية» (٨) .... د. أحمد بن محمد الضبيب ٧

● التيار الإسلامي في نثر أمير الشعراء .... د. إبراهيم حسين الفيومي ٤٠

■ الإذاعة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود .... د. محمد معوض إبراهيم ٦٣

● ملاحظات وآراء حول الأرشيف العثماني وأهميته في دراسة التاريخ العثماني .... د. محمد مهدي إيلهان ٩٣

■ حلقة الوصل بين الألسنية الحديثة والنحو العربي .... د. خليل عمايرة ٩٩

● حياة الأدب التهامي في ظل المتنزهات الريفية (١٢٥٤ - ١٢٦٤هـ) .... د. عبد الله بن محمد أبو داهش ١١٥

■ المفاوضات التي أدت لعقد معاهدة سنة ١٩١٥م بين الإمام عبد العزيز آل سعود وبريطانيا .... د. خالد حمود السعدون ١٥٠

● مؤلفات العرب في علوم المعادن بين النقلة والنساخ .... أ. مصطفى يعقوب عبد رب النبي ١٧٦

■ علوم .. وفنون .... أ. مصطفى أمين جاهين ٢٠٧

الافتتاحية





● بقلم رئيس التحرير ●

وادخرت في الذاكرة حواراً، أجريته مع أحد الذين يتظاهرون بإبراز العضلات . يتظاهر بأنه العالم العلامة، فلم أنكر عليه أنه يعلم، ولكني أنكرت عليه أن يقتني الأتباع، إن لم يتهافتوا عليه فهو يهتف فيهم أنه الإمام. قلت له لا أنكر عليك وعندك هذه المكتبة الضخمة، جمعت فيها كل التفاسير وكتب الصحاح وكتب السنة والفتاوى وكل فقه الأئمة، كل هذا يعطيك أن تعلم علم كل إمام وفقه كل إمام، ولكن لن تكون بهذا كله إماماً كأولئك ، فالإمام من هؤلاء الأئمة كان قدوة، وأنت لن تكون في هذه المنزلة، لك الاحترام، ولكنك لست الإمام- فإذا هو يقول ما كدرتني وإنما نصحتني حين حذرتني . إن هذه المقدمة أخاطب فيها بعض الأغيلمة الذين يقرأون كتاباً فيه ما فيه فينشرون ما قرأوا . يتظاهرون بالعضلات فإذا هم يشغبون

بما قرأوا فهل إذا قرأ أحدهم عن المِلَلِ والنِّحَل للشهرستاني مثلاً أو في ابن حزم يصبح هذا علمهم يتعالون به وينشرون فتنة دُفِنت ، يتقولون على القرآن ويتطاولون على السنة وعلى المؤرخين من الأئمة فبعضهم ينشر الباطل زاعماً .أنه ينقده بينما هو بهذا النشر يكون ناشراً الفتنة فبعضهم نشر أباطيل بأسلوب النقد لها فإذا بعض القارئين يفتتون . ولعلي أذكر حادثة وقعت قبل ستين عاماً . ففي محلة الساحة وأمام حوش فواز وقفت أسلم على طالب علم ما أجيز للتدريس في المسجد وليس هو من أهل المدينة وإنما هو قريب الهجرة إليها وبينما أنا وهو واقفان جاء رجل من العامة اسمه علي السعر يسأله عن مسألة وقعت بينه وبين زوجه ومع هذا السائل عنز يجرها لعل أحداً يشتريها فإذا هذا الشيخ يقول له (إيش مذهبك) فقال السائل : مذهبي مسلم عربجي دلال غنم . وانصرف غاضبا فقلت للشيخ لماذا هذا التعالم ألم تعرف أن العامي لا مذهب له وإنما دينه الإسلام وإنما المذهب هو في علم المفتي لا في عقيدة العامة . وهكذا يمكن لمن اقتنى الكتب أن يعرف الكثير ولكنه لن يعرفه إلا القليل ، فاتته القدوة فحذاري من إبراز العضلات . ويرحم الله ناصر السنة قامع البدعة الإمام أحمد حسين عندما سألوه لماذا لا ترد على المخالفين فقال يرحمه الله لا أحب أن أنشر أقوالهم .

● محمد حسين زيدان ●

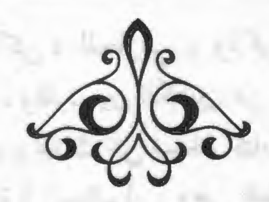
حركة إحياء التراث

بعد توحيد الجزيرة العربية*

« كتب الجغرافية » (القسم الثالث)

(٨)

د. أحمد بن محمد الضبيب



ومما نشره حمد الجاسر في مجلة « العرب » كتاب « الأماكن » لمحمد بن موسى الحازمي الهمذاني (ت ٥٨٤هـ) بعنوان : « ما اتفق لفظه وافترق مسماه » على حلقات تجاوزت الخمسين ، شاب ترقيمها بعض الاضطراب الناتج عن السهو[1] . وقد بدأ نشر هذه الحلقات في المجلد الرابع عشر (ج ٣ و ٤ رمضان وشوال

١٣٩٩هـ/سبتمبر ١٩٧٩م، ص ص ٢٤٧ - ٢٧٧) واستمرت « العرب » تنشر حلقات من هذا الكتاب إلى حين إعداد بحثنا هذا للنشر، وآخر ما اطلعنا عليه من حلقاته هي الحلقة ٥٧[٢] .

لم يقدم الجاسر لهذا الكتاب بمقدمة معتذراً بأنه سبق له الحديث عنه وأنه كان قد أعد الكتاب للنشر ولكن حوادث لبنان أتت على ما كان أعده، وهو الآن يعود إلى الكتاب فإذا تم له ما أراد وضع له مقدمة ونشره مستقلاً .

ولقد سبق للجاسر أن تحدث عن الكتاب حديثاً مسهباً وذلك في بحث كتبه بعنوان « المؤتلف والمختلف في أسماء المواضع بين الاسكندري والحازمي » نشر على حلقات في مجلة « العرب »[٣] . وكان الغرض من بحثه تحقيق ما ذكره ياقوت الحموي في كتاب « معجم البلدان » من أن الحازمي أغار على كتاب نصر الاسكندري فنسبه لنفسه، وتساءل الباحث هل ما ذكره ياقوت صحيح؟ وما ميزة كل واحد من الكتابين؟ وما أوجه التشابه بينهما، ثم ترجم لنصر الاسكندري ووصف نسخة كتابه المسمى « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار ونحوها المذكورة في الأشعار » وهي نسخة يحتفظ بها المتحف البريطاني، وذكر بدايتها وآخرها، ثم ترجم للحازمي وذكر مؤلفاته ومعظمها يتصل بعلم الحديث، وكثير منها وصل إلينا .

وتحدث عن كتاب « الأماكن » للحازمي، وذكر الغرض من تأليفه، كما ذكر مصادره ومصادر الاسكندري، وقارن بين الكتابين من حيث المادة، وأورد نقد ياقوت للحازمي في مواضع من كتابه، وتحدث عن نسخة كتاب الحازمي، وذكر أنها موجودة في مكتبة « لا لا » في السليمانية في استانبول، وهي مخطوطة سنة ٦٢٠هـ وكاتبها يدعى أبو بكر بن محمد بن عباس الحنفي . ومع حسن خط الكاتب إلا أن الكتاب لا يخلو من تصحيف وغلط ويقع في ١٩٧ ورقة، كما نشر صوراً لطرة الكتاب وللورقة الأولى منه، وخلص من بحثه إلى أن « الحازمي »، رحمه الله، يتفق في كتابه مع نصر اتفاقاً يكاد يكون حرفياً، مما يحمل على الجزم بأنه أطلع على كتاب نصر غير أنه يمتاز عليه بأن قسماً كبيراً من المواضع أورد الحازمي تحديدها نقلاً عن علماء ذكر أسماءهم، واستشهد بأشعار كثيرة، واطلع على كتب كثيرة لا نجد لها في كتاب نصر رحمه الله

ذكراً »[٤] . وكرر قولاً له بأنه « وبما أخذ الحازمي كتاب نصر فأراد أن ينسب ما فيه من أقوال إلى أصحابها ولكنه لم يتمكن من ذلك إلا في معظم الكتاب لأننا نجد آخره خالياً من الشواهد ، ومن نسبة الأقوال إلا ما ندر »[٥] .

والمطلع على ما نشره الجاسر من هذا الكتاب في مجلته . لا تفوته ملاحظة العناية الفائقة التي أولاها لهذا النص حتى يخرج بالصورة المثلى . فقد كلف نفسه ضبط كل حروف النص (ما عدا حروف العلة بالطبع) ، ولم يقتصر على ذلك بل ضبط كلمات الهوامش ضبطاً كاملاً . وتميزت الهوامش بالمراجعة على كتاب « نصر » بالدرجة الأولى ، مبيناً الفروق بين النصين ، مثبتاً التطابق ، ومضيفاً الزوائد ، وموضحاً ما جاء في كتاب الحازمي بالمعنى ، وما ورد بالنص . هذا إلى جانب مراجعة المواد على الكتب التي تتصل بها ككتب البلدان وفي مقدمتها كتاب ياقوت ، وكتاب البكري ، وكتاب الهمداني عن « بلاد العرب » وكتاب « المناسك » المنسوب للحربي ، وكذلك كتب التواريخ والسير والرجال ، وبعض كتب الأدب « كالأغاني » مع تحقيقات تتناول تصحيح ما ورد في الكتاب من أخطاء ، وإفاضة في ذكر اختلافات العلماء وآرائهم حول بعض المواضع[٦] ، ومحاولة ربط هذه المواضع بمسمياتها ومواقعها في العصر الحديث وذكر للمسافات بينها وبين ما يقاربها من المواضع المشهورة .

ومن النصوص التي استخلصها حمد الجاسر من الكتب مما يتعلق بالمواضع . ما جمعه من نصوص لأبي علي الهجري في تحديد المواضع ، وأصدره مستقلاً في كتاب أسماه « أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع » وذلك عام ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م[٧] .

ففي هذا الكتاب الذي بلغت صفحاته ٤٤٣ صفحة يقدم لنا المؤلف ما وصل إلى علمه مما كتبه أبو علي الهجري في تحديد مواضع الجزيرة العربية معتمداً بالدرجة الأولى على كتابه المخطوط « التعليقات والنوادر » ، ثم على ما ورد في « معجم ما استعجم » لأبي عبيد البكري ، وما ورد في كتاب « وفاء الوفا » للسمهودي . وإذا كانت النصوص المنتزعة من كتاب « الهجري » ليست موضع خلاف من حيث النسبة إلى المؤلف الأصلي فإن نسبة النصوص في كتاب أبي عبيد البكري « معجم ما استعجم » تثير معضلة كبيرة . ذلك أن أبا عبيد البكري ينقل مادته عن شخص آخر غير « الهجري» ، ذلك هو « السكوني » مع أن السمهودي ينقل المادة نفسها باختصار في كثير من المواضع وينسبها إلى « الهجري » . وهذا ما جعل باحثاً مثل الدكتور صالح العلي يتردد في نسبة هذه المادة إلى « الهجري » ، ففي بحث له مطول بعنوان « المؤلفات

العربية عن المدينة والحجاز » نشره في المجلد الحادي عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي ونقل حمد الجاسر ما يخص القضية منه يقول[8]:

« إن نطاق معلومات الهجري ومادته التي أوردها السمهودي تشبه في جملتها وتفصيلها المادة التي أوردها « البكري » عن « السكوني » ثم يذكر ثلاثة فروض:

١ ـ أن المؤلف الذي يسميه السمهودي « الهجري » هو نفسه الذي يسميه البكري « السكوني » ، غير أنه يتحفظ على ذلك بأن السمهودي يعرف « السكوني » ، وقد نقل عنه في أحد المواضع عند الكلام على غيقة (ج ٢ ص ٣٥٤) ، مما يدل على وجود هذا الراوية واختلافه عن الهجري . كما أنه لا علاقة بين النسبة إلى السكون « القبيلة » وهجر « الموضع » .

٢ ـ أن « الهجري » غير « السكوني » وأن كلا منهما روى عن مصادر أقدم . والشطر الأول معقول ، أما الثاني فهو يضعنا أمام إشكال آخر ، وهو أن مؤلفي المعاجم الجغرافية الثلاثة (البكري ، وياقوت ، والسمهودي) يعرفون المصادر الأولى ، ولا يعقل أن يجهلوا اسم هذا المصدر الأول وينسبوا المعلومات إلى الراوية الثاني عنه .

٣ ـ أن « الهجري » غير « السكوني » وأن أحدهما روى معلوماته عن الثاني . وهنا لابد من دراسة دقيقة لكتب التراجم ، فالهجري ، معروف أما « السكوني » فلم تعرف له ترجمة ، أو اسم كتاب مع أن ياقوت عده واحداً من ستة اعتمد عليهم من طبقة أهل الأدب الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية ، والمنازل البدوية وقد نقل عنه نصوصاً كثيرة تتعلق بجغرافية الجزيرة ، وأماكنها . ثم صنف صالح العلي ما نقله عنه ياقوت حسب المواقع ، ووجد أنه يتفق مع البكري والسمهودي في نقله عن « السكوني » بعض المعلومات كما أنه يختلف عنهما من حيث إنه لا ينقل عن « السكوني » معلومات أخرى . كما ينقل عن « السكوني » نصوصاً تتعلق بمناطق لم ينقل منه عنها « البكري » و« السمهودي » . وقد حاول صالح العلي أن يجد أسباباً لكل ذلك ، فصلّها في بحثه ولكنه في النهاية مال ـ فيما يبدو ـ إلى وجود مؤلف يدعى « السكوني » هو « من أدق وأشمل من وصف جزيرة العرب عامة ومنطقة الحجاز وما يجاورها خاصة ، وأن دراسته لا تقل ، في مستواها ، عن وصف ابن الحائك الهمداني لليمن في كتابه « صفة جزيرة العرب »[9] .

غير أن الجاسر يجزم بنسبة تلك النصوص إلى « الهجري » دون « السكوني » اعتماداً على الآتي(١٠) :

١ ـ « أن الهجري على درجة من الشهرة ، وفي منزلة من العلم ، تحملان على الحكم بأنه أرسخ باعاً وأعمق معرفة من السكوني ... ولو كان « السكوني » على درجة من العلم وفي مكان من الشهرة لما خفي على المتقدمين من علماء الأندلس وغيرهم » .

٢ ـ أن « الهجري » كان ذا صلة قوية بالأمكنة التي سبقت الإشارة إليها فقد عاش داخل الجزيرة وهو من أهلها واستوطن المدينة .. بخلاف « السكوني » الذي لا نعرف عنه شيئاً من هذه الناحية » .

٣ ـ « أننا نجد في تلك النقول نصوصاً منسوبة إلى رواة تلقى عنهم « الهجري » وذكرهم في نوادره مثل الخلصي وغيره » .

٤ ـ « أن عدم وجود هذه النصوص في كتابه « النوادر » لا يكفي دليلاً على كونها ليست من كلامه فالنوادر لم تصل إلينا كاملة ومؤلفاته هو لم تصل إلينا » .

٥ ـ أن السمهودي ، وهو عالم المدينة ، قد اطلع على كتب كثيرة تتعلق بها ، وأصبحت الآن مفقودة ، حيث احترق قسم منها مع كتبه التي كانت داخل الحرم المدني في سنة ٨٨٦هـ فاحترقت باحتراقه ، هذا العالم نص صراحة على أنه نقل تلك النصوص من كتاب « الهجري » .

ثم يشير بعد ذلك إلى أن السمهودي في « وفاء الوفا » قال : « قال الهجري : وجدت صفة الجبلين الأشعر والأجرد إلخ ... » ثم أورد جملة ما أورده « البكري » منسوباً إلى « السكوني » كما يفهم من كلامه . قال الجاسر : « وتلك العبارة توهم بأن الهجري نقل الوصف نقلاً ولم يكن عن مشاهدة .. ولكن هذا لا يكفي دليلاً للحكم بأنه نقل عن « السكوني » .

والقارئ لموقف الجاسر هنا سرعان ما يتذكر جهوده في نسبة بعض النصوص التي نقلها أبو عبيد البكري في « معجم ما استعجم » ونسبها فيه إلى السكوني ، نسبة تلك النصوص إلى أبي إسحاق الحربي في كتاب « المناسك » . إذ نفى ذلك عن « السكوني » وأثبت صحة نسبة الكتاب إلى الحربي بأدلة استنتاجية تشبه هذه الأدلة ، غير أن من

الملاحظ أن المحقق ، في ذلك الموضع ، لا يعتد بقول الإمام السمهودي في نسبة بعض الأقوال إلى محمد بن أحمد الأسدي قائلاً بأن « السمهودي ليس حجة » وهو هنا في نسبة الأقوال إلى الهجري نجده يعتد برأي السمهودي واصفاً إياه بأنه « عالم المدينة الذي اطلع على كتب كثيرة تتعلق بها » .

ومع أنه من الصعب إنكار ما ذكره البكري في مقدمة كتابه « معجم ما استعجم بقوله : « وجميع ما أورده في هذا الكتاب عن السكوني فهو من كتاب أبي عبيد الله عمرو بن بشر السكوني في جبال تهامة ومحالها يحمل جميع ذلك عن أبي الأشعث عبد الرحمن بن عبد الملك الكندي عن عرام بن الأصبغ السلمي الأعرابي[11] » إلا أن موقف الجاسر في الموضعين لا يعدو موقف المجتهد الذي يخضع رأيه للقبول والرفض ، ولكنه مع ذلك موقف عالم مدقق يعمل فكره ويفيد من جميع مصادره في تحقيق نسبة النصوص إلى أصحابها ، حتى وإن تراكمت ، في سبيل معرفة مؤلفها الحقيقي ، كثير من السحب والغشاوات .

قَسَم الجاسر كتابه « أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع » قسمين جعل الأول منهما حديثاً عن الهجري حياته وعصره وموطنه وسكناه المدينة ، ثم تحدث عمن تلقى عنهم العلم وذكر أنه ، فيما يبدو ، لم يتلق العلم على علماء مشهورين باستثناء ابن الأعرابي وأبي ذكوان (من نحاة القرن الثالث) ، ولكنه أخذ معظم علمه في كتاب « التعليقات » عن الأعراب الرواة وأصحاب النوادر وغيرهم ، كما أخذ عن المؤلفات . ثم تحدث عمن أخذ عن الهجري من علماء المشرق ، وبعض علماء الأندلس وأفرد حديثاً عن نسبة ما ذكره البكري في معجمه إلى أبي عبيد الله عمرو بن بشر السكوني ، وأورد أقوال الباحثين المحدثين صالح العلي ، وحسين نصار ، وعقب على ذلك برأيه في نسبة النصوص المذكورة إلى الهجري على نحو ما أوردنا .

ثم تحدث عن عناية علماء الهند بالهجري ، وخاصة بالقطعة الهندية ، من كتاب « التعليقات والنوادر » وأتبع ذلك بالحديث عن مؤلفات الهجري . وعلى رأسها كتاب « التعليقات والنوادر » وهو الكتاب الذي عرف به الهجري ويعد أهم أثر له (ص ١٠٣) فمهّد لذلك بذكر من ألف في النوادر من الأعراب والعلماء ، متحدثاً عن مصادر هؤلاء المؤلفين ثم تكلم عن مادة الكتاب ، وأورد بعض نصوصه في النوادر ، واللغة ، والإبل والخيل والسهام والشتاء وبعض الطرائف ، ثم تحدث عما بقي من تراث

الهجري المخطوط وهو قطعتان من كتاب « التعليقات والنوادر » كانتا في القديم في خزائن كتب الفاطميين بقيت إحداهما في مصر والأخرى انتقلت إلى الهند ، وكاتبهما واحد . ثم وصف النسختين فالقطعة الهندية المحفوظة في مكتبة الجمعية الآسيوية في كلكته ، تقع في ٥١٦ صفحة (كذا) ويرى الكاتب أنها الجزء الأول من الكتاب . وذكر الفروق بين القطعتين . وتحدث عن القطعة المصرية ، وهي محفوظة في دار الكتب المصرية في القاهرة ، ورقمها في فهرس كتب اللغة ٤٣٢ وتقع في ٤٨٥ صفحة ، وبعد أن وصفها أجمل القول بأن القطعتين متماثلتان في الكتابة ، وعدد السطور ، والكاتب ، وقد تكونان من مخطوطات القرن الرابع الهجري أو الخامس ، وقد يكون كاتبهما ممن عاش في كنف الفاطميين .

ثم أفرد فصلاً للحديث عن نهاية الهجري والخلاف على موته في المصادر المختلفة . أما القسم الثاني من كتابه فقد جمع فيه من أسماء المواضع ما أورده « الهجري » في القطعتين المصرية والهندية من كتاب « التعليقات » وكذلك ما أورده « البكري » و« السمهودي » مما نسب إلى « السكوني » عند الأول ، وإلى الهجري عند الثاني ، ورتب المادة على حروف المعجم ، وأتبع ذلك بفهارس لأسماء المواضع بعد فهرس الموضوعات .

ب ـ كتب المنازل وطرق الحج

وإلى جانب ما نشره حمد الجاسر من النصوص الجغرافية التي أشرنا إليها نجده يهتم اهتماماً خاصاً بكتب المنازل ، وطرق الحج ، وما ألف فيها من قبل العلماء منذ القدم . ولقد قدم الجاسر بحثاً مسهباً عن كتب المنازل بعنوان : « كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب » ألقاه في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية المعقودة في رحاب جامعة الرياض (جامعة الملك سعود حالياً) في ٥ ـ ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٩٧هـ ٢٣ ـ ٢٨ أبريل ١٩٧٧م ونشر في المجلد الأول من أعمال تلك الندوة[١٢] عرض فيه الكتب المؤلفة في هذا الموضوع .

ويتضح اهتمامه بهذا الموضوع من إعادته لنشر كتاب عبد القادر بن محمد الجزيري (ت ٩٧٧هـ) بعنوان : « الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة » ، وكان الكتاب قد طبع في السابق بعنوان : « درر الفرائد المنظمة في أخبار

الحاج وطريق مكة المكرمة » على نفقة جماعة من أهل الحجاز وذلك في القاهرة سنة ١٣٨٤هـ على نسخة استنسخها الشيخ محمد نصيف في جدة من مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وقرأها عبد الرزاق حمزة سنة ١٣٦٥هـ ، وقابلها على أصلها أحمد ياسين الخياري مع الشيخ حمدي الخربوطلي مدير مكتبة عارف حكمت سنة ١٣٦٧هـ ، ثم تداول الإشراف عليها الشيخ محمد نصيف مع طائفة من أهل الفضل ، منهم سليمان الصنيع مدير مكتبة الحرم المكي ، ومحمد سعيد العمودي مدير مجلة الحج بمكة ، كما قورنت بأصل آخر مخطوط في دار الكتب الأزهرية[١٣] .

ولقد تحدث حمد الجاسر عن هذه الطبعة مرتين الأولى في بحثه عن المنازل الذي أشرنا إليه آنفاً فوصف هذه الطبعة بأنها « مشحونة بالأخطاء إذ الأصل وهو بخط المؤلف فيما يظهر ـ ليس متقن الخط وكثير من الكلمات فيه خالية من الإعجام »[١٤] ، كما وصفها بأنها خالية من الفهارس المفصلة ، وأشار إلى أن « الأسوأ من كل ذلك نقص المطبوعة ، فبينما نجدها تقف في ذكر إمارة الحاج عند ذكر أمراء الحاج سنة ٩٥٧هـ نجد نسخة دار الكتب يمتد الكلام فيها إلى سنة ٩٦٦هـ في ذكر أمراء الحاج »[١٥] . والمرة الثانية في مقدمة نشرته لكتاب الجزيري ، فأشار إلى ما سبق ذكره ، واعتذر للشيخ محب الدين الخطيب الذي أشرف على هذه الطبعة بأن ذلك حدث بسبب تقدم سنه وتراكم الأعمال عليه[١٦] .

نشر حمد الجاسر كتاب « الدرر الفرائد » اعتماداً على ثلاث نسخ هي :

١ ـ نسخة جامعة القرويين في مدينة فاس رقم ٤٠ ـ ٥٥٤ في مجلدين وهي من مخطوطات القرن العاشر وقد اتخذها أصلاً .

٢ ـ نسخة دار الكتب المصرية في مجلدين ، وذكر رقم المجلد الأول منها وهو ٣٧ تاريخ م . ولم يذكر رقم المجلد الثاني ، وليس فيها تاريخ ولا ذكر للناسخ . وقد قدر تاريخ نسخها بعد القرن الحادي عشر .

٣ ـ نسخة مكتبة ييل YALE في الولايات المتحدة ، ولم يذكر رقمها . وقد قدر أنها كتبت بعد منتصف القرن الحادي عشر .

صدّر المحقق هذه النشرة بترجمة وافية للمؤلف عول فيها على ما كتبه الجزيري عن نفسه وعن والده في الكتاب ، إذ لم ترد ترجمة له في مصادر أخرى ، إلا في كتاب محمد بن حميد النجدي المسمى « بالسحب الوابلة على ضرائح الحنابلة » ، وقد عول

ابن حميد على كتاب المترجم في الإفادة عن سيرته . ولكن الجاسر صحح أوهاماً لابن حميد بتتبعه كتاب الجزيري ، فأرجع نسبة المؤلف إلى الجزيرة الفراتية وكان ابن حميد قد نسبه إلى جزيرة الفيل في مصر[١٧] ، كما صحح تاريخ ميلاده فقد أرخه المؤلف سنة ٩١١هـ بينما ذكر ابن حميد أنه كان سنة ٨٨٠هـ وهو تاريخ ميلاد والد صاحب « الدرر »[١٨] وحاول الجاسر تحقيق تاريخ وفاته المختلف فيه وانتهى إلى أنه عاش إلى ما بعد حج ٩٧٦هـ وأنه توفى قبل سنة ٩٨٢هـ . ثم ذكر مؤلفاته وأسهب في وصف الكتاب المحقق ثم وصف نسخه .

وتحدث عن طريقة النشر فذكر أنه اتخذ النسخة المغربية أصلاً لقدمها ، ولما فيها من الزيادات فيما تمكن من قراءته من نصوصها ، إذ فيها صفحات لا تستطاع قراءتها فما كان منها متفقاً مع النسختين الأخريين كان الرجوع فيه إليهما وما زاد أشار في الهامش إلى موضعه[١٩] .

كما عاد إلى نسخة الكتاب المطبوعة التي نشرها محب الدين الخطيب وعدها مغنية عن أصليها : مخطوطة الأزهر ، ونسخة الشيخ محمد نصيف المنسوخة عن مخطوطة حكمت بالمدينة .

ثم بين عمله فقال : « ولقد حرصت أن يخرج هذا الكتاب على خير صورة أستطيع إبرازه بها تتفق مع عمل مؤلفه ، فحاولت التثبت من صحة ما فيه من نصوص منقولة عن مؤلفات استطعت الاطلاع عليها فقابلتها وأشرت إلى ذلك في الحواشي التي حاولت أن تكون موجزة ، فالغاية تحقيق النص لا شرح الكتاب . كما حاولت السير على نهج الأستاذ محب الدين فيما صححه من أخطاء لغوية في كلمات يسيرة . أما الأخطاء التي اتضح من اتفاق النسخ على كثير منها أنها ليست كلها من تحريف النساخ فتركتها على حالها محافظة على النص ، مع الإشارة إلى بعضها . ووضعت الكلمات الأعجمية بين قوسين مثل (الدوادار) وحاولت إيضاح هذه الكلمات بإيرادها مرتبة مفسرة في آخر الكتاب . وقد وضعت علامة الاستفهام (؟) جوار ما استغلق عليّ فهمه من الكلمات ، ونقطاً (...) مكان مالم أستطع قراءته من (مغ) وما أكثره !! »[٢٠]

ثم ختم ذلك بقوله : « وآمل أن يعتمد على نسخة أوفى وأوضح من النسخ التي اتخذتها أصلاً لهذه المطبوعة ، ليعاد نشر الكتاب بصورة أصح وأكمل مما برزت به هذه المطبوعة[٢٠] » .

حاول المحقق أن يبرز النص خالياً من التعليقات في كثير من المواضع ، وكانت تعليقاته التي وضعها مختصرة كما وعد ، وهو أمر يحمد له ، غير أن من الملاحظ أنه ، في بعض الأحيان ، يورد المعلومات دون توثيقها بذكر مصادرها ، مثل تصحيحه نسبة باب إبراهيم ، من أبواب الحرم المكي إلى حنّاط كان يبيع بضاعته عند ذلك الباب وليس إلى النبي إبراهيم كما كان يظن[٢١] .

والناظر في تحقيق الجاسر لهذا الكتاب يدرك أنه قد بذل جهداً كبيراً في المراجعة على النسخ وخاصة النسخة المغربية التي اشتكى من عسر قراءتها وانطماس حروفها في كثير من المواضع . ولعل الميزة الأوضح في هذه النشرة الجديدة أنها قد اشتملت على إضافات لم تكن في النسخة التي نشرها محب الدين الخطيب .

ويحمد للجاسر في هذه النشرة احتفاظه بالتعليقات التي كان المحققون السابقون قد وضعوها على الكتاب كمحب الدين الخطيب ، وسليمان الصنيع ومحمد نصيف وأحمد ياسين الخياري ، مع ذكر أسمائهم عقب كل هامش ، كما أنه وضع رمز (م) بعد التعليقات التي لم تنسب إلى أحد في المطبوعة السابقة .

لقد رجع مؤلف الكتاب إلى مصادر عديدة في الحديث والفقه والتاريخ واللغة وغيرها مما ذكره في أثناء حديثه ناقلاً لنصوص كاملة أحياناً ومشيراً إلى بعض ما ورد في تلك الكتب . وقد رجع الجاسر إلى بعض هذه المصادر وحاول التثبت من ورود النصوص المنقولة منها وأشار إلى ذلك في هوامشه ولكنه لم يكن مستغرقاً لذلك فقد أغفل الرجوع إلى عدد كبير من تلك المصادر كما أنه كان في أحيان أخرى يهمل الإشارة إلى أرقام صفحات هذه المصادر إذا ذكرها[٢٢] .

ومن الواضح أن الجاسر لم يلق اهتماماً كبيراً لغير مصادر المؤلف في التاريخ إذ لا نجده يرجع إلى كتب اللغة والفقه والحديث وغيرها إلا في النادر القليل . بل إنه أغفل تخريج الأحاديث النبوية تماماً على الرغم من ذكر المؤلف لمصادرها في كثير من الأحيان وخاصة في الفصل الثاني من الباب الأول . وكذلك لم يخرج الأبيات الشعرية ، وبعضها منسوب إلى شعراء لهم دواوين معروفة .

ومن الملاحظ أيضاً أنه ــ أحياناً ــ يصحح الخطأ في الهامش ويبقي عليه في الأصل مع أن ذلك لا يتفق مع روح المنهج العلمي ، وإن كان يظن فيه التمسك بالأمانة العلمية . إذ الأصل في التحقيق أن يثبت الصحيح ، وينفي الخطأ ، ويشار إليه في الهامش . مثال

ذلك عند حديث المؤلف عن المدينة المنورة « ولها فرضة على ساحل البحر الفارسي تسمى الجار » (١٥٩٢/٣) فقد ترك المحقق ذلك في المتن وأشار في الهامش قائلاً : « كذا بالأصلين وهو خطأ صوابه بحر القلزم » . قلت : ليس من المعقول أن يخطئ المؤلف في تسمية البحر الذي تقع عليه فرضة الجار المعروفة ، ولو سلمنا بذلك جدلاً لكان من باب السهو ، وسبق القلم الذي يحتاج إلى تصحيح في المتن مع الإشارة إلى ما ورد في المخطوطة في هامش الكتاب . ولكن ذلك لا يطرد عنده فنجده مثلاً يصحح اسم المراديين اللذين هاجما ابن عطية في حوادث سنة ١٣٠هـ فيجعلهما « ابنا جمانة » اعتماداً على تاريخ الطبري . وكان الاسم في المخطوطة « ابنا خمار » .

كما نجد المحقق يقف عند الموازنة بين النسخ أحياناً موقفاً صامتاً لا يتعدى نقل ما فيها دون الترجيح أو التحقيق . مثال ذلك ما ورد في ١٨٩٩/٣ من إشارة المؤلف إلى أصل الخيزران أم الهادي والرشيد ، إذ قال المؤلف : « وهي « جرشية » اشتراها المهدي فأعتقها وتزوجها » . فعلق المحقق في الهامش (في مغ حبشية) ولم يحقق ذلك . وكان بالإمكان الرجوع إلى المصادر التي ترجمت لهذه السيدة ومعرفة أصلها الذي ترجع إليه .

وقد حفلت هذه النشرة بالأخطاء الطباعية والخلط بين الهوامش والأصل . فقد وردت كثير من الإشارات إلى النسخ الخطية في متن الكتاب ، وكان حقها أن توضع في الهامش ، كما في ص ٩٧ إذ وردت عبارة « من هنا ليس في المغربية ١٨ ب » داخل المتن بلا أقواس . وكذلك في ص ٩٨ إذ وردت عبارة : « هنا زيادة من المصرية » في المتن بلا أقواس أيضاً . وقد وضع المحقق قائمة بالأخطاء الطباعية وتصحيحها ولكن كثيراً من الأخطاء ليست مذكورة في هذه القائمة .

وأنهى المحقق الكتاب بفهارس مفصلة بلغت ثمانية فهارس شملت المباحث العامة ، والأحاديث ، والأعلام ، والجماعات ، والمواضع والشعر ، والكتب ، وأردفها بمسرد لكلمات عامية وأعجمية تكرر ورودها في الكتاب مع شرح لمعانيها . وهو إضافة جمة الفائدة للكتاب ، وللباحثين في أحداث تلك الحقبة التاريخية .

ويلحظ على فهرس الكتب عنده أنه خلط فيه بين الكتب الواردة في متن الكتاب والكتب التي وردت في الهامش ورجع إليها المحقق ، وكان حق هذا الفهرس أن يختص بما ورد في متن الكتاب . أما ما ورد في الهامش فمكانه قائمة المراجع التي كان من الواجب أن تفرد في آخر الكتاب .

وبالجملة فإن هذا الكتاب لأهميته وضخامته يعد إخراجه إلى النور بهذا القدر من التحقيق عملاً جيداً وإن كنا نطمع ، كما يطمع محققه ، أن تظهر له نشرة يتهيأ لها من الأصول ومن الجهد والمراجعة ما يجعلها في مستوى التطلعات .

ومن كتب المنازل التي نشرها حمد الجاسر كتاب : « البرق السامي في تعداد منازل الحج الشامي » لمحمد بن طولون الصالحي الحنفي (ت ٩٥٣هـ) وقد نشره في مجلة العرب[٢٣] على نسخة خطية ضمن مجموعة في المكتبة التيمورية ، بدار الكتب المصرية رقم ١٤ تحتوي على عدد من رسائل المؤلف وهي بخطه ويقع كتاب « البرق السامي » بين الصفحات ٢١٥ – ٢٢٨ .

قدم المحقق بمقدمة قصيرة ضمنها الحديث عن طرق الحج المختلفة ، ثم تحدث عن طريق الحج الشامي ، الذي وصفه بأن ما وصل إلينا عنه ليس وافياً في تحديد منازله ، أو تعداد مراحله ، ومع أهمية الطريق إلا أن اهتمام الجغرافيين بتحديد منازله لا يتلاءم مع مكانته .

ثم ذكر أن أقدم من وصف هذا الطريق مرحلةً مرحلةً إبراهيم بن شجاع الحنفي الدمشقي ، وهو مُؤلِّف لا يعرف عنه شيء سوى ما ذكر في كتاب مخطوط عنوانه : « منازل الحجاز » ويظهر أنه من تأليف محمد بن العطار[٢٤] . ثم أورد نص ما جاء في كتاب ابن العطار المسمى « منازل الحجاز » وهو كتاب تحدث عنه حمد الجاسر في بحثه الذي ألقاه عن كتب المنازل في « الندوة العالمية لدراسة تاريخ الجزيرة العربية » ويتبين منه أن نسخة من هذا الكتاب موجودة في مكتبة « لاله لي » في استانبول ، وقد صوره معهد المخطوطات سنة ١٩٤٩م ، على الشريط رقم ٨٠٩/٢٠/٣٠ وفي مكتبة جامعة الرياض (الملك سعود حالياً) صورة عن هذا الشريط[٢٥] .

وبعد أن ذكر المراحل الثلاثين التي وردت في كتاب ابن العطار وهي تمثل نص الكتاب ، فيما يبدو ، انتقل إلى الحديث عن « البرق السامي » فوصف المؤلف بقوله إنه : « أوفى من رأيته كتب عن وصف هذا الطريق »[٢٦] .

اكتفى المحقق ببعض التعليقات الخفيفة المتعلقة ببعض المواضع أو الكلمات الواردة في الأصل . كما قام بتحويل جدول عرض منازل الحجاز على الدرب الشامي من طريقة المؤلف التي استعمل فيها الحروف إلى الأرقام ، فوضع الأرقام بعد الحروف ؛ فعرض رابغ مثلاً عند المؤلف (كب لب) وهي توافق ٢٢ – ٣٢ وهكذا .

وفي هذا الإطار من كتب المنازل اهتم حمد الجاسر بالأراجيز والمنظومات الشعرية التي وضعها مؤلفوها في وصف طرق الحج ، وقد عد منها جملة صالحة في بحثه الآنف الذكر الذي كتبه عن كتب المنازل وألقاه في ندوة دراسات تاريخ الجزيرة العربية . ومن هذه الأراجيز أرجوزة بعنوان : « دليل المجتاز بأرض الحجاز »[٢٧] منسوبة لبدر الدين أبي محمد الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب الحلبي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٩هـ ، وهي من مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق ورقمها فيها ٦٩٢٣ . وتقع في ١٩٣ بيتاً . وقد وصفها الجاسر في بحثه ذاك بأنها « في وصف طريق الحج من دمشق إلى مكة المكرمة وذكر جميع مشاعر الحج ومناسكه ، ووصف للمنازل وترتيب ذكرها ، وسرد أسمائها مع سلاسة لفظ تلك الأرجوزة مما يجعلها جديرة بالدراسة »[٢٨] .

أورد الجاسر في نشرته هذه نص الأرجوزة بلا تعليق وقال في مقدمة حديثه عنها « ومما تجدر ملاحظته أن كثيراً من أسماء المواضع الواردة في الأرجوزة لم أهتد إلى وجه الصواب فيها ، فاضطررت لإيرادها على علاتها ، ولعله يتيسر لأحد القراء نسخة أجود من النسخة التي اتخذتها أصلاً فيتمكن من تصحيح تلك الأسماء »[٢٩]

ولم تكن أرجوزة ابن حبيب هذه كل ما نشره حمد الجاسر من شعر يتعلق بالمنازل فقد سبق ذلك أن كتب مقالاً في مجلة « العرب » بعنوان : « الشعر في وصف منازل الحج »[٣٠] وأورد فيه مجموعة من الأشعار التي قيلت في بعض مواضع الحج وطرقه لجملة من العلماء منهم بدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣هـ) ،و خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ، وابن أبي حجلة (ت ٧٧٣هـ) ، وإبراهيم بن عبد الله القيراطي (ت ٧٨١هـ) ، وناصر الدين محمد بن ميلق ، والحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) والشهاب الحجازي أحمد بن محمد بن حسين الأنصاري (ت ٨٧٥هـ) ، وابن العطار (ت ٨٣٦هـ)[٣١] ، وعبد القادر بن محمد الجزيري (بعد ٩٧٦هـ) ، وقطب الدين المكي محمد بن أحمد النهروالي (ت ٩٩٠هـ) ، وإبراهيم بن عبد الرحمن الخياري (ت ١٨٣هـ) ، ومحمد بن عبد الله الحسيني كبريت المدني (ت ١٠٧٠هـ) ، وجمال الدين محمد بن بدر الدين الدرا الدمشقي (ت ١٠٨١هـ) ، وعبد الغني بن إسماعيل النابلسي (١١٤٣هـ) .

وهؤلاء هم الذين رتب الناشر أشعارهم على أسماء مراحل الطريق ، وترجم لهم في

مقاله فأفردهم بعناية خاصة ، ولكن الناظر في تضاعيف مجموع الأشعار يجد أسماء أخرى لم يشر إليها الجاسر في مقدمته ، وقد أفاد أشعارهم من بعض كتب المنازل أو الرحلات أو بعض الدواوين والأوراق المفردة فقد أخذ عن « نظم العقيان » شعراً لمحمد بن محمد النويري المكي (ت ٨٧٣هـ) ، وأخذ عن « الدرر الفرائد المنظمة » للجزيري ، شعراً لكثير عزة ، وهند بنت أثاثة ، ونور الدين بن الجزار الشافعي ، وأبي عبد الله الفيومي المكي . كما أخذ من أوراق مخطوطة في خزانة الزركلي شعراً للمنصوري ، ونقل شعراً لمحمد بن عياد من ديوانه المخطوط عند الزركلي ، وشعراً لمحمد البكري أفاده من رحلة النابلسي .

ومما يتصل بالحرمين الشريفين ونشره حمد الجاسر في مجلة « العرب » مسلسلاً كتاب « حسن القرى في أودية أم القرى »[٣٢] لجار الله محمد بن عبد العزيز بن عمر بن فهد (ت ٩٥٤هـ) عن مصورة مأخوذة عن الأصل المحفوظ في مكتبة الأحقاف بتريم في حضرموت ، صورها معهد المخطوطات العربية برقم ١٤٤٧هـ ـ ٤٥ جغرافيا . وقابلها الناشر على نسخة نسخت له بقلم أمين مكتبة الأحقاف وفرغ منها بتاريخ ١٦ ذي القعدة سنة ١٤٠١هـ .

لقد كان المظنون أن الأصل بخط المؤلف ، ولكن الجاسر برهن ، بمقابلة الخط بنموذج خط ابن فهد المنشور في كتاب « الأعلام » للزركلي ، على أن الخط مغاير ولذلك فإنه لا تثبت لديه نسبة الخط إلى المؤلف علاوة على ما في الكتاب من أغلاط لغوية تستبعد من المؤلف (ص ١٥) .

والمخطوط ـ مع كونه وحيداً ـ ينقص نقصاً يسيراً في آخره قدّره المحقق بما لا يزيد على صفحتين[٣٣] . فقد انتهى ببداية حرف الهاء ، واشتمل الكتاب على معلومات قيمة دفعت المحقق إلى نشره .

لخص الناشر عمله بالآتي :

١ ـ أنه حاول أن يقدم للقارئ نسخة صحيحة دون أن يضيف إليه شيئاً من الحواشي ، سوى ما يوضح بعض جمل وردت فيه ، أو يصحح ما يراه وهماً أو خطأ بعد الرجوع إلى مصادر صحيحة[٣٤] .

٢ ـ لم يتعرض لتراجم من مر ذكرهم في الكتاب معللاً ذلك بقوله أن الكتاب نفسه لم يخصص لذلك وهو لا يريد شرحه[٣٥] .

٣ ـ ذكر في نهاية بعض فصول الكتاب جملة الأماكن التي لم يذكرها المؤلف والمتعلقة بتلك المواضع وذلك في الهامش . إلى جانب بعض الإيضاحات التي تتعلق بالمواضع المذكورة في الكتاب .

والواقع أن المراجع لتعليقات الناشر في الكتاب يجده قد خدمه بشكل واف يفوق في بعض أوجهه صنيعه في كثير مما نشره من نصوص اقتصر فيها على إيراد النص بلا تعليق كبير . فنحن نجد مراجعة مستقصية لكثير من المصادر الجغرافية والتاريخية وتحديداً لبعض المواضع ، مع التنبيه على بعض ما يذكره المؤلف مما لا يتسع له صدر بعض القراء . كما أشار إلى بعض التراجم وحدد وفيات بعض المترجمين ، على الرغم من أن ذلك لم يكن من خطته . وقد بلغت الحواشي والتعليقات على الحلقة الأخيرة من الكتاب[٣٦] ما يقارب ١٦ صفحة من الحرف الدقيق . تتعلق بإكمال الكتاب بالمواضع التي لم تذكر . مع مراجعة النصوص والمواضع على كتب البلدان والتاريخ لياقوت ، والبكري ، وكتاب الفاسي « العقد الثمين » ومصادر أخرى .

كما نشر الجاسر في هذا المجال رسالة صغيرة بعنوان : « جزء فيه ذكر وصف مكة شرفها الله ووصف المدينة الطيبة كرمها الله ، ووصف بيت المقدس المبارك حوله » لمؤلف مجهول يظن أن اسمه محمد بن أبي بكر التلمساني . وذلك اعتماداً على نسخة مكتبة الاسكوريال التي تقع الرسالة فيها ، ضمن مجموع يضم إلى جانب تلك الرسالة كتابين أحدهما : « منهاج المناقب » لابن أبي الخصال محمد بن مسعود الأندلسي (ت ٥٤٠هـ) وثانيهما « قصة إبراهيم عليه السلام » وانتهى نسخ الرسالة على يد حكم بن يوسف البلنسي بثغر منورقة في أواسط ذي الحجة سنة ٦٧٦هـ .

لقد نسبت الرسالة إلى التلمساني بسبب أبيات كتبت فوق طرتها منسوبة إليه ، كما أن الرسالة الأخرى في قصة إبراهيم عليه السلام هي من تأليفه . ومن دراسة النص وجد الناشر أن المؤلف من أبناء القرن الرابع الهجري ، ذلك لأنه يروي عن « الخزاعي عن الأزرقي » وبعد استعراض أسماء الخزاعيين الذين رووا كتاب الأزرقي يترجح الظن بأن المقصود هو محمد بن نافع الخزاعي ، الذي كان حياً سنة ٣٥٠هـ وله تأليف في فضائل الكعبة واتصل به بعض علماء الأندلس . كما يستدل على ذلك بأن أمير مكة كما جاء في بعض مواضع الرسالة يدعى جعفراً وباستعراض أسماء أمراء مكة يتبين أن جعفراً هذا قد استقل بحكم مكة منذ سنة ٣٥٨هـ وإلى حوالي سنة ٣٨٠هـ ، كما يتبين

من النص أن المؤلف من المغرب الأقصى لاستدلاله « بجدي القبلة » على ما يفعله سكان تلك البلاد . كما لا يذكر من الكتب إلا « الموطأ » دلالة على أنه مالكي[٣٧] .

صحح الجاسر الرسالة من حيث الضبط بالشكل على الرغم من كونها مضبوطة وكون خطها متقناً ، ولكنه صادف بعض التحريف في بعض الكلمات التي يظن أنها من عمل الكاتب ، وعلق عليها تعليقات طفيفة لا تتعدى الرجوع إلى كتاب الأزرقي . أو التنبيه على ما يقوله المؤلف فيما يخص العقيدة (ص ٣٥٠) أو تصحيح بعض المعلومات التاريخية .

ج ـ كتب الرحلات

تعد الرحلات إلى الجزيرة العربية أحد المصادر التاريخية والجغرافية لدراسة ماضي هذه البلاد وخاصة ما يتعلق منها بعصور الضعف السياسي . ولقد تركزت معظم الرحلات على منطقة الحرمين الشريفين إذ هي أكثر المناطق اجتذاباً للوافدين إلى الجزيرة . ولهذا نجد تراثاً هائلاً يتعلق بالمدينتين الكريمتين مكة والمدينة بشكل خاص ، ومواضع الحجاز بشكل عام ، تضمه كتب الرحلات الكثيرة التي ألفت في عصورمتفاوتة . ومع أهمية هذه المصادر إلا أن معلوماتها ظلت في معظمها مخبوءة في المخطوطات ، ولم يتهيأ لكثير منها النشر مما جعل الإفادة منها محدودة .

والملاحظ أن حمد الجاسر قد وجه اهتماماً خاصاً لهذا المصدر من مصادر المعلومات عن الجزيرة العربية فبدأ منذ أن أنشأ مجلة « العرب » في نشر ملخصات لما كتبه الرحالون خاصاً بمواضع الجزيرة العربية . فنشر بذلك مجموعة من المواد المتعلقة بهذه الرحلات ولعل من المناسب أن نشير بإيجاز إلى هذه الرحلات التي تناولها الجاسر بالتعريف والتلخيص والنشر في مجلته . سواء أكان ذلك مستقلاً أم كان ضمن بحثه الذي دعاه « في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج » والذي نشر منه أكثر من عشرين حلقة .

١ ـ رحلة النابلسي :

وهو الشيخ عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي ولد في دمشق سنة ١٠٥٠هـ وتوفي بها سنة ١١٤٣هـ وقد نشر الجاسر مقتطفات من رحلته المسماة « الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز » وهذه المقتطفات تتعلق بالمدينة المنورة

تحت بحث بعنوان : « المدينة المنورة في مطلع القرن الثاني عشر كما يصفها النابلسي في رحلته »[٣٨]. وقد كان وصول النابلسي إلى المدينة في ٢ ـ رمضان ـ ١١٠٥هـ ومكث فيها حتى السابع والعشرين من ذي القعدة من العام نفسه[٣٩].

نشر الجاسر هذه المقتطفات في مجلة « العرب » على حلقات تبلغ ثمانياً أولها في الجزء الأول من المجلد الثاني (شعبان ١٣٨٦هـ) وآخرها في الجزء الحادي عشر من المجلد الأول (جمادى الأولى سنة ١٣٨٧هـ) ولم يعلق عليها سوى تعليقات ضئيلة نادرة تختص ببيان بعض البدع. والواقع أن جهده انصب على التلخيص أكثر من أي شيء آخر.

٢ ـ رحلة محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي : (ت ١٢٣٩هـ)

في السنة التاسعة من « العرب » بدأ الجاسر سلسلة من البحوث بعنوان : « في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج » وكانت الحلقة الأولى في نهاية عام ١٣٩٤هـ[٤٠]. في هذه الحلقة تحدث الجاسر عن رحلات الأندلسيين وعلماء المغرب الذين دونوا الرحلات مثل أبي سالم العياشي (ت ١٠٩٠هـ) وأحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (ت ١١٢٩هـ) ومحمد بن عبد السلام الناصري الدرعي (ت ١٢٣٩هـ) وذكر أنه سيتناول الحديث عن رحلة الأخير « لقرب زمنها من عهدنا ولكونها غير منشورة »[٤١].

قام ابن عبد السلام الدرعي برحلتين إلى الحج الأولى سنة ١١٩٦هـ والثانية سنة ١٢١١هـ ورحلتاه إحداهما تسمى « الكبرى » وهي الأولى، والثانية تسمى « الصغرى ».

فالأولى توجد منها نسخة بخط المؤلف وقد كملت في ٢٩ من شهر جمادى الأولى سنة ١١٩٩هـ كما قوبلت من مؤلفها سنة ١٢٠٠هـ وهي محفوظة في الخزانة العامة في الرباط برقم ٢٦٥١ د.

أما الرحلة الثانية (الصغرى) فقد بدأها في ١٢١١/٥/٤هـ، وعاد إلى بلاده في ضحوة عاشوراء سنة ١٢١٣هـ، وذكر الجاسر أن « منها نسخة منقولة عن خط المؤلف في الخزانة الكتانية، وأخرى لدى الأستاذ عبد السلام بن سودة مؤلف كتاب « إتحاف المطالع » تاريخ نسخها سنة ١٣٧٣هـ وقد نسخها عبد السلام عن نسخة بخط مؤلفها في خزانة قاضي الجماعة بفاس محمد الصديق بن أحمد الفاسي ».

قدم الجاسر ملخصات لهاتين الرحلتين « تتعلق بتحديد منازل الحج ومناهله وذكر

سكان تلك المنازل ، مع ما أورده المؤلف من ذكر أحوال المدينتين الكريمتين مكة والمدينة » . أما المباحث التاريخية والدينية فقد عول المؤلف فيها على كتب معروفة ولذلك لم يطل الجاسر بذكرها . كما ذكر أنه قسم هذا الملخص ثلاثة أقسام :

١ ـ في وصف الرحلة من مصر إلى مكة .

٢ ـ في الطريق من مكة إلى المدينة .

٣ ـ في الطريق من المدينة إلى مصر .

لقد نشر الجاسر هذه الرحلة في سبع حلقات آخرها كانت في الجزئين الخامس والسادس من المجلد العاشر من « العرب » وقد رقمت خطأً برقم (٨) .

واقتصر عمل الجاسر على نشر مقتطفات من النص مع إشارات طفيفة في الهوامش . تتعلق بإيراد الحواشي الموجودة في نسخة الأصل ، والمراجعة على كتب بعض الرحالة كرحلة العياشي التي رجع إليها المؤلف كثيراً ، والعبدري والناصري ، وتصحيح مواضع قليلة جداً للمؤلف كما في تصحيحه لبلاد طيئ التي ظن المؤلف أن المويلح منها (مج ٩ ص ٣٦٣) ، (وكذلك في مج ٩ ص ٨٤٥) ، وموضع حقل (٨٣٦) ، ومقني (ص ٨٤١) وتصويب اسم بَلِيّ (مج ٩ ص ٨٤٦) . كما نبه على ما في الرحلة من معتقدات لا ترضى العقيدة السلفية كحرمة التوسل بالصالحين (مج ٩ ص ٨٤٥ وص ٨٢٥ ومج ١٠ ص ١٨١) ونحو ذلك .

٣ ـ رحلة العبدري :

وضمن سلسلة في « رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج » نشر الجاسر ملخصاً لرحلة العبدري ، وهو محمد بن محمد بن علي العبدري الحيحي . من رجال القرن السابع الهجري ، ورحلته مطبوعة نشر قسم منها في الجزائر لا يتضمن شيئاً عن الحج . ثم نشرها كاملة محمد الفاسي في الرباط سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) ، وصدرها بمقدمة عن مؤلفها جاءت في ٣٩٢ صفحة ، المتعلق بالحجاز منها ٦٧ صفحة (من ص ١٥٣ ـ ٢٢٠) .

قال الجاسر (مج ١٠ ص ٧١٥) « ولا يقلل من قيمة نشر ملخص تلك الرحلة كونها مطبوعة فكثير من القراء لم يطلعوا عليها لقلة رواج المطبوعات المغربية عامة في بلادنا » .

نشر الجاسر مقتطفات مما كتبه المؤلف عن رحلته من بربة ما بين الحجاز ومصر

إلى وصف طريقه من المدينة إلى الشام في العودة . وقد استغرقت المقتطفات ما يقارب نصف المنشور في المطبوعة إذا حسبنا عدد الصفحات في كل منها .

غير أن الجاسر لم يعلق على الرحلة تعليقات كثيرة بل اكتفى في كثير من هوامشها بذكر صفحات المطبوعة التي نقل منها النصوص . وقد حرص على التنبيه على ما في كلام المؤلف من حدة تتجلى حين يصف بعض الناس أو الأقوام ، أو البلدان فنجد الجاسر ينبه في المقدمة إلى ذلك واصفاً المؤلف بسلاطة اللسان (مج ١٠ ص ٧١٦) وخاصة فيما يتعلق بحديثه عن أحوال البادية في ذلك الزمان ، ويرد الجاسر ذلك إلى الفقر المسيطر على أرجاء الجزيرة آنذاك . وكذلك عند حديث المؤلف عن أهل مكة (ص ٧٣٣) فقد أورد الجاسر ما ذكره ابن عبد السلام الناصري في الرحلة الكبرى من انتقاد للعبدري عندما ذم أهل مصر ، واصفاً إياه بأنه « بربري من سكان الجبال ، لم يألف الناس ، ولا البحث معهم ولا الذهاب إليهم » ... إلخ . وكذلك عند حديث العبدري عن أعراب المدينة (ص ٧٤١) فقد علق الجاسر على ذلك بأن ذلك في عهد قد ضرب فيه الجهل وعمت الفوضى والحمد لله الذي بدل العسر باليسر (كذا) فعم الأمن هذه البلاد » .

كما نبه على بعض الخرافات كالتبرك بالأعواد الموجودة في الحرم النبوي مما لا يجيزه الشرع (ص ٧٤٤) .

٤ ـ رحلة البلوي :

وهو رحالة مغربي أندلسي اسمه خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم البلوي (ت بعد ٧٦٥هـ) وصل القاهرة قادماً من بلاده في ١٣ رجب ٧٣٧هـ ، وزار مكة المكرمة في ٥ ذي الحجة سنة ٧٣٨هـ قادماً من الشام بطريق البر[٤٢] . وعاد إلى مصر بعد الحج في ١٤ صفر سنة ٧٣٨هـ وتوجد من رحلته نسخ مخطوطة منها ثلاث مصورة في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة أرقامها ٢٠٢ و٤٠٠م و١٠٥٣ جغرافياً .

اطلع الناشر على النسخة الأخيرة وهي حديثة الخط كتبت سنة ١١٧٦هـ وتقع في ٢٤٠ ورقة وما يتعلق بالكلام منها على الحجاز يقع في ٣٧ ورقة من ٩٠ ـ ١٢٧ .

سمى المؤلف رحلته : « تاج المفرق في تحلية أهل المشرق » وقد نشر الجاسر منها ملخصات تتعلق بالمنازل والمآثر التي مر عليها الرحالة إلى أن انتهى إلى العقبة ، أو عقبة

أيلة التي يتفرق منها الحاج ، منهم من يذهب إلى الديار المصرية ومنهم من يذهب إلى الديار الشامية . واقتصر النشر على التلخيص ، وبعض الملاحظات الطفيفة حول تصحيح بعض المواضع ، والتنبيه على ما يرد في ثنايا الرحلة من البدع والأمور التي لا ترضي أهل السنة والجماعة ، كبناء القباب على القبور ، والتمسح والتبرك ببعض الأشياء كالأخشاب والأحجار ، ومالم يثبت تاريخياً من مآثر كموضع ميلاد النبي ﷺ .

٥ ـ رحلة العياشي :

وهو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي ، من أهل فاس ولد سنة ١٠٣٧هـ وحج مراراً سنة ١٠٥٩هـ وسنة ١٠٦٤هـ وسنة ١٠٧٢هـ والسنة الأخيرة هي التي سجل فيها الرحالة وقائع رحلته التي سماها « ماء الموائد » . وهي رحلة سبق طبعها في فاس طبعة حجرية بالخط المغربي سنة ١٣١٦هـ في جزئين يكونان ٨٩٨ صفحة . وقد برر الجاسر نشر مقتطفات من الرحلة في مجلة « العرب » على الرغم من كونها مطبوعة بقوله : « قد يقال أن الرحلة مطبوعة فلماذا هذا العمل والكتاب متداول » وأجاب عن ذلك بقوله :

١ ـ إن الكتاب مضى على طبعه زمن طويل فأصبح في حكم النادر .

٢ ـ إن الكتاب طبع على الحجر مصوراً بالخط المغربي .. الذي هو فرع من الخط الكوفي .. وهذا الفرع ... قل من يحسن قراءته من المشارقة . ولهذا لم يتمكن تجار الكتب من إعادة طبع هذا الكتاب ، مع طبعهم رحلات كثيرة .

٣ ـ تعتبر رحلة العياشي مصدراً مهماً من مصادر الرحلات .. وليس من المبالغة القول بأنها تفضل كل الرحلات التي وصلت إلينا مطبوعة فيما يتعلق بالحجاز بدون استثناء »[٤٣] .

بدأ الجاسر في نشر ملخصات ومقتطفات من رحلة العياشي منذ المجلد السابع من مجلة « العرب » فقد أفرد في الجزء الرابع من ذلك المجلد فصلاً في وصف العياشي لمدينة الطائف بعنوان « الطائف في القرن الحادي عشر » ، وفيه أورد ما جاء في الرحلة العياشية عن تلك المدينة ذاكراً إياه بنصه حاذفاً منه مالا تستسيغه عقول القراء[٤٤] . ثم أتبع ذلك في الجزء الذي يليه بفصل آخر بعنوان « جدة في القرن الحادي عشر » أورد فيه وصف العياشي لمدينة جدة[٤٥] .

ثم عاد إلى الرحلة في المجلد الثاني عشر في العددين المزدوجين (١ ـ ٢ ، ٣

ـ ٤) فقدم لها بمقدمة عن المؤلف حياته ومؤلفاته وتحدث فيها حديثاً موجزاً عن الرحلة ثم نشر ملخصات منها تبدأ بوصف الطريق من مصر إلى مكة ، ثم وصف مكة ومآثرها ومن اجتمع المؤلف به من علمائها ووصف عاداتها . ثم وصف الطريق من مكة إلى المدينة ، فوصف المدينة ووصف أهلها وعاداتهم ، وعلمائها والمقارنة بين أهلها وبين أهل مكة ، ثم العودة من المدينة إلى مكة ثم العودة مرة أخرى إلى المدينة في طريق الرجوع إلى بلاده . ثم جمع الجاسر تلك المقتطفات ونشرتها مجتمعة دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع في الرياض في جزء بلغت صفحاته ٢٢٣ صفحة . ويلحظ وجود بعض الاختلاف في الترتيب بين ما نشر في المجلة وما نشر في المطبوع . ففي مجلة العرب يورد الجاسر الحديث عن « الجعرانة » بعد الحديث عن « حجر المرفق » (ج ١٢ ، ص ١١٤) بينما نجد في مطبوعة الرفاعي ص ٦٣ فصلاً بعنوان « الآثار في منى » يأتي بعد « حجر المرفق » . أما « الجعرانة » فقد أفردها بفصل بعد ذلك بعدد من الصفحات (ص ٩٣) . كما نجد بعض التعليقات والاستدراكات التي ذكرها الجاسر في صلب المنشور في مجلة العرب ينتقل إلى الهامش في طبعة الرفاعي . (قارن مثلاً بين (ج ١٢ ص ١١٣) من العرب و(ص ٦٠) من مطبوعة الرفاعي) .

سلك الجاسر في نشر هذه الرحلة المسلك السابق في تلخيص ما يخص طريق الحج ومنازله من المواضع المتعلقة بالجزيرة العربية والقريبة منها .

واقتصرت الهوامش في الرحلة على الرجوع إلى صفحات المطبوعة والتنبيه على بعض الخرافات والبدع . وتصحيح بعض أوهام المؤلف كتعبيره عن السعدان « بأنه شجر وهو « عشب »[٤٦] أو قوله بأن ابن خلكان قد جزم بوجود قبر حواء ، والأمر ليس كذلك[٤٧] ، وبعض التصحيحات لأسماء الأماكن ووصفها إلى جانب تقديم النص بشكل مقروء جذاب .

ويبدو أن الناشر لم يمكن يسلك أسلوب التسلسل في نشر هذه الملخصات كما وردت في الرحلة الأصلية . فهناك ـ مثلاً ـ فقرة تتكرر بنصها في موضعين مختلفين وهي وصف العياشي لوسائل ركوب أهل الحجاز في ذلك الزمان وهي الحمير وإعجابه بسرعتها . فنحن نجد هذه الفقرة في سياق وصف المؤلف لطريقه من جدة إلى مكة (ص ٩٩ مطبوعة الرفاعي) . ولكن ما نلبث أن نجد الفقرة بنصها تتكرر عند وصف

العياشي للإبل المكتراه من المدينة إلى مكة (ص ٢٠٦) فهو يقول : « وكما وصف العياشي الإبل في الحجاز هذا الوصف فإنه قد وصف وسيلة الركوب الأخرى وقد سار عليها من مكة إلى جدة فقال : ..... » ويعيد الفقرة بنصها مع أنها واردة في الكتاب نفسه وكان بالإمكان الإشارة إليها برقم الصفحة . ولعل ذلك ناتج من تفاوت النشر في مجلة « العرب » بين المجلد السابع والمجلد الثاني عشر ، وحرص الناشر على أن يطلع القارىء على هذه الفقرة التي لم يتنبه إليها عند إعداد المادة للنشر في صورة كتاب .

٦ ـ الرحلة الناصرية :

لأحمد بن محمد بن ناصر الدّرعي المولود سنة ١٠٥٧هـ والمتوفى سنة ١١٢٩هـ (أو ١١٢٨هـ) وقد نشر حمد الجاسر في « العرب » ملخصات منها عن النسخة المطبوعة طبعة حجرية في مدينة فاس سنة ١٣٢٠هـ ومن هذه الرحلة نسخة مخطوطة في الخزانة العامة في الرباط سنة ١٣٠٦هـ بعنوان : « رحلة إلى بيت الله الحرام » في ٢٤٠ ورقة ، وأخرى أقدم منها خطاً مكتوبة سنة ١١٣٨هـ في ١٣٤ ورقة في المجموع رقم ٢٣٤٣ .

خرج ابن ناصر من الزاوية الناصرية في درعة يوم الخميس ٢٤ جمادى الأولى سنة ١١٢١هـ وعاد إلى الزاوية في خامس رمضان سنة ١١٢٢هـ ويقول الجاسر بأن « هذه الرحلة تعتبر متممة للرحلة العياشية التي اعتمدها المؤلف أصلاً له ونقل عنها كثيراً ، وهذا ما دعا إلى تلخيص ما يتعلق بالحجاز منها ، لا سيما وأن بعض ما ورد في رحلة العياشي موجود فيها ولم ينشر فيما نشر من تلك الرحلة »[٤٨] .

لقد اقتصر عمل الجاسر هنا على اختصار كلام المؤلف في المواضع التي اختارها من الرحلة مع تقديمها في شكل أوضح . واقتصرت الهوامش على ذكر صفحات الرحلة المطبوعة القديمة ، والرجوع إلى الرحلة العياشية في المواضع التي رجع فيها المؤلف إليها ، وبعض التعليقات حول بعض المواضع تصحيحاً أو توضيحاً ونحو ذلك .

٧ ـ رحلة المنالي الزبادي :

وهو عبد المجيد بن علي المنالي الزبادي الحسني الإدريسي الفاسي المتوفى سنة ١١٦٣هـ أحد علماء المالكية . حج سنة ١١٤٨هـ وقد اعتمد في وصف كثير من مشاهداته على رحلة العياشي .

ورحلة الزبادي مخطوطة في خزانة الرباط (لم يذكر رقمها) وقد وصفها حمد الجاسر بأنها « من أوسع الرحلات إلى الحج وأوفاها ، وتعتبر متممة لرحلات العياشي

والدرعي وابن ناصر »[٤٩] . ثم وصف عمله في الرحلة بقوله : « وسألخص من رحلته ما يتعلق بوصف الطريق من القاهرة إلى مكة من وصف آثار المدينتين الكريمتين ومشاعر الحج ، محافظاً على كلامه بنصه ، مع حذف ما لا فائدة من ذكره »[٥٠] .

نشر الجاسر من الرحلة ما يبدأ « ببركة القاهرة » ومنها إلى مكة المكرمة والمدينة ثم إلى المويلح . حيث ينتهي ما اختاره الناشر من الرحلة . وأتبعها بنشر قصيدة المنالي المسماة : « إتحاف المسكين الناسك ببيان المراحل والمناسك » والتي ختم بها رحلته وتقع في ١٣٠ بيتاً .

٨ ـ رحلة السيد محمد البكري:

لم يذكر الجاسر شيئاً عن هذا المؤلف الرحالة[٥١] فلم يحقق زمنه ولم يطلع على نسخة مطبوعة أو مخطوطة من رحلته ويبدو أن ذلك كله لم يكن ممكناً . وغاية ما أراده هو جمع النقول التي وردت عنه في كتب بعض الرحالين المغاربة ، كالعياشي ، ومحمد بن أحمد بن ناصر الدرعي صاحب الرحلة الناصرية ، وأبي مدين .

ومن سنة المؤلف أن يذكر بعد كل منزلة من منازل الطريق أبياتاً من شعره . وقد جمع الجاسر ذلك من الرحلات المختلفة وأشار إلى مواضعه منها وخاصة من الرحلتين الناصرية والعياشية . وعلق على بعض المواضع فيها تعليقات يسيرة جداً ونشرها ضمن بحثه » في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج » في مجلة العرب[٥٢] .

واقتصر العمل على اختيار النقول وحذف بعض ما لا يناسب من العبارات وأبيات الشعر والمقابلة على ما في الرحلات المذكورة .

٩ ـ رحلة الهشتكي :

وهو أحمد بن محمد الهشتكي (ت ١٠٩٦هـ) وعنوانها : « هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام » وهو عالم مغربي . وقد ذكر الجاسر أن ما تضيفه هذه الرحلة من معلومات جديدة قليل إلا أن الباحث قد يستفيد منها .

نشر الجاسر من رحلة « الهشتكي » ما يتعلق بأماكن طريق الحج ، من العقبة إلى مكة و« ما تحدث به عمن شاهده من علماء مكة وعما شاهده فيها » .

وللرحلة مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط ، وذكر ابن سودة في كتابه « دليل مؤرخي المغرب » (ص ٣٧٠) بأن منها نسخة في تمكروت ويظن أنها بخط المؤلف

ويلحظ حمد الجاسر أن : كاتب الرحلة كان مرافقاً لشيخ فهو يدون رحلته ، وكثير من أسماء المواضع أوردها محرفة مما يدل على قصوره في المعرفة »[٥٣] .

واقتصر النشر على تقديم النص كما هو ، مع بعض الإشارات الطفيفة والغريب أن الجاسر في هذا النص لم يصحح أسماء المواضع التي ذكر أنها محرفة ولم يشر إلى ذلك في الهامش. مثل « المليح » وهي على ما ذكر « المويلح » و« الأزلام » وغير ذلك .

١٠ ـ رحلة السنوسي التونسي :

وهو محمد بن عثمان بن محمد السنوسي ، المولود في تونس سنة ١٢٦٦هـ والمتوفى في رجب سنة ١٣١٨هـ . وقد قام برحلته سنة ١٢٩٩هـ وكان حجه عن طريق البحر من بورسعيد إلى جدة التي بلغها في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٩٩هـ ودخل مكة في ٢٨ ذي القعدة من السنة نفسها . وقد لخص حمد الجاسر هذه الرحلة وهي مخطوطة في دار الكتب الوطنية في تونس . (لم يذكر رقمها) وقال : « ومع أن مؤلفها حديث العهد إلا أن فيها من المعلومات ما يحتاج إليه الباحثون »[٥٤] .

كما أشار إلى اهتمام التونسي بالأدب والأدباء فقال : « وتبرز في كتابات السنوسي عناية بالأدب والأدباء ، ولهذا فإن دارسي تاريخ الأدب في هذه البلاد في الحقبة الأخيرة ، لا يعدمون فيما كتب السنوسي في رحلته جانباً مفيداً مع ملاحظة أنه توسع فيما كتب ولم نأت على جميع ذلك »[٥٥] .

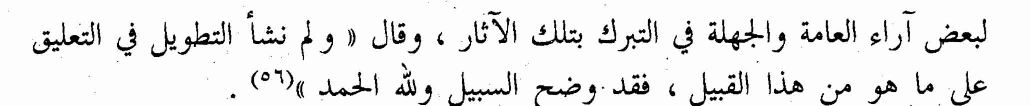
لقد اقتصر النشر على التلخيص والتنبيه على بعض المواضع من الرحلة .

١١ ـ الرحلة الحامدية :

مؤلفها إسماعيل الحامدي المكي . وهو رحالة توجه للحج من مصر في ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٩٧هـ إلى السويس ، وركب في باخرة فرنسية إلى جدة فوصلها في ٢٢ ذي القعدة ووصل مكة في ٢٤ منه ، وغادر مكة في ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٩٧هـ وعاد إلى منزله في مصر بعد مغرب يوم الاثنين ٩ صفر سنة ١٢٩٨هـ .

مخطوطة رحلة الحامدي في خزانة الرباط ، كتبت في ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٠٤هـ وكاتبها يدعى عامر محمد أحمد الحواتكي . وهي ممزوجة بالمناسك .

نشر الجاسر ملخصاً لهذه الرحلة وقد وصف مؤلفها بأنه « متأثر » بروح عصره من حيث عدم التحقيق فيما يتعلق بالآثار المنسوبة للصالحين ، ومن حيث الانصياع



لبعض آراء العامة والجهلة في التبرك بتلك الآثار ، وقال « ولم نشأ التطويل في التعليق على ما هو من هذا القبيل ، فقد وضح السبيل ولله الحمد »[٥٦] .

ومع ذلك فقد تعقب الجاسر المؤلف في مواضع عدة مبيناً بطلان ما ذهب إليه إما من ناحية العقيدة أو من ناحية التاريخ .

١٢ ـ رحلة ابن كيران المغربي :

وصاحبها محمد بن الطيب بن أبي بكر بن الطيب بن كيران ، المتوفى سنة ١٣١٤هـ واسم رحلته « الرحلة الفاسية الممزوجة بالمناسك المالكية » وقد ضمنها وقائع رحلته إلى الحج سنة ١٢٩٣هـ وهي مطبوعة في فاس على الحجر . ومنها مخطوطة في خزانة الرباط برقم ٢٣٥٦ مكتوبة سنة ١٣٢٣هـ .

قدم الرحالة بحراً إلى جدة في ١٦ ذي القعدة سنة ١٢٩٣هـ وعاد إلى وطنه فاس في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٩٤هـ . وقد رجع حمد الجاسر إلى مخطوطة خزانة الرباط ولخص عمله قائلاً : « وسننقل من رحلته ما يتعلق بتحديد المواضع ، أو ما يتصل بوصف الحالة الاجتماعية في الحجاز وما سننقله موجز جداً لأن الرحالة أفرغ جهده في إيضاح الأمور الدينية ، ولم يعن بالنواحي الجغرافية ، أو غيرها »[٥٧] .

ولا تخلو الهوامش في هذه الرحلة أيضاً من التنبيه على ما وهم فيه المؤلف من الأماكن أو العقائد أو الحوادث . ولكنها ملاحظات قليلة جداً لا تكاد تذكر .

١٣ ـ رحلة التامراوي :

والمؤلف هو محمد بن محمد المزواري التامراوي ، توفى سنة ١٢٨٥هـ . ذكر حمد الجاسر أنه قدم حاجاً بطريق البحر من السويس إلى جدة سنة ١٢٤٢هـ وعاد بطريق البر إلى مصر فوصلها في ١٣ صفر سنة ١٢٤٣هـ وبعد أن أقام عشرة أيام في القاهرة غادرها إلى بلده فوصلها في ٩ شعبان ١٢٤٣هـ .

والمقتطفات التي أوردها الناشر مأخوذة من كتاب « المعسول » و« هو كتاب يقع في أجزاء كثيرة مطبوع في المغرب ، ولكنه نادر في المشرق »[٥٨] . والرحلة كاملة تقع في الجزء الثامن منه .

يقع الملخص في ست صفحات والتعليقات عليه لا تخرج عما سبق ذكره من تعليقات على الرحلات السابقة وهي في هذه الرحلة لا تخلو منها صفحة من الصفحات .

١٤ ـ رحلة الشاكري :

عنوانها « رحلة إلى بيت الله الحرام » ومؤلفها إدريس بن عبد الهادي العلوي الشاكري الحسني ، توفى في المدينة المنورة سنة ١٣٣١هـ نسختها خطية في الخزانة العامة بالرباط تقع على ما ذكر حمد الجاسر في ١٠ ورقات في مجموع رقمه ٢٣٥٨ . وقد خرج مؤلفها من بلاده فاس في ٣ رمضان سنة ١٢٨٣هـ وأبحر من السويس إلى ينبع فوصلها في ٤ ذي القعدة سنة ١٢٨٣هـ وصفها الجاسر بقوله : « وليس في هذه الرحلة التي سأورد ملخص ما يتعلق بالحجاز منها كبير فائدة إلا أن الحرص على تدوين ما يتعلق ببلادنا من أوصاف الرحالين ، وعلى معرفة ما يطرأ على معالم تلك البلاد بمرور الزمن يحمل على عدم إهمال شيء من الرحلات . وقد يجد أحد القراء في نص من النصوص مالا يجده غيره »[٥٩] . وفي نهايتها قال : « انتهى ما لخصته من تلك الرحلة ولم أر فيما كتب عن المدينتين الكريمتين المدينة ومكة ما يضيف جديداً إلى ما ذكره متقدمو الرحالين الذين لخصت كلامهم » .

١٥ ـ رحلة القطبي النهروالي :

وهو محمد بن أحمد النهروالي المكي (ت ٩٩٠هـ) ورحلته تسمى : « الفوائد السنية في الرحلة المدنية والرومية » . لقد قدم حمد الجاسر لهذه الرحلة بمقدمة تحدث فيها عن رحلات علماء الحجاز وأدبائه ورحلة القطبي ـ كما يقول ـ أقدم هذه الرحلات[٦٠] وقد وصفها بقوله : « الرحلة تقع في قسمين : الأول وصف رحلاته إلى المدينة المنورة وهي سبع رحلات ، سجل منها أخبار خمس وأشار إلى اثنتين إحداهما حين رحل إلى المدينة مع والديه سنة سبع وثلاثين وتسعمائة ، وهو في سن العشرين ، وهي أولى رحلاته إلى المدينة ، ولم يكتب عنها في كتاب رحلته شيئاً .. والرحلة الثانية ذكرها في سنة ٩٦٥هـ وترك بياضاً لوصفها فيما بعد . والرحلات الخمس التي سجل وصفها هي :

الرحلة الأولى سنة ٩٥٩هـ .
الرحلة الثانية سنة ٩٦٤هـ .
الرحلة الثالثة سنة ٩٧١هـ .
الرحلة الرابعة سنة ٩٧٦هـ .
الرحلة الخامسة سنة ٩٨٠هـ .

نشر الجاسر ملخصات ومقتطفات من رحلة القطبي كما فعل مع الرحلات السابقة وعلى الرغم من أن الجاسر قد حذف ـ على مضض ـ كثيراً من الأبيات والأسطر التي تحتوي على غلو في مخاطبة النبي ﷺ الشعرية العربية والفارسية ، كما بيّن ذلك في مقدمته الطويلة حول هذا الموضوع ، إلا أنه لم يغفل التعليق على كثير من المواضع . وكان من نتيجة قراءته لهذه الرحلة أن وجدنا تعليقات مفيدة على كثير من كلماتها واستعمالاتها اللغوية ، وما ورد فيها من تعبيرات . وكذلك بعض التصحيحات وقد بلغت هوامشه ٥٥ هامشاً وهي تختلف إلى حد ما عن مجرد القيام بالتلخيص الذي كان سمة عامة للرحلات السابقة .

١٦ ـ رحلة الخياري :

وهو إبراهيم بن عبد الرحمن (ت ١٠٨٣هـ) واسم رحلته « تحفة الأدباء وسلوة الغرباء » سجل فيها رحلته من المدينة إلى استانبول وعودته منها إلى المدينة وقد استعرضها الجاسر ضمن بحث بعنوان « مع الشيخ إبراهيم الخياري المدني في رحلته » نشره في مجلة العرب[٦١] .

تحدث الجاسر عن الشيخ إبراهيم الخياري وأسرته ومظان ترجمته ، ثم تحدث عن السبب في ارتحاله من المدينة إلى استانبول وتحدث عن الرحلات التي قام بها أهل الحجاز ومنها رحلة السيد محمد بن عبد الله الحسيني المعروف بكبريت (ت ١٠٧٠هـ) والنابلسي (ت ١١٤٣هـ) وقد استفاد الثاني من رحلة الخياري ونقل عنها على ما ذكر الناشر (ص ٢٢٣) . ثم أفرد حديثاً عن رحلة الخياري واصفاً إياها بأنها : أعظم أثر خلفه الشيخ إبراهيم الخياري (ص ٢٢٤) .

وتحدث عن تأليف الخياري لرسالة اسمها : « خلاصة الأبحاث والنقول » أفردها للحديث عن العناية بالمولد النبوي في بلاد الشام حاثاً على الاعتناء بليلة المولد ويومها ، وبيّن الجاسر مخالفة ذلك لعقيدة السلف ذاكراً أن العصر الذي عاش الخياري فيه ساد فيه الجمود الفكري وخيم على العالم الإسلامي من سحب الخرافات والتقليد مما شوه معالم الإسلام ومزجه بكثير من الخرافات والأباطيل البعيدة عن روحه »[٦٢] .

وبعد أن تحدث عن نسخ الرحلة في دار الكتب المصرية وألمانيا واستانبول قال بأن : « أجودها النسخة الألمانية التي كانت في مكتبة برلين ثم نقلت منها أثناء الحرب العالمية الثانية إلى إحدى المدن الألمانية ولا تزال محفوظة وسنعبر عنها بالنسخة الألمانية »[٦٣] .

هذه النسخة التي اعتمد عليها الناشر كتبت في حياة المؤلف في ١١ ربيع الثاني سنة ١٠٨٣هـ والمؤلف توفى في اليوم الثاني من رجب من هذا العام أي قبل وفاته بثمانين يوماً . وهي بخط رمضان العطيفي الدمشقي (ت ١٠٩٥هـ) وقد تحدث الناشر حديثاً مسهباً عن الشيخ العطيفي الذي اجتمع به صاحب الرحلة ودارت بينه وبينه مراسلات أدبية .

اتبع في هذه الرحلة الجاسر أسلوباً في التلخيص مختصراً جداً إذ يلخص في سطور قليلة ورقات كثيرة . ففي سطرين لخص مسيرة المؤلف من معان إلى مدينة دمشق وكان قد استغرق ذكره خمس ورقات في الأصل وفي ثلاثة أسطر ونصف لخص ٢٣ ورقة لمكث المؤلف في دمشق مدة تقارب عشرين يوماً .. وهكذا إلى أن وصل السلطان إلى مدينة (أقرينوز) وتابع المؤلف في رحلته ملخصاً بعض أحداث الرحلة تلخيصاً شديداً ، مطيلاً في بعض المواضع إطالة مناسبة إلى أن وصل المؤلف إلى المدينة المنورة في ٢٨ ذي القعدة سنة ١٠٨١هـ .

١٧ ـ رحلة الجودي القيرواني :

وهي رحلة حديثة نسبياً إذ أن صاحبها محمد بن صالح الجودي القيرواني التميمي توفى في سنة ١٣٦٢هـ .

لم يذكر الناشر مكان وجود أصل هذه الرحلة ولا تاريخ نسخها ولكنها بخط المؤلف ويرى أن المؤلف قد عاجلته المنية قبل نقل رحلته من المسودة . « ولهذا وقع فيها كثير من الإضافات والهوامش ، مع عدم وضوح كثير من الكلمات مما يدل على أنه كان يكتب لنفسه لا ليقرأه غيره » .

بدأ المؤلف رحلته في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٣٣١هـ بحراً من بورسعيد ، وغادر المدينة في طريق العودة إلى الشام في ١٨ صفر سنة ١٣٣٢هـ .

نشر الجاسر هذه الرحلة على حلقات في مجلة « العرب » بلغت ثمانياً منذ العدد المزدوج ١ و٢ من المجلد السادس عشر وحتى العدد المزدوج ١١ و١٢ من المجلد السابع عشر وقد اعترى هذه الحلقات اضطراب في الترقيم ابتداء من الحلقة الخامسة التي رقمت خطأ بالرابعة ، وكذلك الحلقة الثامنة التي رقمت خطأ بالسابعة .

لخص الجاسر مواضع الرحلة وربط بين كثير من مواضعها بكلام من عنده مع إيراد نص المؤلف . واهتم بصفة خاصة بإبراز مشاهدات المؤلف فيما يخص النواحي العلمية

والثقافية ومن ذلك اجتماع المؤلف بعلماء وأدباء في أثناء رحلته ، وأورد في مواضع متعددة تردده على المكتبات العامة وسرده لأسماء الكتب التي رآها فيها .

أما هوامش الرحلة فقد انصبت ، كما في كثير من الرحلات التي لخصها ، على بيان موقف أهل السنة والجماعة مما ذكر المؤلف من بدع وخرافات وتعريف بالشخصيات المناهضة للدعوة السلفية ، أو بعض الكتب المتعلقة بالبدع أو التصوف . ولم يخل نص البحث من الإشارة إلى ذلك أيضاً .

١٨ ـ رحلة الوزير الإسحاقي المغربي :

ومؤلفها أبو محمد الشرقي الإسحاقي المغربي وقد قال عنه حمد الجاسر « ليس بين يدي من المصادر ما استفيد منه ترجمته ولكنه كان وزيراً لملك المغرب عبد الله بن إسماعيل ولأبيه من قبله »[٦٤] .

كان الوزير مرافقاً للأميرة خناثي أم سلطان المغرب عبد الله بن إسماعيل الحسني . وقد وصف في كتابه رحلة الأميرة للحج التي خرجت من فاس في جمادى الآخرة سنة ١١٤٣هـ » .

نشر الجاسر مقتطفات من الرحلة ابتداء من خروج ركب الأميرة من القاهرة إلى البلاد المقدسة ، على نسخة مصورة عن مخطوطة تحتفظ بها الخزانة الملكية في فاس وهي حديثة الكتابة إذ تاريخ نسخها ١٣٤٣هـ وتقع في ٣٩٨ صفحة بخط عبد الرحمن بن محمد بن زيدان (ت ١٣٦٥هـ) .

وفي النسخة سقط يقارب أربعين صفحة إذ ينتهي الكلام فيما وجد منها عند مشاهدات الرحالة في المدينة المنورة (من ص ٣٤٩ إلى ص ٣٨٩) حيث ينتهي الكتاب .

اقتصرت ملاحظات الناشر على التعليق الطفيف على بعض الأماكن والإشارة إلى ما جاء في الرحلة من البدع التي لا ترضي أهل السنة والجماعة .

حمد الجاسر والرحلات :

إن المستعرض لما نشره حمد الجاسر من مواد الرحلات الخاصة بالحج يلحظ أموراً مشتركة كانت تميز عمل الجاسر في هذا المجال . ويمكن إجمالها بالآتي :

١ ـ أنه اقتصر في نشره على المواد التي تتعلق بالجزيرة العربية ، فهو يبدأ مع الرحالة



منذ أن يترك آخر قطر قريب من الجزيرة فبالنسبة لحجاج البر القادمين من المغرب نجد المعلومات المنشورة تبدأ منذ أن يترك الرحالة موضع « البركة » متوجهاً عبر سيناء في طريق الحج المصري . وبالنسبة لحجاج البحر يبدأ بنشر المعلومات منذ أن يترك الحاج بلدة السويس .

٢ ـ كان التلخيص تارة يحتفظ بالنص المكتوب من قبل الرحالة وتارة يكون بكلام في معناه طلباً للاختصار .

٣ ـ اهتم الجاسر اهتماماً واضحاً بتبيين البدع التي ذكرها الرحالة من تبرك بالقبور أوإشادة بالقباب ، أو توسل بالرسول عليه الصلاة والسلام ، أو حديث عن الموالد أو ذكر لكتب لا تتفق وموقف أهل السنة والجماعة . وكان يعلل في كل مناسبة أن ذلك كان بسبب « الجمود الفكري » الذي خيم على العالم الإسلامي في تلك العصور . ويبين في مواضع مختلفة أن هذه الأمور قد زالت الآن ولم يعد لها أثر . ولقد حذف الجاسر بعض نصوص من هذه الرحلات هي في صميم الوصف الفعلي لما كان يحدث في الأماكن المقدسة من ممارسات دينية في ذلك الوقت . فعل ذلك مضطراً معتذراً بأن صدور بعض القراء لا تتسع لتلك المعلومات . وأنه لم يجد بداً من حذفها .

٤ ـ اهتم الجاسر في معظم هذه الرحلات ـ كعادته ـ بإبراز النصوص ، إذا ما ذكرها ، كما تركها مؤلفوها ، واقتصر التعليق عنده على تصحيح طفيف لبعض أسماء الأماكن ، أو تصويب لبعض المعلومات ، وهذا لا ينفي أنه بذل جهداً متفاوتاً في نشر هذه الرحلات فنجد مثلاً تعليقاته على رحلات القطبي إلى المدينة تتميز بالثراء أكثر من تعليقاته على الرحلات الأخرى . كما نجده يكتفي في رحلات أخرى بذكر الملخص دون عناية تذكر بتصحيح أو تعقيب إلا ما يخص العقيدة .

٥ ـ لم يهتم الجاسر بذكر الأمور الفقهية التي يوردها الرحالون أثناء رحلاتهم مما يتعلق بمناسك الحج . وعلل ذلك بأنه معروف وأن مكانه كتب الفقه .

٦ ـ من الملاحظ أيضاً أن الجاسر كان يعتذر لأعراب ذلك الزمان ممن كانوا يعتدون على الحجاج بالسلب والنهب والقتل . ويبين أن سبب ذلك راجع إلى الفقر الذي كانت تعيشه الجزيرة العربية . إلى جانب عدم الاستقرار السياسي . كما

يشير إلى أن تلك الممارسات قد انتهت ؛ ولله الحمد ، باستقرار البلاد منذ أن دخلت جميعها في حكم الدولة السعودية .

●●●

● الهــوامـــش ●

(*) انظر للكاتب ، « حركة إحياء التراث قبل توحيد الجزيرة » ، الدارة ، ع ١ ، مج ٢ ربيع الأول ١٣٩٥هـ/ مارس ١٩٧٥م ص ٤٤ ـ ٦٢ و« حركة إحياء التراث بعد توحيد الجزيرة » (كتب العقيدة والتشريع) الدارة ، ع ٤ ، مج ٣ صفر سنة ١٣٩٨هـ/يناير ١٩٧٨م ص ٨ ـ ٢١ و« حركة إحياء التراث بعد توحيد الجزيرة » (كتب التفسير والحديث) الدارة ، ع ٣ مج ٤ ، شوال ١٣٩٨هـ/سبتمبر ١٩٧٨م وكتب التاريخ (١) ، الدارة ع ٤ مج ٥ رجب ١٤٠٠هـ/يونية ١٩٨٠م ص ٢١ ـ ٢٨ و« حركة إحياء التراث بعد توحيد الجزيرة » (كتب التاريخ (٢) الدارة ع ٣ مج ٥ ربيع الثاني ١٤٠٠هـ/مارس ١٩٨٠م ص ٩ ـ ١٦ و« حركة إحياء التراث بعد توحيد الجزيرة » (كتب الجغرافية) الدارة ، ع ٤ ، مج ١٤ ، رجب ، شعبان ، رمضان ١٤٠٩هـ ، ص ص ٦ ـ ١٤ . والدارة ع ٢ ، مج ١٥ ، المحرم ، صفر ، ربيع الأول سنة ١٤١٠هـ ، ص ص ٧ ـ ١٩ .

(١) كما في الحلقة السابعة فقد ظهرت مكررة في ثلاثة أجزاء . والحلقة ٢٣ وكان حقها أن تكون ٢٤ والحلقة ٢٨ وقد رقمت خطأ ٣١ وغير ذلك .

(٢) العرب ، مج ٢٤ ج ٣ و ٤ رمضان وشوال سنة ١٤٠٩هـ/مارس وأبريل سنة ١٩٨٩م ص ص ٢٧٥ ـ ٢٨٠ .

(٣) العرب مج ١ ، ج ٤ شوال ١٣٨٦هـ/كانون الثاني ١٩٦٧م ص ص ٣٠٩ ـ ٣٢٢ ، ومج ١ ج ٦ ذو الحجة ١٣٨٦هـ/آذار ١٩٦٧م ص ص ٥٤١ ـ ٤٤٥ ، ومج ١ ج ٧ محرم ١٣٨٧هـ/نيسان ١٩٦٧م ص ص ٦٢١ ـ ٦٢٤ ، ومج ١ ج ٨ صفر سنة ١٣٨٧هـ/آيار ١٩٦٧م ، ص ص ٧٢٠ ـ ٧٢٣ و٧٢٥ .

(٤) العرب مج ١ ج ٨ ص ٧٢٥ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) انظر على سبيل المثال الآراء التي أوردها حول تسمية « الحجون » وتحديده ، العرب مج ٢٣ ج ٩ و١٠ الربيعان ١٤٠٩هـ ص ٧٠٥ .

(٧) الجاسر ، حمد ، أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع ، الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، سنة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

(٨) الجاسر ، حمد ، أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع ص ٧١ ـ ٩٢ والتلخيص الآتي كله منه .

(٩) المصدر السابق ص ٩٢ .

(١٠) المصدر السابق ص ٩٤ وما بعدها .

(١١) البكري ، معجم ما استعجم ، المقدمة .

ويرى الجاسر أن عراماً السلمي كان معاصراً للهجري ، وأن السكوني في هذه الحالة كان متأخراً عن الهجري ، أبو علي الهجري ، ص ٧٠ .

(١٢) جامعة الرياض ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الأول ، الرياض ،

مطابع جامعة الرياض سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ص ص ٢٢٩ - ٢٤٤ .

(١٣) الجزيري ، عبد القادر بن محمد ، درر الفرائد ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها سنة ١٣٨٤ هـ المقدمة .

(١٤) الجاسر ، حمد ، « كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب » مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(١٥) الجاسر ، حمد ، « كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب » مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(١٦) الجزيري ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، نشر حمد الجاسر ، الرياض دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، المقدمة .

(١٧) الجاسر ، حمد ، المصدر السابق ص ص ٩ - ١٠ .

(١٨) المصدر نفسه ص ١٢ .

(١٩) المصدر نفسه ص ٥٨ .

(٢٠) المصدر نفسه ص ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

(٢٢) انظر على سبيل المثال إشارته إلى « تاريخ مكة » للأزرقي ص ص ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦ وإلى « شفاء الغرام » للفاسي ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

(٢٣) العرب ، مج ١٠ ج ١١ ، جماديان ١٣٩٦هـ مايو - يونيو ١٩٧٦م ص ٨٦٩ .

(٢٤) المصدر السابق ، ص ٨٧٠ .

(٢٥) حمد الجاسر ، « كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب » ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ج ١ ص ٢٣٦ .

(٢٦) مجلة العرب ، المصدر السابق ، ص ٨٧٥ .

(٢٧) العرب مج ١٢ ج ٥ و٦ ، ذو القعدة والحجة سنة ١٣٩٧هـ/نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧م ص ص ٤٠٦ - ٤١٤ .

(٢٨) المصدر نفسه ص ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .

(٢٩) المصدر نفسه ص ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .

(٣٠) العرب مج ٣ ج ٤ شوال ١٣٨٨هـ/يناير ١٩٦٩م ص ص ٣٠٤ - ٣٢٤ .

(٣١) قال عنه « وقد ضبط الشيخ محب الدين ابن العطار في سنة ٨٣٦ منازل طريق الحج في الدرب المصري ومناهله في وريقات مختصرة إلى الغاية ، وأحال على « درر » ص ٧٤٦ وقد مر بنا أن ابن العطار كان قد وصف طريق الحج الشامي .

(٣٢) العرب مج ١٨ ج ١ و٢ رجب - شعبان سنة ١٤٠٣هـ/أبريل - مايو ١٩٨٣م ص ص ١ - ٥٣ وص ص ١٨٧ - ٢١٤ وص ص ٣٥٧ - ٣٨٢ .

(٣٣) العرب مج ١٨ ، ج ٥ و٦ ذو القعدة والحجة ١٤٠٣هـ/سبتمبر واكتوبر ١٩٨٣م ص ٣٦٦ .

(٣٤) المصدر السابق مج ١٨ ، ج ١ و٢ ص ١٩ .

(٣٥) نفسه ص ٢٠ .

(٣٦) العرب مج ١٨ ج ٥ و٦ ذو القعدة والحجة سنة ١٤٠٣هـ/سبتمبر واكتوبر ١٩٨٣م ص ص ٣٥٧ - ٣٨٢ .

(٣٧) انظر المقدمة ، العرب مج ٨ ج ٥ و٦ ، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٩٣هـ/ديسمبر ـ يناير ١٩٧٤م ص ص ٣٢٥ ـ ٣٣٠ .
(٣٨) العرب مج ١ ج ٢ شعبان ١٣٨٦هـ/تشرين الثاني ١٩٦٦م ص ١٤٣ .
(٣٩) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .
(٤٠) العرب مج ٩ ج ٥ و٦ ذو القعدة وذو الحجة ١٣٩٤هـ يناير ١٩٧٥م ص ٣٢١ .
(٤١) المصدر نفسه ص ٣٢٨ .
(٤٢) العرب مج ١١ ج ٩ و١٠ ص ٧٢٨ .
(٤٣) العرب مج ١٢ ج ١و٢ رجب وشعبان ١٣٩٧هـ ص ٦٨ .
(٤٤) « الطائف في القرن الحادي عشر » ، العرب مج ٧ ، ج ٤ شوال ١٣٩٢هـ/نوفمبر ١٩٧٢م ص ص ٢٩٤ ـ ٣٠١ .
(٤٥) « جدة في القرن الحادي عشر » العرب مج ٧ ، ج ٥ ذو القعدة سنة ١٣٩٢هـ/ديسمبر ١٩٧٢م ص ص ٣٩١ ـ ٣٩٤ .
(٤٦) مقتطفات من رحلة العياشي ماء الموائد ، ط الرفاعي ص ٣٧ .
(٤٧) المصدر نفسه ص ٩٩ .
(٤٨) الجاسر ، حمد ، في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج ، العرب مج ١٢ ج ٥ و٦ ذو القعدة وذو الحجة ١٣٩٧هـ/نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٧٧م ص ٤٢١ .
(٤٩) العرب مج ١٢ ، ج ٧ و٨ ، محرم وصفر سنة ١٣٩٨هـ/يناير ـ فبراير ١٩٧٨م ص ٥٢٨ .
(٥٠) المصدر نفسه ص ٥٢٧ .
(٥١) ورد في معرض كلام العياشي عنه قوله : « قد ظفرت بمصر برسالة الشيخ محمد البكري وأظنه شيخنا محمد بن الشيخ زين العابدين ... فأردت أن اقتطف منها ما يكون في أذن هذه الرحلة شنفاً » العرب مج ١٢ ، ج ١١ و١٢ جماديان ١٣٩٨هـ .
(٥٢) المصدر السابق ، الموضع السابق .
(٥٣) العرب ، مج ١٣ ج ١ و٢ رجب وشعبان ١٣٩٨هـ/يولية ـ أغسطس ١٩٧٨م ص ٤٨ .
(٥٤) العرب مج ١٣ ، ج ٣ و٤ رمضان وشوال سنة ١٣٩٨هـ/سبتمبر ـ أكتوبر ١٩٧٨م ص ٢٥٠ .
(٥٥) المصدر نفسه ص ٢٥٥ .
(٥٦) العرب مج ١٣ ، ج ٥ و٦ ذو القعدة وذو الحجة ١٣٩٨هـ/نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٧٨م ص ٣٥٢ .
(٥٧) العرب مج ١٣ ج ٧ و٨ محرم وصفر سنة ١٣٩٩هـ/يناير ـ فبراير ١٩٧٩م ص ٥٠٥ .
(٥٨) العرب ، مج ١٣ ، ج ٩ و١٠ ، الربيعان ١٣٩٩هـ/مارس ـ أبريل ١٩٧٩م ص ٦٦٦ .
(٥٩) العرب مج ١٤ ، ج ٧ و٨ ، محرم وصفر سنة ١٤٠٠هـ/ديسمبر ـ يناير ١٩٨٠م ص ٥٢٢ .
(٦٠) العرب مج ١٦ ، ج ٧ و٨ ، محرم وصفر ١٤٠٢هـ/نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨١م ص ٥٠٣ .
(٦١) العرب مج ٢ ، ج ٣ رمضان سنة ١٣٨٧هـ/كانون الأول ١٩٦٧م ص ص ٢١٩ ـ ٢٤٤ .
(٦٢) المصدر السابق .
(٦٣) المصدر السابق ص ٢٢٧ .
(٦٤) العرب ، مج ١٩ ، ج ١١ و١٢ جماديان ١٤٠٥هـ/فبراير ـ مارس ١٩٨٥م ص ٧٣٦ وقد نشرت الحلقة الثانية والأخيرة من ملخصات هذه الرحلة في العرب مج ٢٠ ، ج ١ و٢ ، رجب وشعبان ١٤٠٥هـ/أبريل مايو ١٩٨٥م ص ص ١٠٨ ـ ١١٩ .

التيار الإسلامي في نثر أمير الشعراء

د. إبراهيم حسين الفيومي

• مدخل •

شغل شعر أمير الشعراء أقلام الدارسين والنقاد فترة زمنية مذ لمع نجمه في سماء الأدب العربي ، حيث أضحى شاعر العزيز ، حتى وفاته عام ١٩٣٢ م والفترة التالية ؛ لما في شعره من قوة في البناء ، وروعة في الأداء ، وعذوبة في الموسيقى ، وتمكن من ناصية اللغة .

ولقد منحه الله سبحانه موهبة قول الشعر منذ نعومة أظفاره ؛ ويعود بنا شوقي إلى سني طفولته الأولى حيث كان طالباً بالمرحلة الابتدائية ، وقد شرح معلم الجغرافيا درساً عن قارة إفريقيا ، فصاغ ذلك شعراً نذكر منه :

إفريقيا قسم من الوجود ... وشكلها أشبه بالعنقود
وذلك العنقود في الماء انغمر ... ما أملح الماء وما أحلى الثمر !
مدت إليه يدها أوروبا ... من فوقه كمن يريد الحبَّا[1]

ومن يطالع شعر شوقي في مرحلة البدايات ، يلحظ أنه شعر تقليدي ، يتشبث بالزخارف اللفظية ، إلا أن أمير الشعراء استطاع أن يتجاوز هذه المرحلة التي اتسمت بالسطحية ، والاستغراق في الصنعة . فيحلق بأجنحة قوية ، ويوفر لشعره من المقومات الفنية التي دفعته إلى المقدمة بين شعراء عصره ، فكان له القدح المعلى والشهرة المدوية في أرجاء العالم العربي .

في هذه الفترة التي شهدت تألق شوقي ، نلحظ أنه اتجه إلى ميدان النثر الفني ، حيث طرق العديد من أبوابه .

واتجاه شوقي إلى ميدان النثر الفني ـ رغم تفوقه في الشعر ـ يدفع الدارس لتراثه إلى السؤال عن سر هذا التوزع بين الفنون ، إذ لم يكن بحاجة إلى المزيد من المجد ، كما إن الكسب الذي كان يمكن أن يحققه من جراء ذلك قضية ساقطة من حسابه ؛ لأن الذهب كان يسيل بين يديه .

وأغلب الظن أن أهم الدوافع التي حفزت شوقي إلى ذلك ترد إلى إعجابه ببعض مشاهير عصره ممن جمعوا بين الشعر والنثر(٢) ، كما إن البيئة وظروف العصر وانتماءه الثقافي بوصفه شاعراً من شعراء الإحياء والنهضة ، أسهمت في هذا التوجه ، إذ رأى من واجبه أن يقوم بدور في الإصلاح من خلال طرح قضايا العالمين العربي والإسلامي واقتراح الحلول لها .

يضاف إلى ما سبق أن طموحه لم يقف عند حد ؛ وإنما حاول طرق مختلف الفنون الأدبية التي آنس في نفسه القدرة على تناولها ، عسى أن يكون ناثراً مجيداً كما هو شاعر مفلق .

ويطمح هذا البحث إلى تتبع التيار الإسلامي في تراث شوقي النثري من خلال رصد مضامينه ، وحصر خصائص أسلوبه عبر فترة امتدت قرابة أربعة عقود من الزمان ، كما سنعرض في نهاية المطاف آراء النقاد في هذا التراث ، متوخين في ذلك كله النظرة الواعية التي تلتزم الموضوعية ، وتطرح التطرف وأهواء الذات ، والله ولي التوفيق .

● الإسـلام وثقافة شـوقي ●

أود أن أسجل ابتداء أن استعراض المخزون الثقافي لشوقي ليس من قبيل وضع العربة أمام الحصان ؛ ذلك أننا سنصدر أحكامنا على التيار الإسلامي في نثره من خلال النصوص ، دونما إغفال للصلة الحميمة بين النص ومبدعه .

وتشير بدايات شوقي إلى التصاق حميم بالتراث الإسلامي ؛ ففي حي الحنفي

بالقاهرة أرسل إلى كتاب الشيخ صالح وهو في الرابعة ، حيث تعلم العربية وقرأ بعض القرآن الكريم ، وتعلم الحساب ، ثم تحول إلى المدارس النظامية التي كان يلتحق بها أبناء الموسرين ، فأبدى تفوقاً ملحوظاً .

ويقر شوقي بالفضل لبعض الرجال من أساطين عصره ممن وجهوه نحو التراث العربي القديم ، حيث أخذ يمتح منه ، مما وفر له مخزوناً غزيراً .

ومن أساتذته الذين أشاد بفضلهم : حسين المرصفي وحفني ناصف والشيخ عبد الكريم سلمان الذي أهداه شوقي كتاب « شيطان بنتاءور » حيث يقول :

حتـــــى إذا أتممتها ... أهديتها (عبد الكريم)
وأنـــا المقـــرُّ بفضلـــه ... الذاكر الحق القديم[٣]

كانت ثقافة شوقي بمثابة قوس قزح ، أو نهر زاخر تمده روافد عدة ، أقواها رافد التراث العربي القديم ، يليه الرافد الفرنسي حيث أرسل مبعوثاً إلى جامعة « قونبلية » لدراسة القانون على نفقة الخديوي ، يليها الرافد التركي الذي كان أضعفها جميعاً .

ورغم التقاء شوقي بالحضارة الأوروبية في فرنسا أثناء البعثة ، وفي إسبانيا أثناء فترة النفي ، فقد ظل يغترف من معين التراث العربي القديم شكلاً ومضموناً .[٤]

وقد حدثني كاتبه ـ أحمد محفوظ ـ الذي لازمه طويلاً أن شوقي كان يحب المطالعة في كل اتجاه ، وهو لا يمل النظر في دواوين الشعراء الفحول ، وكتب التاريخ والفلسفة والتصوف ـ وعلى الأخص كتب أبي حامد الغزالي ـ ، كما كانت له هواية عجيبة تتمثل في مطالعة قواميس اللغة .

ويشهد لشوقي سكرتيره أحمد عبد الوهاب أبو العز بقوة الذاكرة ، والقدرة العجيبة على الاستيعاب حيث يقول : « ... كانت قوة ذاكرته عجيبة جداً في حفظ الألفاظ اللغوية ومصادرها ، فقد كان يحصل أن يأمرني بمراجعة كلمة ، فأتناول أول قاموس تقع عليه يدي ، ويصادف أني لا أجد هذه الكلمة فأراجعه في ذلك ، فيسألني : في أي قاموس بحثت ؟ فأقول : « المنجد » مثلاً ، فيقول : لا إنها غير موجودة فيه ، ولكنها موجودة في « أقرب الموارد » مثلاً ، وأنها تقع في مادة كذا ، ويطفق سارداً على سمعي كل ما قيل في هذه الكلمة : من أصلها واشتقاقها ، وكل ما يتعلق بها ؛ فأفتح « أقرب الموارد » ، فأجد كل ما سرده عليّ موجوداً بالنص . وكثيراً ما يتكرر

ذلك حتى حسبته يحفظ قواميس اللغة عن ظهر قلب »[٥] .

وفي الوقت الذي كان يعود فيه قطاع عريض من المبتعثين إلى أوروبا يبشرون بتعاليم الحضارة الغربية ، ويشنون حملة شعواء على التراث العربي القديم ، نلحظ أن شوقي ظل متشبثاً بهذا التراث دون أن يرفض معطيات الحضارة الغربية بصورة مطلقة . وهذا يشير إلى بعده عن التطرف ، واطراحه للتعسف : فلا هو من المؤيدين لإيصاد الأبواب في وجه هذه التيارات الوافدة ، ولا هو مع من ينادون بفتح تلك الأبواب على مصاريعها بحيث تصبح مصر قطعة من أوروبا .

عاد شوقي من فرنسا أواخر عام ١٨٩٣ م ، حيث أضحى من أقرب المقربين إلى الخديوي ، فطلب الجميع وده ، وتسابقت الصحف والمجلات إلى نشر نتاجه ، بيد أن الظاهرة اللافتة تكمن في ذلك التناقض الواضح بين مكانة شعر شوقي ونثره في الدراسات النقدية التي ركزت الضوء على الجانب الأول ، بينما بقي الجانب الثاني في الظل : ففي الوقت الذي استوعب شعره سلسلة من الدراسات الواسعة ، ودارت حوله خلافات واسعة مازالت آثارها باقية حتى يومنا هذا ، نلحظ أن نثره انطمس أو كاد ، وطوت بعضه يد النسيان أو الإهمال .

وإذا لم يستطع شوقي أن يحقق لنثره ما حققه لشعره من المقومات الفنية ، ـ وهذا افتراض جدلي ـ فإن ذلك لا يبرر إهماله على هذه الصورة ، ذلك أن كثيراً من الباحثين والنقاد لم يحاولوا حتى الالتفات إلى الفن الواحد من فنونه النثرية بصورة شمولية ، بل توزعت الدراسة التي اتسمت بالتعميم وسرعة التناول على السطح كله ، فبدت رؤيتهم ضبابية مشوشة .

ونحن لا نقول هذا جزافاً ، وحسبنا أن نورد بعض المواقف على سبيل التمثيل لا الحصر ، لإثبات صحة ما ذهبنا إليه .

لقد زعم الدكتور طه وادي أن رواية شوقي « دل وتيمان » لم تطبع[٦] ، علماً بأن الرواية طبعت بالقاهرة عام ١٨٩٩ م .

وذكر عبد الستار الحلوجي ضمن النشرة الببليوجرافية التي أعدها عن تراث أمير الشعراء أن رواية « عذراء الهند » لم تنشر ، والصحيح أنها نشرت بالاسكندرية عام ١٨٩٧ م ، كما لم يشر إلى السنة التي صدرت فيها رواية « لادياس » ، مع أن الرواية صدرت عن مكتبة الآداب والمؤيد بالقاهرة عام ١٨٩٨ م[٧] .

وإذا ما ألقينا نظرة على فهرس مجلة « الثقافة المصرية » التي صدرت خلال شهر أكتوبر عام ١٩٨٢ م ، فإننا نلحظ أن نثر شوقي لم يحظ إلا بمقال واحد تحت عنوان « أحمد شوقي الناثر » بقلم سعد عبد العزيز ، ومن العجيب أن يقصر الكاتب حديثه على كتاب « أسواق الذهب » ، وكأن شوقي لم يكتب نثراً إلا هذا الكتاب .

وفي الندوة التي دعت إليها كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ما بين ٩ ـ ١٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٨٢ م ، لم يكن هناك إلا بحث واحد تقدم به الأستاذ الدكتور حسين نصار تحت عنوان « الشعر المنثور عند أحمد شوقي » ، إضافة إلى بحث تقدمت به تحت عنوان « الأصول الأولى لمسرحية قمبيز » .

وفيما نرى أن هذا الغموض الذي يكتنف تراث شوقي النثري كان حافزاً دفعني إلى تناول هذا التراث بصورة شمولية ، بيد أن هذا البحث المتواضع يركز الضوء على التيار الإسلامي في نثر أمير الشعراء .. وهو موضوع اختمر في ذاكرتي بعد سنين من حصولي على درجة الماجستير .

(تراث شوقي النثري بين عهدين)

يستوعب نثر شوقي فترة زمنية تمتد خمسة وثلاثين عاماً ، ويتوزع على مرحلتين .
الأولى : فترة ما قبل النفي وتمتد من سنة ١٨٩٧ ـ سنة ١٩١٥ م.
والثانية : فترة ما بعد النفي وتمتد من سنة ١٩٢٠ ـ سنة ١٩٣٢ م .

وقد ارتاد شوقي ميدان النثر الفني في فترة مبكرة حيث قدم أولى محاولاته الروائية « عذراء الهند » سنة ١٨٩٧ م ، ثم توالت جهوده الروائية فقدم رواية « لادياس » سنة ١٨٩٨ م ، و « دل وتيمان » سنة ١٨٩٩ م ، وانقطع عن هذا الفن ، مدة خمسة أعوام قدم بعدها رواية « ورقة الآس » آخر محاولاته الروائية وأقلها تشويشاً ويلحظ أن شوقي استمد موضوعات محاولاته الروائية من التاريخ الفرعوني تارة . ومن تاريخ العرب قبل الإسلام تارة أخرى ، كما ارتكز في رواية « ورقة الآس » على البعد الأسطوري لما يوفر له من عناصر الصراع المادي والتشويق .

واختار شوقي فترات من التاريخ اتسمت بضعف السلطان ، والتكالب على كراسي الحكم ، مما هيأ الفرصة للغزاة ، إذ احتلوا البلاد وأذلوا الرقاب .

ونرجح أن يكون مرد ذلك إلى نوع من الإسقاط التاريخي ، حيث يعكس السياق الزمني لتلك المحاولات الروائية المبكرة جانباً من الواقع المصري إثر فشل الثورة العرابية وسيطرة اليأس والقنوط على النفوس ، وإقبال القراء من أنصاف المثقفين على الروايات التي كانت تنشر تباعاً في الصحف والمجلات ، وتؤدي غاية التسلية والترفيه من خلال الهروب من الواقع إلى عوالم خيالية تعج بالجن والسحرة والأحداث الخارقة[٨] .

وأقوى دليل على أن شوقي كان يعكس في محاولاته الروائية جانباً من ذلك الواقع المتردي ، قوله في ختام رواية « دل وتيمان أو آخر الفراعنة » (.... وكان بموت « بساماطيق » آخر الفراعنة موت مصر وزوال استقلالها الحقيقي إلى هذا اليوم)[٩] .

أدلى شوقي بدلوه ـ شأن أدباء عصره ، وبدأ ينشر رواياته مسلسلة في الصحف . وما إن صدرت رواية « عذراء الهند » ، حتى وجه لها محمد المويلحي في صحيفة « مصباح الشرق » ، نقداً عنيفاً ، وواصل حملته على أمير الشعراء إثر صدور الجزء الأول من الشوقيات ، فكتب مقالاً نقدياً سفه فيه تلك المقدمة النثرية التي كتبها شوقي لديوانه ، وكان عنوان مقال المويلحي (أمر مبكياتك لا مضحكاتك) حيث يقول : (... أما مقدمة الشوقيات من حيث صناعة الإنشاء ، ومن حيث اللغة ، فإنها تدل على أن شوقي شاعر لا ناثر)[١٠] .

ولم يكن محمد المويلحي الكاتب الفرد الذي تألب على أمير الشعراء ، بل ناصبه العداء فريق من النقاد بدوافع شتى ، ويبدو أن شوقي قبل التحدي ، فلم ينسحب من الميدان ، بل استمر صاعداً على طريق النثر الفني ؛ ليثبت لمن ناصبوه العداء أنه ناثر مبدع .

وإذا كان بعض النقاد قد ضربوا صفحاً عن هذه المحاولات الروائية ، وعدوها بواكير فجة تفتقر إلى النضج الفني ، فإننا نرى أن تلك المحاولات تستمد أهميتها من عنصرين :
الأول : الإسهام في استنبات فن الرواية الذي بدأ ينمو ويترعرع ، حتى احتل مكانة مرموقة بين الفنون الأدبية الأخرى في هذا القرن .
والثاني : تصوير بعض معالم التطور الفني واللغوي الذي لحق شوقي عبر فترة زمنية امتدت من عام ١٨٩٧ ـ ١٩٣٢ م[١١] .

ولم تكن هذه المحاولات الروائية نصيب شوقي من النثر الفني فحسب ، بل تحول إلى ميدان جديد حيث بدأ ينشر في صحيفة المؤيد سلسلة مقامات تحت عنوان « بضعة

أيام في عاصمة الإسلام » بتوقيع « سائح » طلباً للتقية أو خوفاً من سياط النقاد .

ومما يقطع أن « سائح » هو أحمد شوقي ، ورود بعض القصائد ضمن تلك المقامات ألحقت فيما بعد بالشوقيات ، كما أثبتها د. محمد صبري السربوني في الجزء الأول من الشوقيات المجهولة .[١٢]

وقد بلغ عدد تلك المقامات اثنتين وعشرين يتخللها قصائد ترد ضمن الموضوع تارة ، وتعرض مستقلة برأسها تارة أخرى .

أما أولاها فقد نشرت بتاريخ ٢٧ أغسطس سنة ١٨٩٩ ، وآخرها بتاريخ ٩ نوفمبر سنة ١٨٩٩ حيث انقطعت فجأة بعبارة : « سألت الدرويش .... »[١٣] .

ويبدو أن كثرة مشاغل شوقي حالت دون إتمام تلك المقامات ، بيد أنه عاد إلى طرح قضايا الأمة المصرية والإسلامية من خلال « شيطان بنتاءور » .

ومن خلال هذه المقامات ، يصف شوقي رحلة بحرية خيالية تبدأ من الاسكندرية وتنتهي بتركيا عبر البحر الأبيض المتوسط ومضيق البسفور .

ويصحب السائح « شوقي » في هذه الرحلة شخصيتان رمزيتان هما : الشيخ رمز البحر المتوسط ، والدرويش رمز مضيق البسفور .

ومن خلال الحوار بين الثلاثة يسترجع شوقي الماضي ، ويضعه في مواجهة الحاضر مستعرضاً العديد من مشكلات الأمة الإسلامية المعقدة ، متشرفاً آفاق المستقبل إذ يقترح الحلول لتلك المشكلات التي طرحها .

واستكمالاً لتلك السلسلة التي نشرها المؤيد بتوقيع « سائح » ، نشر شوقي « بالمجلة المصرية » سنة ١٩٠٠ م سلسلة أخرى تحت عنوان « شيطان بنتاءور أو لبن لقمان وهدهد سليمان » ، ثم جمعت في كتاب وصدرت سنة ١٩٠١ م .

وتستوعب المحادثات التي دارت بين النسر والهدهد حقبة متطاولة من الزمان تبدأ من عهد رمسيس الأكبر الذي كان له الفضل في طرد الهكسوس الغزاة ، وتنتهي بالاحتلال البريطاني لمصر .

ولم يكن هذا كل حظ شوقي من النثر الفني في المرحلة الأولى ، فقد كان يكتب تحت أسماء مستعارة أخرى مثل : « عربي بسفح التوباد » ، كما كتب العديد من المقالات

والخواطر التي ألحقت فيما بعد بكتاب « أسواق الذهب » .

أما المرحلة الثانية ، فقد بدأت بعد عودته من المنفى ، حيث ولج باب المسرح ، وعدت سلسلة مسرحياته فتحاً جديداً في تاريخ الأدب العربي ، وكانت « أميرة الأندلس » المسرحية النثرية اليتيمة التي تناولت حقبة مأسوية من تاريخ المسلمين في الأندلس .

ومن الأمور التي أثارت دهشة النقاد أن يختار شوقي النثر الفني لغة للمسرحية ، علماً بأن حوادثها تدور حول « المعتمد بن عباد آخر ملوك الطوائف في إشبيلية ، وقد انتهت حياته بأن سيق إلى سجن « اغمات » بالمغرب حيث قضى هناك . شاعر ملك هذا شأنه ، وتلك مأساته ، كان جديراً بأن تسجل حياته شعراً لا نثراً .(١٤)

ولم يقطع الدكتور محمد مندور برأي في الموضوع ، واكتفى بالقول : « .. إنه شيطان الشعراء ، الذي لا يخضع لمنطق ، ولا يتقيد بأوضاع »(١٥) .

أما الدكتور شوقي ضيف ، فقد رد تحول شوقي من الشعر إلى النثر إلى حملات بعض النقاد عليه ، ليثبت لهم إنهم على ضلال .(١٦)

ومن الملاحظ أن موضوع المسرحية يلتقي في صورته العامة مع محاولاته الروائية المبكرة : فكما وقعت مصر عبر تاريخها الطويل فريسة للاحتلال نتيجة ترف الحكام ، وإهمالهم شؤون الرعية ، وقعت الأندلس في أيدي الفرنجة إثر اشتغال ملوك الطوائف بالصراع على كراسي الحكم ، والانغماس في اللهو والمجون ، حيث ضيعوا كتاب الله وسنة رسوله ، فضاع ملك عريض ، وأفلت شمس الحضارة الإسلامية بعد أن سطعت قرابة سبعة قرون .

وإذا ما تحولنا إلى كتاب « أسواق الذهب » ، فإننا نلحظ أنه لم يقتصر على فن نثري واحد ، وإنما حوى بين دفتيه ألواناً شتى جمعت بين المقامة والمقالة والخاطرة والحكمة .

ورغم صدور الكتاب سنة ١٩٣٢ م ، إلا أن مناسبات بعض الموضوعات تشير إلى أنها كتبت قبل تاريخ النشر ، ثم جمعت في فترة لاحقة ، ودفعت إلى المطبعة بعد وفاته .

وهكذا تميزت هذه المرحلة بقلة الإنتاج إذا ما قيست بالمرحلة الأولى ، بيد أنها تمثل في الوقت ذاته فترة الإبداع ، إذ كان له السبق في طرق أبواب المسرح .

● التيـار الإسـلامي في نـثر شـوقي ●
منطلقـاتـه وأهـدافـه

كان العالم الإسلامي أواخر القرن التاسع عشر يعيش فترة من الصراع والتمزق، إثر الغزوات الاستعمارية التي تعد امتداداً للحروب الصليبية، وقد تهيأت الامبراطوريات الاستعمارية لاقتسام تركة تركيا التي سميت آنذاك بالرجل المريض المشرف على الموت.

ولم تكن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية أحسن حالاً من الأوضاع السياسية. فقد رفرفت راية الإقطاع على أرجاء البلدان الإسلامية، كما انتشر الفقر والجهل والمرض والتخلف الحضاري بأشكاله.

ونتيجة لهذه الأحوال المتردية، بدأت الدول الإسلامية تقع الواحدة تلو الأخرى تحت سيطرة الأجنبي الغاصب، فكانت مصر من نصيب بريطانيا إثر فشل الثورة العرابية التي قادها أحمد عرابي[١٧].

وفي هذه الأثناء ظهرت على الساحة دعوة جمال الدين الأفغاني إلى الجامعة الإسلامية بهدف تخليص أمم الشرق الإسلامي من قيود التسلط الغربي والأوروبي.

وما إن توالت هزائم تركيا، حتى أخذ الأمل يتضاءل في الجامعة الإسلامية حتى تلاشى، وبدأت تظهر الدعوة إلى القوميات، كما هو حال الثورة العربية الكبرى التي تزعمها الشريف حسين في مطلع هذا القرن. في تلك الفترة الحرجة التي كثر فيها الهرج، وتنوعت الاتجاهات، واشتدت المنازعات، قدم شوقي محاولاته الروائية وسلسلة مقاماته «بضعة أيام في عاصمة الإسلام» إضافة إلى «شيطان بنتاءور». كانت رياح التغيير تهب من كل مكان، والحيرة تسيطر على النفوس القلقة، والأصوات الداعية إلى اليقظة تتعالى هنا وهناك، وعليه فقد اتسمت كتابات شوقي بنبرة الوعظ والإرشاد، والدعوة إلى الإصلاح بمعناه الشامل.

والحق أن شوقي كان في كل ما كتب مسلماً تتسع نظرته حتى تشمل العالم الإسلامي كله، ومصر بلد من تلك البلاد الإسلامية لا فرق بينها وبين أية دولة إسلامية.[١٨]

ومن الأمور المهمة التي لابد من الإشارة إليها ، اختلاط عنصري الدين والوطن عند شوقي ؛ ومن هنا كان تمجيده لمنجزات الحضارة الفرعونية ، في الوقت الذي يتشبث فيه بالإسلام وقيمه العليا ، ويؤمن بأن مشكلات المسلمين لا يمكن أن تحل إلا بالعودة إلى الشريعة السمحة .

الدين والتاريخ والطبيعة ، ثلاثة محاور رئيسة دارت عليها مضامين شوقي في كل ما كتب : فمن التاريخ يأخذ العظة البالغة ، ويخرج بالنتيجة الحتمية التي تقرر أن البقاء لله وحده : ﴿ ... **سنة الله في خلقه ، يؤتي الملك من يشاء . وينزع الملك ممن يشاء** ﴾[19] والطبيعة ينظر إليها نظرة المتأمل المقر بقدرة الله وعظمته ، والدين هو المعين الذي يستمد منه المثل العليا ، ولا يملّ الدعوة الصادقة إلى التمسك بتلك العروة الوثقى التي لا تنفصم عراها « ... قم إلى السماء تقصَّ النظر ، وقصَّ الأثر ، واجمع الخُبْر والخَبَر ، كيف ترى ائتلاف الفلك ، واختلاف النور والحلك ، وهذا الهواء المشترك ، وكيف ترى الطير تحسبه ترك ، وهو في شرك ، استهدف فما نجا حتى هلك ، تعالى الله ! دل المُلك على المَلِك »[20] .

نظر شوقي إلى المصريين وغيرهم من الشعوب الإسلامية وقد شغلوا بسفاسف الأمور ، وركنوا إلى التواكل ؛ فنعى ذلك الترهل الفكري إذ يقول الشيخ للسائح : « ... سبحان ربي ! قتل اليأس الرجال حتى بيعوا بيع النعال ... يخلطون الجد بالمجون ، ويتخبطون في الظنون ، ناسين أنفساً قتلت ، وأموالاً بذلت ، وطمأنينة سلبت ، وخطوباً تألبت ، وحوادث شيبت »[21] .

وعندما يشيد السائح « شوقي » ، ببعض منجزات الحضارة الأوروبية المادية ، يتصدى له الشيخ قائلاً : (من أنت ؟ يامن فخاره بغير قومه ، واستشهاده بأمسه لا بيومه وليس هو في الهيئة إلا كالمحتفلين بموكب الرؤية يبرز للناس في ثياب لم يصنعها ، وعلى مطية لم يبتعها ، يركبها إلى أجل ، ويردها على عجل ، ثم يزعم أنه السيد الأجل ، وأنه يحس ضرب الأمثال ، ويزن مقادير الرجال »[22] .

ويمضي الشيخ في تأنيبه للسائح ، فيحذر من الركون إلى الغربيين ، لأن المتعلق بهم كالآمل بالسراب الخادع (... من استند إليهم فقد استنام إلى جدار مائل ، ومنُ اعتمد دون النفس عليهم فما أمن الحبائل ، ولا ركن الرجاء إلا إلى ظل زائل ، علقتهم بهم الآمال ، آمال المصاب بالسلال ، كلما أعضل الداء ، وعز الدواء ، جذبه الرجاء ،

وتمثل له الشفاء . أمراؤكم عليهم متهافتون ، وسراتكم إليهم ملتفتون ، وشبابكم بهم مفتونون ، يحرم غنيكم فقيركم ، ويعطيهم بكلتا يديه ، ويخذل كبيركم صغيركم ، ومواساتهم عليه دين ، من مشى منكم مع قبعة ، فكأن أبا بكر معه ، ومن تكلم لهم بلسان ، فكأنما جاء بقرآن ! »[٢٣] .

ويلتفت شوقي إلى المصريين فيفزعهم بشدة ، ويشجب تعلقهم بالماضي ، وإشادتهم بالسلف الصالح من المسلمين دون رصيد من عمل جاد : (... إذا جرت أحاديث العرب ، قلتم بيننا أقرب النسب ، ولنا ما تركوا من حسب ، وما هو إلا سبب قطعتموه ، ودين ضيعتموه ، ولسان عربي بالعجمة بعتموه ، وإذا سمي جد الأتقياء ، وواسطة عقد الأنبياء ، كنتم كلكم لآلي الشرف ، وما خرج قط خزف من ذلك الصدف »[٢٤] .

ويتصعد التأنيب ليصل حد التأليب على المستعمر الغاشم ومحاربة الظلم (... قاوموا الظلم ، ولا يغرنكم ما ترون من قوته وبأسه ، فمثله كالأسد : لايزال يفترس حتى تفترسه نهمته)[٢٥] .

لقد ادلهم الخطب ، وتجبر الطغاة ، وتفكك المسلمون ، ولا خلاص لهم إلا بالعودة إلى شريعة الله سبحانه (... أغير كتاب الله جامعة يابني ؟ أم دون السنة تبين للرشد من الغي . فإذا نشأ صغاركم في حفظهما ، وازدجر كباركم بقوارع وعظهما ، ونفضتم الأيدي من النفاق ، وتحليتم بمكارم الأخلاق ، كنتم أجمع لشمل الإسلام في هذا المقام منكم في تلك الدعاوى والأوهام . وإلا فمثلكم في حبكم المسلمين ، ورقتكم لإخوانكم في الدين :

كدجاجة حصنت لأخرى بيضها ... تحنو عليه وبيضها في النار
أو ذات عجل أرضعت تمثاله ... وصغيرها في قبضة الجزار[٢٦]

بهذه النظرة الثاقبة إلى الواقع المتردي للأمة الإسلامية ـ ومصر إحداها ـ كان شوقي يعيش الأمور ، ويرى أن التعلق بأذيال الغرب طلباً للاستقلال ضرب من الوهم .

وتدور عجلة الزمان ، وتقوم الحرب العالمية الأولى ، فتخلع السلطات البريطانية الخديوي عباس حلمي ، وينفي المقربين إليه ، ومنهم شوقي الذي يغادر أرض مصر إلى إسبانيا عبر قناة السويس ، فتهيج أشجانه ، وتتفجر ينابيع الحزن في أعماقه فيقول : (... إن للنفي لروعة ، وإن للنأي للوعة ، وقد جرت أحكام القضاء ، بأن نعبر هذا الماء ،

حين الشر مضطرم ، واليأس محتدم ، والعدو منتقم ، والخصم محتكم ، وحين الشامت جذلان يتسم ، يهزأ بالدمع وإن لم ينسجم .

لقانا حكام عجم ، أعوان العدوان والظلم ، حلفناهم يفرحون بذهب اللجم ، ويمرحون في إرسان يسمونها الحكم .

ضربونا بسيف لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه أو يضعوه ، سامحهم في حقوق الأفراد ، وسامحوه في حقوق البلاد ، وما ذنب السيف إذا لم يستحِ الجلاد ؟ »[٢٧] .

أين هؤلاء الحكام العملاء للسلطات البريطانية من عمرو بن العاص الذي مصر تحت راية الإسلام فكان (... تاجه العمامة ، ومطرفة القباء ، وصولجانه السيف ، وكرسيه التراب ، وحاشيته الأصحاب ، وقصره خيمة ممدودة الأطناب ، يحيط به العرب وكأنه أحدهم ، وهو زعيمهم في مصر وسيدهم)[٢٨] .

● أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في أسلوب شوقي ●

من يتتبع حرفية النثر عند شوقي ، تستوقفه ظواهر عدة أهمها ذلك الطابع الإسلامي الذي ترك بصماته على كل ما كتب .

لقد كان مخزون شوقي من التراث العربي القديم ثراً غزيراً ، كما أسلفنا ، وهو يلجأ إليه فيسعفه .

ورغم إقامة شوقي أربع سنوات في فرنسا ، قبلة أنظار الطلبة آنذاك ، فإن الثقافة الإسلامية ظلت هي الغلابة على مضمونه الثقافي ، وهذا دليل أصالة لا ضحالة[٢٩] .

ومن يستعرض أسلوب شوقي في تراثه النثري ، يلحظ أنه كان يستلهم القرآن الكريم والحديث الشريف في كل موضوع يطرقه تقريباً . ففي سلسلة « بضعة أيام في عاصمة الإسلام » نلحظ أن الشخصيات المحورية الثلاث هي : السائح والشيخ والدرويش ، ولها دلالاتها الرمزية التي ترتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً .

ونراه يستوحي العلاقة التي تربط بين السائح والشيخ من « سورة الكهف » ....

قال السائح للشيخ (... فلو استصحبتني معك ، أو أذنت لي أن أتبعك ، لعلي أرتفع بحنكتك ، وأنتفع بحكمتك ، فأقيم الدهر على شكران نعمتك ؟ قال الشيخ : على أن تلزم الصبر ، ولا تكون معي ما كان موسى مع الخضر)[٣٠] ، ونراه يستفتح السلسلة بقوله (... همت الفلك باسم الله ، وعلى يده وفي حماه . كأنها الصرح إذا ماد ، وكانت في مرساها كالصخر بالواد ...)[٣١] .

أبداً يستحضر شوقي عظمة الخالق ، ويقر بقدرته ونعمه ، كما يتمثل الأساليب القرآنية سواء كان الموضوع في السياسة أو الدين أو الاجتماع أو غير ذلك . وفي « شيطان بنتاءور أو لبد لقمان وهدهد سليمان » يقع على « لقمان » و « الهدهد » وهما شخصيتان رمزيتان توحيان بالحكمة ، وهذا واضح في كتاب الله عز وجل .

أما أميرة الأندلس فموضوعها يعكس ما لحق دول الإسلام من ذل بعد عز ، وتشتت بعد اجتماع ، وزوال بعد قوة وضعة ، والتاريخ الإسلامي هنا هو المعين الذي استقى منه شوقي موضوع المسرحية .

وإذا ما تحولنا إلى كتاب « أسواق الذهب » فإننا نلحظ أن الموضوعات الدينية هي الغلابة ، والتيار الإسلامي هو المسيطر .[٣٢]

ويشير شوقي في مقدمة الكتاب إلى أنه أنشأ فصوله على غرار « أطواق الذهب » للزمخشري ، و « أطباق الذهب » للأصفهاني .

أما « أطواق الذهب » فقد أودع فيه « جار الله الزمخشري » مائة مقالة بليغة ، أتبعها بمائة حكمة منسوبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٣٣] .

وذكر شرف الدين الأصفهاني في مقدمة كتابه أنه أنشأ كتابه مترسماً خطى جار الله الزمخشري حيث حوى « أطباق الذهب » مائة ومقالتين ، كان ينهي كل مقالة بآية من القرآن الكريم تتصل بالفكرة التي تدور حولها المقالة . وكان ـ رحمه الله ـ كلما انتهى من مقالة طاف حول الكعبة حتى انتهى من تأليفه .[٣٤]

وهكذا تتضح العلاقة الوثيقة بين الكتب الثلاثة : فالموضوعات الدينية لها نصيب الأسد ، كما إن العبارة مشحونة بالسجع وألوان الزينة . وكما ختم الزمخشري موضوعات كتابه بمائة كلمة بليغة ، ختم شوقي أسواقه بمجموعة من الحكم التي صاغها .[٣٥]

ولم يقف تأثر شوقي بالقرآن والحديث عند اختيار الموضوع ، والتقاط الشخصيات

الرامزة ، بل نراه يتابع أسلوب القرآن الكريم والحديث الشريف استشهاداً واقتباساً وتضميناً .

وفي الوقت الذي تخلى فيه قطاع عريض من كتاب عصره عن السجع ، ترى شوقي متشبثاً به ، متحمساً له ، مدافعاً عنه بحرارة إذ يقول : (السجع شعر العربية الثاني ، وقوافي مرنة ريِّضة خُصَّت بها الفصحى ، يستريح إليها الشاعر المطبوع ، ويرسل فيها الكاتب المتفنن خياله ، ويسلو بها أحياناً عما فاته من القدرة على صياغة الشعر ، وكل موضوع للشعر الرصين محل للسجع ، وكل قرار لموسيقاه قرار كذلك للسجع ، فإنما يوضع السجع النابغ فيما يصلح مواضع للشعر الرصين ، من حكمة تخترع ، أو مثل يضرب ؛ أو وصف يساق ، وربما وشِّيت به الطوال من رسائل الأدب الخالص ، ورصِّعت به القصار من فقر البيان المحض ؛ وقد ظلم العربية رجال قبحوا السجع وعدوه عيباً فيها ، وخلطوا الجميل المتفرد بالقبيح المرذول منه : يوضع عنواناً لكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشواً في رسائل السياسة ، أو ثرثرة في المقالات العلمية ؛ إن اللغة العربية لسربة مثرية ، ولن يضيرها عائب ينكر حلاوة الفواصل في الكتاب الكريم ، ولا سجع الحمام في الحديث الشريف ، ولا مأثور خالد من كلام السلف الصالح)[٣٦] .

وهكذا يعلن شوقي أنه اختار السجع لإعجابه بحلاوة الفواصل في القرآن الكريم والحديث الشريف . لا تقليداً لكتاب المقامات الذين ركزوا على الألفاظ دون المعاني وخاصة في المراحل الأخيرة من تاريخ المقامة .

يضاف إلى ما سبق أن السجع لاقى قبولاً من شوقي لأنه شاعر تميزه عذوبة الموسيقى ، ويروق لأذنيه حسن الإيقاع نحو قوله (... انظر إلى هذه الجبال كيف قطعت ، وإلى الأساس كيف وضعت ، وإلى العمد كيف رفعت ، وإلى الزخارف كيف جمعت ...)[٣٧] .

ألا يذكرنا بالأسلوب القرآني المعجز ، وحلاوة الفواصل فيه ؟ . كان القرآن الكريم هو النبع الصافي الثر الذي ينهل منه شوقي ، وهو يضع أسلوبه المعجز نصب عينيه على الدوام نحو (... ولحبل من مسد تضعه في جيدها ...) أو قوله (ولا يزر النسر وزر الهدهد) أو قوله (خرجت في الأصيل إلى الفسطاط ، في الحالة التي قضاها الشيخ لي واختارها ، وأنا لا أعرف العجوز ولا دارها ، ولا أدري كيف أملك مزارها ، أجد من يحدثني أخبارها ..)[٣٨] .

أما أثر الحديث النبوي الشريف فيبدو واضحاً في كل ما كتب ، بيد أن شوقي لا يورد الحديث بنصه . وإنما يذكره بمعناه نحو (... إنما النيات موازين الأعمال) ، أو (اطلبوا الدنيا تعملون لها كأنكم تعيشون أبداً ، أو الآخرة تعملون لها كأنكم تموتون غدا)[٣٩] .

وفي موضع آخر يقول (... إن مثل الإسلام فيما ينتابه من المصائب والآلام ، ويتوالى عليه من الخطوب الجسام ، كمثل الجسم في حالة المرض ينتفع الجزء المصاب بمقاومة سائر الأجزاء ويستمد العضو السقيم بما يكون من قوة في باقي الأعضاء)[٤١] .

ألا نشعر ونحن نقرأ ما كتب شوقي أنه كان يستحضر قول الرسول ﷺ (مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) ؟

وكما نشر شوقي الحكمة في شعره ، نراه ينثر حكمه في تراثه النثري ، وهي حكم يستقي معظمها من كتاب الله وسنة رسوله وأقوال السلف الصالح ، ولا أدل على إعجاب شوقي بها من أفراد عشرين صفحة كاملة من كتاب « أسواق الذهب » ملأها بالحكم والأقوال المأثورة .

ومن مميزات حرفية التعبير عند شوقي ظاهرة التراكمية في عرض بعض صوره ، ووسيلته المفضلة في هذا التشبيه البسيط نحو قوله يصف مشهد الغروب (... وحيل بين الشمس والنهار ، وحكم فيها الواحد القهار ، فشهدنا مصرعها وهي تحتضر ، حثيثة المنحدر ، كأنها قطعة من سقر ، مست النار فاستعر ، أو جرن على مزرعته ، تلتهمه النار مسرعة ، أو جناح ملك ، سقط من الفلك ، فاحتواه البحر كالشرك ، أو منطاد يحرق ، لا يمسكه إلا زورق ، الزورق في الماء مغرق ....)[٤١] .

ولشدة ولع شوقي بالموسيقى نراه يحور في بعض الألفاظ لتناسب الفواصل ، نحو قوله : (ذلك فضل السماء تؤتيه من تشاء)[٤٢] ، عوضاً عن أن يقول (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

وعبارة شوقي تميل إلى القصر في الغالب ، كما إنها بعيدة عن الاغراب والتوعر اللذين كان يعمد إليهما بعض معاصري شوقي أمثال الشيخ محمد توفيق البكري في كتابه « صهاريج اللؤلؤ »[٤٣] وتكاد الفواصل تذوب وتتلاشى في العديد من المواضع بين

الشعر والنثر ، إذ لا تحتاج العبارات النثرية إلا إلى إعادة ترتيب فوق السطور دون حذف أو إضافة ، ومن هذا القبيل قوله (... جاره تدفع جاره ، نحو زار أو زيارة ، بدع في مصر شتى ، ما خلت منهن حارة ، صدق القائل مصر ، للسخافات قرارة)[٤٤] .

والعبارات السابقة تستوي شعراً موزوناً مقفى على النحو التالي :

جـارة تدفـع جـاره   نحو زار أو زيـــاره
بـدع في مصر شتـــى   ما خلت منهن حـاره
صدق القائـل مصـــر   للسخافـــات قـــراره

وسواء جاءت أمثال تلك العبارات بوعي أو بصورة تلقائية ، فإن لها دلالاتها على تلك العلاقة الوطيدة بين شعره ونثره بشكل متداخل .

وإذا كان شوقي قد اختار السجع وسيلة مفضلة للتعبير عما تجيش به نفسه من أحاسيس ، وزعم أنه يجاري حلاوة الفواصل في القرآن الكريم والحديث الشريف ، فلابد أن نشير هنا إلى أن القرآن الكريم والحديث الشريف لم يرد منهما السجع بصورة متصلة .

وأغلب الظن أن شوقي لم يكن موفقاً في « تكثيف » السجع وألوان الزينة الأخرى ، ذلك أنهما كانا سلاحاً ذا حدين يدفعه تارة إلى الأمام فيبدع ، إذ يوفر للعبارة شحنة موسيقية عذبة ، كما يؤدي المعنى في وضوح وعمق ، وقد يقفان حائلاً دون استقصاء المعنى وبسطه ، لأن رنين الألفاظ يشغله عن استيفاء العناصر الأخرى .

وإذا كان هذا شأن شوقي في نظرته إلى الحياة السياسية ، فإن هذه الرؤية الثاقبة تكاد تنسحب على كل ميدان ، وهي رؤية تتجاوز السطح لتتغلغل إلى الأعماق : ليس الدين عنده مجرد شعائر تؤدي ، وإنما هو التزام قام بمبادئ الإسلام ، بحيث يتحقق الانسجام بين الأقوال والأفعال ، فالصلاة (... لو قصرت على وجوه تغسل ، وأرساغ تبلل ، وثياب تنظف وتجمل ، لكان الميت أطهر من الحي . فيا أصحاب الوضوء ، غسلتم الجوارح فهل غسلتم الجوانح ؟ ورحضتم الأطراف ، فهل رحضتم الأجواف ؟ طهرتم الراح من الأنجاس فهل طهرتموها من أشياء الناس ؟ ونظفتم من الطرق الأقدام ، فهل نظفتموها من سبل الحرام ؟ ومسالك الإجرام ؟ وتلك الوجوه الممسوحة بالماء هل ترقرق فيها الحياء ؟)[٤٥] .

وما ينطبق على الصلاة ، التي هي عماد الدين ، ينطبق على بقية أركان الإسلام ، فالصوم (حرمان مشروع ، وتأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع ، لكل فريضة حكمة ، وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنة الرحمة ، يستثير الشفقة ، ويحض على الصدقة ، يكسر الكبر ، ويعلم الصبر ، ويسن خلال البر ، حتى إذا جاع من أَلِفَ الشبع ، وحرم الترف أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، والجوع كيف آلمه إذا لذع) .[٤٦]

ويستمر شوقي في شرح فلسفة العبادات ، ويؤنب قطاعاً عريضاً من المسلمين الموسرين ممن عطلوا الزكاة (... أمر الله فصليتم ، ونهى المال فما زكيتم ، فرقتم بين الخمس ، وكلها حكم الواحد ، فلكل ألف مصل مُزكٍ واحد ، استسهلتم فأخذتم ، واستصعبتم فنبذتم ، فلو دخل المال في الصلاة ، لا قفرت منكم مساجد الله ! ولو عزم أحدكم على الشهادة ، لكان به عن نطقها زهادة ! أعلمتم أن الزكاة فروض ، وأنها وقاء الأعراض والعروض ، وأنها ليست بالعبث المفروض ؟ هي مال الفقير خلستموه ، ورزق المحروم حبستموه ، وحق العاجز في الحياة بخستموه ، وحكم الله الذي أغناكم قد دستموه ، تقرضون الولاة ، ولا تقرضون الله ، وتنفقون تملقاً لأهل الجاه ، ولا تنفقون تعلقاً بالنجاة)[٤٧] .

ومن نفس هذا الموقع الذي يتخذ من قيم الإسلام ميزاناً للسلوك ، يشن شوقي حملة شعواء على ما علق بمبادئ الشريعة السمحة من خرافات وأوهام دسها أعداء الدين ، وصدقها العامة ولم ينبذها الخاصة ومن هذا القبيل الإيمان بنفع الأولياء والمشعوذين ، والسعي إلى الأضرحة والتمسح بالجدران ولثم الأعتاب (... ترى الرجل يتمسح بالباب ، ويقبل الأعتاب ، ويستلم الشباك ، ويسكب دمع النساك ، ويخشع للولي لا لله العلي ، ويصلي لحاجة في النفس ، ويترك الصلوات الخمس ، ولو كانت العامة هي المخصوصة بهذا البلاء ، لخف محمل هذه الداهية الدهياء ، ولقلنا نحن والناس في هذا سواء ، لكنها أمور ، ينزل إليها من شاهقة القصور ، ويشتغل بها في رفيعات الدور ، وتقتل بسمها الفريق المتوسط من الجمهور . حتى لترى الرجل الذي يقرأ « المؤيد » و « المقطم » لا يستحي أن يبعث بطفله المعتل ، إلى أقذر محل ، ليقرأ الشيخ على رأسه ، فيطرد الشيطان بيأسه ، أو يلمس عموداً تتناوب عليه الشفاه ، وتزدحم عليه بلعابها الأفواه)[٤٨] .

لقد سيطرت هذه النزعة المثالية على نثر شوقي بأسره ، فوقف مدافعاً عن الفضيلة

داعياً إليها ، مهاجماً للرذيلة بلا هوادة ، فهو يدعو إلى التآخي والتراحم ، والصبر على المكاره ، وأداء الشعائر الإسلامية كما يجب أن تؤدي ، ويندد بالظلم وشاهد الزور والملاحدة والشيخ المنهدم المزواج وغيرها من الآفات ، وهي مبادئ تنضوي تحت لواء « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »(٤٩) .

كان الصراع مع أوروبا ـ أواخر القرن الماضي ـ صراعاً دموياً حضارياً ، وقد خلبت أضواء تلك الحضارة الوافدة عيون فريق من المثقفين ، فعشيت ، وافتقدت الرؤية ، وراح هؤلاء يبشرون بمبادئها ، ويهللون لقوانينها التي رفعت شعارات الحرية والإخاء والمساواة ، ونسي هؤلاء أو تناسوا أن الإسلام رفع هذه الشعارات وطبقها منذ قرون على أكمل وجه .

لم ينخدع شوقي بتلك الأضواء ، ولم يندفع اندفاع من ذكرناهم ، بل ظل ثابتاً على موقفه الذي تميز بالاعتدال والبعد عن التطرف .

كان « قاسم أمين » من هؤلاء المتحمسين للحضارة الأوروبية ، فنادى بتحرير المرأة ، ووجدت دعوته صدى واسعاً ، كما فجرت خلافات عميقة بين مختلف الاتجاهات ؛ وهنا تصدى شوقي لهذه الدعوة من منطلق إسلامي ، حيث حذر من مغبة الاندفاع وراء هذه الدعوة الجديدة (... فهب أن الحجاب قد ارتفع ، وأن الاختلاط قد وقع ، وأن ضعف الرجال منا أضاع النساء ، وصارت الغلبة في أمرها لمن هو الغالب في سائر الأشياء ، فأصبحنا هذا يبكي أخته ، وهذا يندب زوجته ، وهذا يسائل الناس هل رأوا ابنته ؟ ، وتوالت المصائب ، وانهالت النوائب ، وأصبح قليل ما يقع في أوروبا من الفساد بالعقل ، كثيراً في مصر بالغفلة والخور والجهل ، فأي باب يومئذ تطرق ، وبأي ذيل تتعلق ؟

فويـــل ثم ويـــل ثم ويـــل   لقاضي الأرض من قاضي السماء(٥٠)

وإذا طرح موضوع المرأة والحجاب ، فإن شوقي يرى في لباس المرأة التركية الزي الأمثل للمرأة المسلمة ، لا بدافع من التعصب للجنس ، وإنما لأنها تمثل المرأة المسلمة الملتزمة بتعاليم الشريعة الإسلامية ، وقد عرض لنا صورة لهذه المرأة إثر زيارة قام بها لأحد مساجد « الآستانة » إذ يقول : (... ثم كان مني التفات إلى النسوة المصليات ، والأخريات التاليات ، فرأيت لهن في الأسفار جمال الأقمار ، في جلال الأبرار ، أو هن الحور العين في هذه الدار ، قد أخذن بما أمرت به الشريعة الطاهرة ، فلم تبد منهن

إلا وجوه ناضرة إلى ربها ناظرة ، ليس بحسنها تطرية ، ولا بلونها تطلية ، فلما فرغن من صلاتهن ، وانتهين من تلاوتهن ، خففن للذهاب ، وابتدرن الأبواب ، فرأيت الرجال يتنحون حتى تعبر النساء . وقد ملئوا وقاراً)[٥١] .

ولا تكتمل الصورة المشرقة التي ينشدها شوقي للمرأة المسلمة إلا بالصقل والتهذيب عن طريق التعليم (... ابدءوا بالنساء فعلموهن في الصغر ، يعلمنكم في الكبر ، وربوهنّ في الطفولة ، يربينكم في الكهولة ، ولا تنشئوا مدرسة واحدة للرجال ، إلا وقد أنشأتم مدرستين للنساء)[٥٢] .

وكما دعا شوقي إلى تحرير البلاد الإسلامية من المحتلين ، وتخليص الدين من الخرافات والأوهام ، وتعليم المرأة المسلمة ، نراه يرفع الصوت عالياً لتحرير الاقتصاد من الاستيراد ، والاعتماد على النفس في الصناعة (... إنكم لا تزالون عراة حتى تلبسوا ما حكتم وخطتم ، ولا تزالون حفاة حتى تنعل أيديكم أرجلكم ، ولا تزالون مشاة حتى تركبوا مما صنعتم ، ولا تزالون تتوسدون الثرى حتى تسكنوا ما بنيتم) .[٥٣]

ولم يغفل شوقي الجانب الثقافي ، فدعا إلى تحرير العربية من العجمة ، وأهاب بالأزهر الشريف أن يقوم بدوره في النهوض بلغة القرآن الكريم ونشر لوائه في أصقاع الأرض ، كما نعى على الصحافة اشتغالها بسفاسف الأمور وإغفالها للدور الطليعي الذي يجب أن تقوم به[٥٤] .

لن يعود للأمة الإسلامية مجدها الزاهر ، وماضيها الحافل بالسؤدد إلا ببعث حضارة جديدة تتخذ من العلم جسماً ومن الإسلام روحاً (... عليكم بالعلم ، خذوه نافعاً دافعاً ، واهجروا منه ما يميت إلى ما يحيي ، واطلبوا الدنيا تعملون لها كأنكم تعيشون أبداً ، أو الآخرة تعملون لها كأنكم تموتون غداً)[٥٥] .

أليس هذا توجيه الرسول الأعظم صلوات الله عليه حيث يقول : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ؟ .

إنه لا يخفى على كل ذي بصيرة ما تحمله هذه المضامين المكثفة التي سقنا بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر ، من دلالات عميقة على ملامح التيار الإسلامي الذي يجري متدفقاً قوياً ، يستمد أصوله من كتاب الله وسنة رسوله ، ويرى القدوة في شخص الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين والسلف الصالح رضوان الله عليهم .

● نثر شوقي والنقاد ●

انقسم الدارسون والنقاد الذين تناولوا تراث شوقي النثري بين متعصب له أو متعصب عليه ، واتخذ فريق ثالث موقفاً معتدلاً من خلال حصر إيجابياته وسلبياته .

وقد تعرض شوقي في شعره ونثره لحملات عدة ، كان أعنفها تلك الحملة التي قادها عباس العقاد في كتاب « الديوان » عام ١٩٢١ ، وكنا أشرنا إلى الهجمة التي شنها قبل العقاد بسنوات صاحب « مصباح الشرق » أواخر القرن الماضي .

وشارك في تلك الحملة بعض المرتزقة من الصحفيين عندما أدركوا نقطة الضعف لدى شوقي ، حيث كان يجزع أشد الجزع كلما قرأ مقالاً يتناول أحد أعماله الأدبية بالتسفيه والقدح .

ويذكر سكرتيره أحمد عبد الوهاب أبو العز أنه كان يلجأ أحيانا إلى استرضاء بعض هؤلاء المرتزقة ببعض المال ، أو بدعوة إلى وليمة يقيمها أمير الشعراء في منزله[٥٦] .

ومن الملاحظ أن نقد العقاد لشوقي اتسم بالتطرف والقسوة والتعسف في إصدار الأحكام ، حيث جرد شوقي من كل حس فني ، وحرمه من ميزة الإبداع إذ يقول (... إن الروايات التي نظمها شوقي قد خلت من الشخصيات والتبست فيها ملامح الأبطال إيما التباس .. وما كان لخفاء الشخصيات في رواياته ومدائحه ومراثيه من علة غير خفاء الشخصية في نفسه ، فهو لا يمتاز بحس حتى يدرك مزايا الحس وفوارقه في غيره !)[٥٧] .

وربما كان خير دليل على تحامل العقاد وتطرفه ، ذلك الكتيب الذي صدر تحت عنوان « قمبيز في الميزان » وقد قصد العقاد إلى هدم شوقي حيث ساق في نهاية الكتيب أبياتاً من الشعر يعارض فيها شعر المسرحية وصلت حد التهكم والشتم مما ينأى بالعقاد عن الموضوعية وينسبه إلى التعسف .

أما شكيب أرسلان فكان له رأي مناقض لرأي العقاد ، إذ أكد أن شوقي (... لم يكن شاعراً فذاً فحسب ، بل كان ناثراً بليغاً مترسلاً ضليعاً ، متين العبارة سلسها ، يقل في الكتاب والمترسلين من يصوغ صياغته ، إلا أن شعره قتل نثره : فبينما هو في الشعر الفذ الذي يجري ولا يجرى معه ، إذ هو في النثر يجري معه الناس مثنى وثلاث ورباع . ولا شك أن كفة نظمه رجحت بكفة نثره رجحاناً بيناً حمل الناس على الظن

بضعف منته في صنعة الكتابة ، وليس الأمر كذلك ، بل كان له نثر رائق ، وترسل مونق ، وفصول شائقة كانت تخلد لو لم تفتك بها قصائده)[٥٨] .

واكتفى الدكتور شوقي ضيف بإشارة سريعة موجزة إلى نثر شوقي حيث قال : (لقد أدى شوقي بشعره ما لم يؤده بنثره ، وكان له فيه القدح المعلى بين أبناء عصره)[٥٩] .

وإذا كنا نحمل آراء العقاد على التطرف ، وآراء شكيب أرسلان على المجاملة لأنه صديق شوقي الحميم ، فإننا نرى أن الدكتور شوقي ضيف قد غمط شوقي الناثر حقه ، إذ خص كل تراثه النثري بصفحتين تضمنت إحداهما « ص ٢٨٤ » قطعة مختارة من كتاب « أسواق الذهب » ؛ كما يلاحظ أن ما كتبه د . شوقي ضيف عن نثر شوقي جاء بعد الخاتمة ، وكأنه تذكر ذلك النثر فأشار إليه من بعيد .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى الإهمال الذي لحق بهذا التراث .

ومهما يكن من أمر الخلافات التي دارت حول شعر شوقي ونثره ، فقد كان أمير الشعراء في تراثه النثري مسلماً حقاً ، يحتضن قضايا المسلمين ، ويدفع عن الإسلام ما يمس تعاليمه من شبه واتهامات ، ويؤيد الإصلاح على أساس ديني ، ويطرب إذا نال المسلمون الخير ، ويحزن إذا أصابهم الشر ، ويحثهم على النهوض ، ويذكرهم بماضيهم المجيد ، ويريد لهم الحياة الحرة الكريمة ، والوحدة في ظل الإسلام .[٦٠]

ولسوف يظل شوقي علامة بارزة على الطريق ، ونجماً متألقاً على مدار الزمن في سماء الأدب العربي ، وعلماً أعطى الكثير من أجل العرب والمسلمين .

● ● ●

● الهــوامــش ●

(١) د . شوقي ضيف ـ شوقي ومكانته في الشعر العربي الحديث ـ مجلة المجلة ـ القاهرة ـ ديسمبر سنة ١٩٦٨م ـ ص ٢٢ .

(٢) انظر ، أحمد شوقي ـ مقدمة الشوقيات ـ ط دار الكتب المصرية ـ سنة ١٩٠٠م .

(٣) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ط المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة سنة ١٩٥٣م ـ ص ١٤ .

(٤) انظر ـ د . طه وادي ـ أحمد شوقي والأدب العربي الحديث ـ ط روزاليوسف ـ القاهرة سنة ١٩٧٣م ـ ص ١٨١ .

(٥) أحمد عبد الوهاب أبو العز ـ اثنى عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء ـ ط مكتبة مصر ـ القاهرة سنة ١٩٣٢م ـ ص ٨٩ .

(٦) د. طه وادي ـ أحمد شوقي والأدب العربي الحديث . ص ١١٥ .

(٧) عبد الستار الحلوجي ـ أحمد شوقي ـ نشرة ببلوغرافية ـ مجلة المجلة ـ القاهرة ـ ديسمبر سنة ١٩٦٨م ـ ص ١١٠ .
(٨) انظر ـ د. عبد المحسن بدر ـ تطور الرواية العربية الحديثة في مصر . دار المعارف ـ القاهرة ـ سنة ١٩٦٣م ص ١١٦ .
وانظر : محمد رشدي حسن : أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤م ـ ص ١٤١ .
(٩) أحمد شوقي ـ ول وتيمان ـ مطبعة الآداب والمؤيد ـ القاهرة ـ ط ١٨٩٩ ـ ص ١٥٨ .
(١٠) محمد المويلحي ـ صحيفة مصباح الشرق ـ القاهرة ـ عدد ٢٠ أبريل سنة ١٩٠٠م .
(١١) لمزيد من التفصيل انظر : د. محمد مندور ـ مسرحيات شوقي ـ دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٥٤م .
(١٢) انظر د. محمد صبري ـ الشوقيات المجهولة ـ ط ٢ ـ طار المسيرة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ص ١٥٤ .
(١٣) « سائح » : صحيفة المؤيد ـ القاهرة ـ ٩ نوفمبر سنة ١٨٩٩م .
(١٤) علي أدهم ـ المعتمد بن عباد ـ مكتبة مصر ـ القاهرة ـ ط ١٩٦٢م ـ ص ٢٩٢ .
(١٥) د. محمد مندور ـ مسرحيات شوقي ـ ط ٣ ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة سنة ١٩٦٥م .
(١٦) د. شوقي ضيف ـ شوقي شاعر العصر الحديث ص ٢٥٤ .
(١٧) لمزيد من التفصيل انظر : عبد الرحمن الرافعي ـ الزعيم أحمد عرابي ـ دار الهلال ـ ك. هـ . سنة ١٩٥٣م ـ ص ١٩٢ .
(١٨) انظر : د. ماهر حسن فهمي ـ شوقي ـ شعره الإسلامي ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ سنة ١٩٥٩م ـ ص ٥٧ .
(١٩) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ص ١٧٣ .
(٢٠) أحمد شوقي ـ أسواق الذهب ـ المطبعة التجارية ـ القاهرة سنة ١٩٣٢ ـ ص ٦ .
(٢١) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ـ المؤيد ـ ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٩م .
(٢٢) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ـ المؤيد ١٠ سبتمبر سنة ١٨٩٩م .
(٢٣) المصدر السابق ـ المؤيد ٦ سبتمبر سنة ١٨٩٩م .
(٢٤) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ص ٢٨، ٢٩ .
(٢٥) المصدر السابق ـ ص ١٦٨ .
(٢٦) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ـ المؤيد ١٠ سبتمبر سنة ١٨٩٩م .
(٢٧) أحمد شوقي ـ أسواق الذهب ص ٢٩ ـ ٣٠ .
(٢٨) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ص ١٩٢ .
(٢٩) انظر ـ د. سهير القلماوي ـ متى ندرس فن شوقي؟ ـ مجلة المجلة ـ القاهرة ـ ديسمبر سنة ١٩٦٨م ـ ص ٣ .
(٣٠) انظر ، د. شوقي ضيف ـ شوقي شاعر العصر الحديث . ص ٩٣ .
(٣١) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام . المؤيد ١٨٩٩/٨/٣١م .
(٣٢) سائح ـ المصدر السابق . المؤيد ١٨٩٩/٨/٢٧م .
(٣٣) محمود بن عمر الزمخشري ـ أطواق الذهب في المواعظ والخطب . ط مطبعة السعادة / القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .
(٣٤) شرف الدين الأصفهاني ـ أطباق الذهب ـ ط المطبعة الإنسية ـ بيروت سنة ١٣٠٢ هـ .

(٣٥) انظر أسواق الذهب ، ص ١١٩ وما بعدها .
(٣٦) أحمد شوقي ـ أسواق الذهب ، ص ١١٥ .
(٣٧) د. محمد صبري السربوني ـ الشوقيات المجهولة ـ جـ ١ ـ ص ٣١٩ .
(٣٨) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ، ص ٢٠٧ وانظر الصفحات : ٢٣ ـ ٢٧ ـ ٣٥ ـ ٧١ ـ ١٧٣ .
(٣٩) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ص ٧١ ، ص ٢٠١ .
(٤٠) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ـ المؤيد ـ ١٠ سبتمبر سنة ١٨٩٩م .
(٤١) سائح ـ المصدر السابق ، المؤيد ٢٧ أغسطس سنة ١٨٩٩م .
وانظر تراكم التشبيهات في شيطان بنتاءور ـ الصفحات : ٧٥ ـ ١٥٤ ـ ١٥٥ ـ ٢٠٨ ـ ٢٢٠ .
وانظر د. سهير القلماوي ـ متى ندرس فن شوقي ـ مجلة المجلة ـ ص ٥ .
(٤٢) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ، ص ٢٧٥ .
(٤٣) انظر ـ محمد توفيق البكري ـ صهاريج اللؤلؤ ـ ط ـ محمود حجاج المكتبي ـ القاهرة سنة ١٩١٢م ـ ص ٥٤ .
(٤٤) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ـ المؤيد ١٨٩٩/١٠/٢٢م .
(٤٥) أحمد شوقي ـ أسواق الذهب ، ص ٨٦ .
(٤٦) أحمد شوقي ـ أسواق الذهب ، ص ٨٩ .
(٤٧) أحمد شوقي ـ المصدر السابق ، ص ٩٠ .
(٤٨) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ـ المؤيد ١٨٩٩/١٠/٢٢م .
(٤٩) انظر : أحمد شوقي ـ أسواق الذهب ـ الصفحات ـ ٥٧ ـ ٦١ ـ ٧١ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٣ .
(٥٠) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ، المؤيد ـ ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٩٩م .
(٥١) سائح ـ المصدر السابق ـ المؤيد ـ ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٩٩م .
(٥٢) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ص ٢٠٣ .
(٥٣) أحمد شوقي ـ المصدر السابق ـ ص ٢٥٦ .
(٥٤) أحمد شوقي ـ المصدر السابق نفسه ـ ص ٢٣٣ .
(٥٥) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ص ٢٠١ .
(٥٦) انظر : أحمد عبد الوهاب أبو العز ـ اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء ـ ص ٨٦ .
وانظر : إبراهيم عبد القادر المازني ـ بعض الذكريات عن شوقي ـ مجلة الهلال ـ أكتوبر سنة ١٩٤٧م ـ ص ١١ .
وانظر : عبد الرحمن صدقي ـ من أين تبدأ الثورة على أمير الشعراء ـ مجلة الهلال نوفمبر سنة ١٩٦٨م ص ٢٣ .
(٥٧) عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ـ كتاب الهلال ـ القاهرة سنة ١٩٧٣م ـ ص ١٢٨ .
وانظر : عباس العقاد وإبراهيم المازني ـ الديوان ـ ط ٣ ـ دار الشعب ـ القاهرة ـ (د ـ ت) ص ٥ وما بعدها .
(٥٨) شكيب أرسلان ـ شوقي أو صداقة أربعين عاماً ـ ط مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة سنة ١٩٣٦م .
(٥٩) د. شوقي ضيف ـ شوقي شاعر العصر الحديث ـ ص ١٨٥ .
(٦٠) انظر : د. ماهر حسن فهمي ـ شوقي ـ شعره الإسلامي ـ ص ٢٠٩ .

الإذاعة

في عهد
الملك عبد العزيز آل سعود

د. محمد معوض إبراهيم

تمهيـــد :

يشير أساتذة الاتصال إلى أنه عندما يشرع مجتمع في سلوك سبيل العصرية ، فإن أولى علامات التنمية فيه ، هي امتداد قنوات الاتصال بشقيها الشفهية والحديثة ، لتجمع بين خصائص المجتمع التقليدي القائم على الاتصال الشفهي أو المواجهي Face to Face communication وخصائص المجتمع الحديث القائم على وسائل الإعلام الجماهيرية Mass Media كما تشير البحوث والدراسات الإعلامية إلى أن أي تغير في السلوك الاتصالي يسير موازيا للتغيرات الأخرى في النظام ، بمعنى أن الخصائص الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية ترتبط بكل من نظم الاتصال(1) ، وفي الوقت الذي استقرت فيه كافة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية تماما بتوحيد أجزاء شبه الجزيرة ، حيث نجح جلالة الملك المغفور له عبد العزيز آل سعود بكياسته وشجاعته ومرونته ، وبعد كفاح استمر خمسين عاما ، تحلى خلالها بالصبر والحزم ، حتى تم جمع شمل القبائل والإمارات ، بعد أن كان يسودها التمزق والتفرقة ، تحت شعار الرغبة لا الرهبة ، لينقل هذا المجتمع من حياته التقليدية Traditional

حياة البداوة في الصحراء ـ إلى الحضارة والمدنية ، في نظام استمد أسسه ومفاهيمه من مبادئ وقيم شريعة الإسلام السمحة ، وهي المنطلق الإيجابي الشامل لتحقيق الرؤية الشاملة لبناء مستقبل أفضل ، والواجب الأول والأكبر في أداء هذه المهمة الخطيرة لدور الإعلام ، الذي لا يعدو أن يكون فرعا تابعا لظاهرة أكبر وأشمل هي الاتصال Communication والذي يعتبر أهم مظاهر الحياة(٢) ، وهو ضرورة لا غنى عنها لأية جماعة إنسانية ، خاصة وأنه أساس كل تكيف وتفاعل ، ويعتبر قوة مؤثرة في مختلف مجالات النشاط البشري ، لتشمل كل مجالات الحياة ، وكلمة اتصال Communication مشتقة من كلمة Communis اللاتينية ، وتعني المشاركة ، ونحن حينما نتصل فإنما نحاول أن نقيم نوعا من المشاركة مع شخص آخر ، بمعنى أننا نحاول أن نشاركه فكرته ومعلوماته واتجاهاته(٣) ، فالاتصال عملية اجتماعية أساسية ، وكل ظاهرة اجتماعية عبارة عن نتاج تفاعل الأفراد والجماعات ، بمعنى أنه عندما يكون المجتمع في شكل جماعة من الناس تكون في تفاعل مستمر كل مع الآخر ، ويتضح أن التفاعل من المفاهيم الأساسية المهمة في المجتمع(٤) ، والاتصال من العمليات الاجتماعية المستمرة ، ذلك لأن الإنسان يعيش طوال حياته في اتصالات لا تنتهي من أجل إشباع حاجاته المتعددة ، وهو (أي الاتصال) المجال الأوسع لتبادل الرأي والمشورة والمعرفة والخبرة ، ويعتقد لوشيان باي "L. Pye" أن الاتصال هو المجتمع الإنساني ، وأن بناء اتصال ما بقنواته المحددة ، هو هيكل التكوين الاجتماعي الذي يغلفه ، وأن مضمون الاتصال هو بالطبع خلاصة العلاقة الإنسانية ، ويذهب إلى أن تيار وسائل الاتصال يحدد سرعة وديناميكية التنمية ، ويمكن القول إن الاتصال هو علم المشاركة بين الأفراد ، الذي يأتي بنتائج سلوكية(٥) ويعرف ولبرشرام (W. Schramm) عالم الاتصال الأمريكي الاتصال بأنه الأداة التي تجعل المجتمعات ممكنة ، ويميز المجتمع الإنساني عن غيره من المجتمعات ، فالمجتمعات الإنسانية تنشأ بالاتصال ، ويستمر وجودها به(٦) ، ويشير مفهوم الاتصال إلى المجرى الذي تنتقل به المعلومات والأخبار خلال الجماعة أو المجتمع ، ويأخذ هذا المجرى أشكالا وأنماطا وقنوات ، منها ما هو طبيعي مباشر ، ويتم بين الجماعات الصغيرة ، حيث يعرف الناس بعضهم بعضا ، فيتناقشون ويتبادلون الرأي والمشورة ، ويدركون انطباعات أحاديثهم على بعضهم البعض ، وينتشر في المجتمعات التقليدية بصورة واضحة(٧) وتشير الدراسات إلى أن الإنسان يقضي حوالي ٧٠٪ من ساعات نشاطه اليومية في عملية

الاتصال سواء كان متحدثاً أم مستمعاً أم قارئاً .. الخ ، ويقضي الفرد يوميا ما بين عشر وإحدى عشرة ساعة يمارس فيها الاتصال الشفهي[٨] ★ .

سنتناول في هذه الدراسة تأسيس أول نظام إذاعي في عهد المغفور له جلالة الملك عبد العزيز والتي تعتبر الإذاعة أحدث وسائل الاتصال قاطبة في عهده .

نشأة الإذاعة السعودية :

يرجع **الفضل في تأسيس أول نظام إذاعي في المملكة العربية السعودية إلى عهد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود** ، حيث تم في مبنى السفارة السعودية في القاهرة **توقيع أول عقد بين الحكومة السعودية وبين مؤسسة International Standard Electronic Corporation** التابعة **للشركة العربية العالمية للتليفزيون والتلغراف** ، ويقضي الاتفاق الذي تم في الثالث والعشرين من رجب عام ١٣٦٨ هـ ، الموافق الحادي عشر من شهر مايو سنة ١٩٤٩ م ، بتركيب **وصيانة إذاعة لاسلكية في المملكة** ، هدفها **بث البرامج الدينية والثقافية باللغة العربية للدول المجاورة الناطقة باللغة العربية** ، وقبل التوقيع على العقد **كانت الأجهزة الإذاعية قد شحنت** ، وبدأ **العمل في مشروع الإذاعة السعودية في جدة** ، لأهمية موقعها ، وذلك بعد أسبوع من توقيع العقد ، على أن يتم الانتهاء منه في التاسع عشر من رمضان المبارك ١٣٦٨ هـ ، وفقا لشروط العقد ، **وفي الموعد المحدد أذيع أول برنامج تجريبي من استديو جدة** ، بينما **تأخر إنجاز استديو مكة لأسباب فنية .**

وفي الثالث والعشرين من شهر رمضان المبارك من نفس العام ، الموافق الثامن عشر من **يوليو تموز عام ١٩٤٩ م** ، أصدر جلالة الملك عبد العزيز أول مرسوم ملكي رقم ٣٩٩٦/١٦/٣/٧ يختص **بتأسيس أول نظام إذاعي في المملكة العربية السعودية ويحدد فيه طريقة اختيار مديرها المسؤول عن تنفيذ سياستها أمام الدولة ومكانها** ، وما يذاع فيها ، **وعن أعمالها الإدارية وبرنامجها .. الخ**[٩] .

لماذا الإذاعة :

تُعَدُّ الإذاعة أحدث وسيلة اتصال في المملكة في عهد الملك عبد العزيز ، بالرغم من الصعوبات الكبيرة التي واجهت الملك عبد العزيز في شتى الميادين ، إلا أنه استطاع أن يوحد الجزيرة على أساس العقيدة والشريعة بعد كفاح دام خمسين عاما ، **وأقام الأمن**

والنظام في بقاع كانت تسودها الفوضى والفرقة ، ويهددها الخوف في كافة أرجائها ، فجاءت نشأة الإذاعة لتكمل الأمن والنظام بالمعرفة ، فالمعرفة قوة والمعرفة حاجة أصيلة مستمدة من صميم الوجود الإنساني ، فالإنسان يريد أن يعرف لأن المعرفة أمن وطمأنينة لحياته ، سواء في حاضره أم مستقبله ، لأنها تمكنه من فهم الظاهرات المختلفة حوله فهما يمكنه من السيطرة عليها وتطويعها ، وتطويرها لخدمته ، ولتحقق وجوده وإمكاناته ، بينما الجهل خوف وقلق وتوتر[10] ، وتعد الإذاعة الصوتية من أهم عوامل نشر المعرفة والفكر ، وتوعية الأمة[11] ، لما لها من قدرة فذة على التبليغ والإعلام ، متخطية كل الحواجز والحدود ، واعتمادها على الكلمة المنطوقة ، لتخاطب الأمي والمتعلم على السواء ، الفقير والغني دون استثناء ، خدماتها متجددة ، تصاحب الفرد وتلاحقه طوال ساعات فراغه ، في أي مكان على ظهر البسيطة بقوة الموجة التي تحكمها ، لتخاطب مستمعيها فتنشأ بينهم روابط المودة والألفة ، على نحو ما يرتبط به الفرد مع من يعرفهم من أفراد آخرين ، وتمتد بينهم الصلات يوما بعد يوم ، وخدماتها يسيرة على النفس ، فالكلمة المنطوقة أيسر كثيرا من الكلمة المكتوبة للفهم والاستيعاب[12] ، كما تتميز بسرعة نشر المعلومات والمعارف والأفكار ، تخاطب مستمعيها ببرامج متنوعة ومتباينة ، أساسها البساطة والإيجاز والتشويق ، ترتبط فيها الكلمة المذاعة بالمؤثرات الصوتية والموسيقية بطريقة تجذب المستمع ، حتى لا يمل من سماعها ، وهي أسهل وسائل الإعلام استخداما ، وأقلها تكلفة ، وأكثرها إذكاء للخيال ، الذي يعتبر أهم العناصر الجوهرية والضرورية لعملية التعلم ، كما تعطي مستمعيها شعورا بالمشاركة وتجعله يكيف مضمونها بطريقة تتفق مع توقعاته ، ولقد أثبتت الدراسات أن المواد البسيطة والسهلة ، والتي تقدم عن طريق الإذاعة أكثر تأثيرا ، ويسهل تذكرها بشكل أفضل مما لو قدمت مطبوعة[13] ، ولو أن بعض الباحثين أمثال ستاوفر Stouffer يرى أن المستمعين للإذاعة أقل حظا من التعلم والثقافة من قراء الصحف ، وبالتالي فهم أكثر قابلية للاستهواء ، وأقل مقدرة على النقد[14] ، ومن جهة أخرى تشير التجارب التي أجريت في كثير من الدول العربية إلى أن ٦٣٪ من الجماهير العربية تفضل الإذاعة على الصحافة ، فالجمهور يشعر فيها بنوع من المشاركة ، والاقتراب الشخصي ، والإحساس بالواقعية ، ومن جهة أخرى فإن الاستماع إلى الإذاعة يكون عادة استماعا عرضيا ، وعلى حد تعبير البعض إنه استماع بأذن واحدة ، لأن المستمع عادة يشغل نفسه بأعمال أخرى ، بحيث تعتبر

المادة المسموعة مجرد خلفية أو جوًّا ترفيهيًّا ، ومن مميزات الإذاعة الإحساس الجمعي ، فقد يستطيع المستمع أن يشارك فعلا في برامج الإذاعة ، كما هو الحال بالنسبة لبعض البرامج الجماهيرية ، أو أنه على الأقل يحس وهو في بيته أنه عضو في جمهور كبير من المستمعين ، وهذا الإحساس الجمعي يعمق من القابلية للاستهواء كما أشار الدكتور إبراهيم إمام★ .

ومن جهة أخرى تتفوق الإذاعة على معظم وسائل النشر الأخرى ، كالدوريات Periodicals من صحف Newspapers ومجلات Magazines التي تخضع للملكية الفردية والتي توقف معظمها ، نظرا لاهتمام الدولة بتكوين أطرها المختلفة ، وتأسيس مقوماتها ، فبينما اتجهت القطاعات المختلفة إلى بناء نفسها ، على نحو يسمح لها بمواجهة مسؤولياتها المستقبلية ، على نحو أكثر فاعلية ، وإن لم تخل هذه الظاهرة من نظرة حذرة تجاه هذا اللون من النشاط السياسي والفكري والاجتماعي ، الذي يتطلب خبرة لم تكن متوافرة ، وممارسة وطنية خالصة لاحكام التوجيه للرأي العام السعودي ، كما لا يمكن أن نتجاهل الظروف الفنية والطباعية التي رافقت هذه الفترة ، وكذلك قلة الإمكانات المادية والبشرية ، كما لم تكن الصحافة اليومية قائمة أو موجودة آنذاك ، وتعلم أن الصحافة اليومية تأسست بعد صدور نظام المؤسسات الصحفية في ١٣٨٣/٦/٢٤ هـ[١٥] ، نعود لنؤكد تفوق الإذاعة ، فهي أسرع الوسائل الإعلامية لنشر المعلومات والأخبار ، فهي تنفرد بالسبق الإخباري ، ولها أولوية النشر ونشير إلى أن الأثر الأول للخبر أو للرأي لا يمحي بسهولة ، كما يصعب معارضته[١٦] ، وفي هذا المجال يقول جوبلز وزير الدعاية في ألمانيا النازية ، إن صاحب الكلمة الأولى في أي قضية من القضايا ، هو صاحب الكلمة العليا دائما[١٧] .

أول نظام إذاعي سعودي :

تنبهت حكومة المملكة العربية السعودية إلى خطورة وأهمية الإذاعة السعودية ، التي بدأت إرسالها المنتظم في تمام الساعة الواحدة بعد ظهر يوم الأحد (يوم الوقوف بعرفات) التاسع من ذي الحجة عام ١٣٦٨ هـ الموافق أول أكتوبر عام ١٩٤٩ م ، فأخضعتها لسيطرتها منذ بداية عهدها ، وقامت بالإشراف المباشر عليها ، وملكيتها ، على عكس الصحف التي كانت تؤول ملكيتها آنذاك للملكية الفردية ، أو الخاصة ، ووضعت الدولة يدها على الإذاعة ، وبدأت بإدارتها وتنظيمها وتشغيلها وفق القواعد

والخطط الموضوعة من قبلها ، كما أخذت تراقب حسن سير العمل فيها ، وتوجهها حسب مقتضيات ظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ولقد حدد أول مرسوم ملكي أصدره جلالة الملك عبد العزيز ، بشأن تأسيس أول نظام إذاعي ، الإشراف على الإذاعة ، حيث أناط المرسوم مسؤولية وضع البرنامج والإشراف عليه بسمو الأمير فيصل بن عبد العزيز ، والذي كان نائباً لجلالة الملك عبد العزيز في الحجاز آنذاك ، وكان لهذا الاختيار أثره البعيد فيما بعد ، حيث تطورت الإذاعة في عهده ، خاصة عندما تسلم جلالته مقاليد الأمور في المملكة ، تطوراً واضحاً لم يكن معهوداً من قبل ، حتى إن « بدر كريم » مدير عام الإذاعة السابق يعتبر عصر جلالته العصر الذهبي للإذاعة السعودية ، لأنه كان مرحلة مهمة للتفتح والانطلاق والتطور المصحوب بالعديد من الإنجازات والإنشاءات البارزة في حياة الإذاعة السعودية ، كافتتاح إذاعة الرياض ، وإنشاء إذاعة نداء الإسلام ، وزيادة ساعات الإرسال إلى سبع عشرة ساعة ، وارتقاء وتطور البرامج وتنويعها ، وتنويع الأصوات ، وظهور صوت المرأة السعودية لأول مرة ، خاصة في البرامج الموجهة للمرأة والطفل السعودي ، وكذا في الأعمال الدرامية كالتمثيليات والمسلسلات ... الخ ، وكذلك بث أول برنامج موجه باللغتين الإنجليزية والفرنسية من جدة والرياض(١٨) .

فالفضل إذن يعود لعهد جلالة الملك عبد العزيز ، وفيه البداية وفيها وضع الأسس والدعائم لنشأة أول نظام إذاعي في المملكة ، وكانت الإذاعة السعودية تتبع إداريا وزير المالية ووكيله ، اللذين كانا يعملان بتوجيهات سمو الأمير فيصل نائب الملك عبد العزيز في الحجاز ، وتعاقب على منصب مدير الإذاعة حتى نهاية عهد الملك عبد العزيز ثلاثة مديرين هم : إبراهيم الشورى ، محمد شطا ، إبراهيم أمين فودة ، وكانت تبعية الإذاعة لوزارة المالية في هذه الفترة ناتجة عن كون وزارة المالية هي الوزارة الشاملة التي تجمع العديد من الخدمات ، وهي التي تمول الإذاعة بجزء من ميزانيتها ، متكلفة بتغطية جميع نفقاتها ، لاستمرار تشغيلها ، وأداء مهمتها ، وهذا يعكس حرص الدولة على ضرورة توفير الدعم المادي والأدبي لها ، لأهميتها وحساسيتها ، هذا بالإضافة إلى ضرورة ارتباطها بوزارة المالية محل ثقة الحكومة ، لضمان سلامة الإشراف عليها ، ويعرف هذا النظام الإذاعي بالحكومي Governmental System وفيه تكون كل إمكانات الإذاعة ومحطاتها تحت سيطرة الحكومة ، أو تحت رقابتها ، وليس هناك أي

مؤسسة إذاعية منافسة للإذاعة السعودية ، والتي تعتبر **إحدى المؤسسات الحكومية المهمة**[١٩] .

برامج الإذاعة الأولى :

بدأت الإذاعة السعودية إرسالها باللغة **العربية بفترة واحدة يومية** في **المساء** ، ثم أعقبتها **بفترة إرسال ثانية صباحية** ، وفي غرة ذي الحجة عام ١٣٧٠ هـ (سبتمبر ١٩٥١ م) قدمت الإذاعة فترة **الظهيرة كفترة ثالثة** ، وفي بداية شهر صفر عام ١٣٧١ هـ ـ (أكتوبر ١٩٥١ م) ، استخدمت الإذاعة السعودية فترة **مسائية ثانية** ، لتصبح فترات البث اليومية أربع **فترات تقدم باللغة العربية** ، تصل مدتها **ثلاث ساعات وربع الساعة طوال اليوم** ، لتحقيق أهدافها الرئيسية من تثقيف وتوجيه وأخبار ، حيث تبدأ كل فترة **بآيات من الذكر الحكيم** ، تليها برامج دينية في **شكل مواعظ مباشرة ، وأخرى ثقافية** ، هذا إلى جانب بعض **الأحاديث الاجتماعية** ، **ونشرات الأخبار** ، وما عدا ذلك من برامج لا وجود له على الاطلاق ، وتشير الدراسات إلى أن نسبة البرامج الإذاعية الأولى في الإذاعة السعودية كانت كالتالي[٢٠] :

٣٠٪	للبرامج الدينية .
٢٥٪	أخبـار إذاعيـة .
٤٥٪	برامـج أدبيـة وثقافيـة .

وكانت الإذاعة السعودية تعتمد في بدايتها **على البرامج الجدية** أكثر من **برامج التسلية والترفيه** ، **وكان للأدب في الإذاعة السعودية** في عهد الملك عبد العزيز **نصيب كبير فيها** ، حيث يقوم بعض الأدباء بإذاعة **أحاديث اجتماعية وأدبية وتاريخية وثقافية**[٢١] وكان معظم الذين يعملون في الإذاعة السعودية في بداية عهدها من الأدباء والشعراء والقصاصين أو من الشباب الحاصلين على **الثانوية العامة حديثاً** (القسم الأدبي) ، أو من الحاصلين على **ليسانس الآداب** ، **وهم قلة نادرة** ، **ولهذا نلحظ كثرة البرامج الثقافية والأدبية** ، والتي وصلت نسبتها إلى **٤٥٪ من مجموع ساعات الإرسال** ، وكانت بعض مسمياتها تشير إلى مضمونها ، ومنها « روائع الشعر » ، و « قصص مختارة » ، و « قالت العلماء » ، و « ألوان من الأدب العربي » و « باقة من الشعر » و « قرأت لكم » ، و « أضواء مشرقة في تاريخ العرب » و « أمجادنا في التاريخ » و « ملح وطرائف ، و « دنيا القصص » .. الخ ، ولم تكن مدة البرنامج **تتجاوز ربع الساعة** ، كما كانت هناك

بعض برامج **الفئات والأركان الخاصة بالأسرة باعتبارها اللبنة الأولى للمجتمع ، والأطفال ، والذي أصبح تقدم الدول يقاس بمدى العناية بهم**[٢٢] **وركن الصحة ، والرياضة ، وبرنامج الطلبة ، وآفاق من العلوم ، وعلم المال والاقتصاد .. الخ .**

بين برامج الإذاعة السعودية والإذاعات المتقدمة :

كان التقسيم الإداري للبرامج حتى أوائل الثلاثينيات في الدول المتقدمة يضم **الأحاديث ، والموسيقى ، والغناء ، والأخبار ، والشؤون السياسية ، والدراما الإذاعية ، ثم أدخلت المنوعات فيما بعد** ، وشهدت إذاعات الدول المجاورة للمملكة فيما بعد برامج جديدة تجمع بين نوعين أو أكثر من هذه الأنواع ، فامتزجت الكلمة المنطوقة بالموسيقى والغناء ، كما امتزجت الشؤون السياسية بالكلمة المنطوقة (الصوت الأصلي من مواقع الأحداث) ، والدراما الإذاعية (التمثيليات) بالموسيقى والغناء[٢٣] .

بينما افتقدت **برامج الإذاعة السعودية في عهد الملك عبد العزيز في أول عهدها** من البرامج المعروفة على مستوى الإذاعات **العالمية ، كالمنوعات ، والتمثيليات ، والبرامج التي تهدف إلى الإضحاك والتسلية** ، كالألغاز ، **والبرامج الاستعراضية ، والبرامج التي تعتمد على الشخصية الفكاهية الواحدة ، والبرامج الدرامية ، والإعلانات .. الخ** ، أما **المؤثرات الصوتية** كعنصر هام من عناصر **إنتاج المواد السمعية في الإذاعة فلم يكن هناك وعي بأهميتها في البداية** ، إلا أن الإذاعة جلبت فيما بعد كمية كبيرة من الاسطوانات المملوءة **بالمؤثرات الصوتية ، للاستفادة منها في تحسين البرامج ، وهي تستعمل بنجاح في أداء كثير من الأغراض ، وتجسيد العديد من التأثيرات والمعاني والمفاهيم ، كتصوير المكان ، وتحديد الزمان ، وتوجيه اهتمام المستمع وعاطفته ، والمساعدة في توفير الجو النفسي المطلوب للبرنامج** ، والإشارة **إلى دخول الشخصيات وخروجها ، والنقل بين الفقرات الإذاعية للبرامج المتنوعة** ، أو للدلالة على طبيعة البرنامج أو لتسميته ، أو الإيحاء بالواقع بمخاطبة مخيلة المستمع ، أو تدعيم الصراع وتعميق أثره[٢٤] .

الموسيقى والغناء :

استخدمت الإذاعة **السعودية في بداية عهدها أيضا الموسيقى** ، فقد بلغت مدتها عشرين دقيقة طوال فترات الإذاعة الأربع (الصباحية والظهيرة والمسائية بنوعيها) وبمعدل خمس دقائق في كل فترة ، وكانت الموسيقى مقصورة على **موسيقى الجيش**

(مارش عسكري) وهي الموسيقى الجادة ، للتفرقة بينها وبين النوعيات الأخرى التي لم تقبل عليها الإذاعة السعودية آنذاك ، كالموسيقى الخفيفة ، أو الشائعة ، أو الدارجة ، أو الشعبية .. الخ ذلك من ضروب الموسيقى ، التي كانت تستخدمها إذاعات الدول المجاورة ويبدو أن البت في السماح بإذاعة موسيقى المارش العسكري يرجع إلى أنها كانت مألوفة حيث كانت تستخدم في الاستعراضات العسكرية وفي الاستقبالات الرسمية في القصر الملكي آنذاك ، وتضاربت الآراء حول الموسيقى والغناء ما بين مؤيد ومعارض في الإذاعة السعودية في بداية عهدها ، وعلى الرغم من قيام محاولات لإذاعة بعض الأغاني الدينية والشعبية (الفولكلورية) إلا أن تلك **المحاولات باءت بالفشل ،** لأن الإذاعة كانت تحمل **اسم مكة المكرمة آنذاك** ، وكان النداء المستخدم هو « **الإذاعة اللاسلكية للمملكة العربية السعودية من مكة المكرمة** » فكيف **يرتبط هذا الاسم الكريم بالموسيقى والغناء ، وفيهما ما يخالف تعاليم الإسلام ؟**

ولم تتمكن الإذاعة السعودية من إدخال شيء من الأغاني الشعبية (الفولكلور) إلا بعد سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٥ م) ، وكانت تؤدى هذه الأغاني والأناشيد بأصوات الرجال فقط ، ونتيجة للرفاهية غير المعهودة التي دانت للسعوديين بظهور النفط أخذوا ينظرون ـ متأثرين بمحطات إذاعات الدول المجاورة ـ إلى أمور دنياهم بمنظار أكثر تساهلاً عن ذي قبل بالنسبة للموسيقى والغناء ، وظهر المغنون المحترفون ، فتعادلوا مع أهل الأدب وغيرهم ، وبلغت نسبة الأغاني والدراما أكثر من ٣١٪ من إرسال الإذاعة السعودية الآن[٢٥] ، كما لا ننسى بعد البرامج الإذاعية المعلبة والمستوردة والتي كان لها دورها في توجيه اهتمام الإذاعة السعودية بعناصر إنتاج المواد الإذاعية ، وبدأت الإذاعة السعودية فيما بعد مرحلة متطورة لجذب اهتمام مستمعيها بالكلمات المنطوقة والمؤثرات الصوتية والموسيقية ، آخذة بأحدث فنون العمل الإذاعي ، على اعتبار أن الكلمات المنطوقة توصل مفاهيم محددة ، والمؤثرات الصوتية تجسد هي الأخرى معاني ومفاهيم وأفكاراً مختلفة ، بينما الموسيقى لها وظائف متباينة وكثيرا ما تستخدمها الإذاعة السعودية ، ومنها اللحن المميز في بداية ونهاية البرامج ، والانتقال من مسمع إلى آخر ، والتصوير الموسيقي ، فتضع في خلفية الحوار موسيقى ناعمة ، وتظهر بصورة واضحة في الدراما عندما تساعد على تصوير الحدث وتعمق الصراع ، أو الضربة الموسيقية أو الصرخة القصيرة ، التي تستخدم أثناء الحوار لتركيز انتباه وسمع المستمع على جملة معينة ، كما لو كنا نضع تحتها خطا بالقلم الأحمر ، لبيان أهميتها ، وقد يستخدم للتعبير

عن وقع المفاجأة في نفسية إحدى شخصيات التمثيلية[٢٦] .

دعم نشرات الأخبار :

وعملت الإذاعة السعودية على دعم العمل الإخباري ، لتزويد المستمعين بالأخبار الداخلية والخارجية ، والتي تهمهم وتهم بلادهم ، فبلغت الأخبار ٢٥٪ من ساعات إرسالها ، واستوردت جهاز تيكرز لالتقاط الأخبار من وكالة الاسوشيتدبرس ، ومن المعروف أنه لم يكن بالمملكة آنذاك وكالة وطنية لجمع وتوزيع الأخبار العالمية المختلفة داخل المملكة وخارجها ، وكذلك لنشر الحقائق والمعلومات إلا في عام ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ، حيث تم تأسيس أول وكالة أنباء وطنية بموجب الأمر الملكي السامي رقم ٢٠٤٧٦ الصادر في الثامن من ذي القعدة عام ١٣٩٠ هـ ، وأصبحت بذلك وكالة الأنباء السعودية أول وكالة أنباء وطنية للمملكة[٢٧] ، ولتصبح المعبر الرئيسي الذي تمر منه شتى الأخبار والمعلومات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية إلى الإذاعة ، وبالتالي إلى مستمعيها فيما بعد .

كما قامت الإذاعة السعودية في بداية عهدها **بإيفاد مندوبين إلى داخل المملكة لتسجيل بعض مظاهر النشاط والتقدم** ، التي بدأت تطرأ على حياة المجتمع السعودي ، كما تم تعيين مندوبي أخبار الإذاعة في مختلف الدوائر الحكومية لموافاتها بما يهم المستمع من حوادث وأنباء ، **لأن الأخبار تعتبر الأساس التي تبنى عليه السياسة البرامجية للإذاعة** ، حيث تتوافر لها وحدها آنذاك **فرصة السبق الإخباري على وسائل الإعلام الأخرى** ، كما تنفرد **بخاصية قطع البرامج الإذاعية بخبر مهم أو أمر ملكي سامٍ** ... الخ وذلك في الوقت الذي لم تظهر فيه **الصحف اليومية إلا في الرابع والعشرين من شهر جمادى الثانية عام ١٣٨٣ هـ** .

التشويق :

كانت البرامج الإذاعية الأولى **خالية من التشويق** ، مفتقرة إلى عناصر جذب **اهتمام المستمع وربطه**[٢٨] ، وكانت **برامج الكلام** تستأثر بنسبة كبيرة من ساعات إرسال الإذاعة السعودية ، كما كانت الإذاعة تفتقر إلى **الخبرات الإذاعية ، والكفاءات البشرية المدربة على فنون العمل الإذاعي ، من مخرجين ، وإذاعيين ، ومقدمي ومعدي البرامج ، والفنيين ، بالإضافة إلى ضعف الإمكانات المادية** .

تطـور الإذاعـة السـعودية :

تميزت الإذاعة السعودية في بداية عهدها **ببساطة الإمكانات الفنية والبشرية التي بدأت بها ، وبدأت الإذاعة إرسالها بقوة ٣ كيلووات** ، باستخدام أبسط أنواع الهوائيات التي تغطي منطقة محدودة حول مركز الإرسال بجدة ، وكانت نسبة المستمعين إلى برامجها محدودة **بحدود قوة الموجة التي تحكمها من جهة** ، ومن جهة أخرى لقلة عدد **أجهزة الراديو** ، فكان قليل من المواطنين **يقتنون أجهزة الراديو لغلو ثمنها أو لنظرتهم السلبية لها** ، كما كانت **الأجهزة معقدة** ، وتحتاج **إلى خبرة للحصول على الموجة المطلوبة بالإضافة إلى عدم كفاية التيار الكهربائي** ، ودلت التقارير الأولية من مدينة الطائف على أن الموجتين المتوسطة والقصيرة لم تتمكنا **من حمل إرسال الإذاعة حتى إلى تلك المسافات القصيرة .**

وكانت الإذاعة مرتبطة بإدارة البرق والبريد حتى شهر جمادى الأولى عام ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م) ، حيث تم فصل القسم الهندسي من تبعية البرق والبريد ، وارتبط بالمديرية العامة للإذاعة ، حتى تكونت إدارة هندسية متخصصة في الإذاعة عام ١٣٧٢ هـ الموافق ١٩٥٢ م ، وهذه الإدارة الهندسية تقوم بالجانب الهندسي ، والخاص بتوصيل الإنتاج الإذاعي ، وتوصيله إلى المستمع من خلال معداتها وأجهزتها ووسائلها الهندسية ، فالإنتاج الإذاعي الذي يصل إلى المستمع هو حصيلة مجموع العمليات البرامجية المتكاملة ، والتي تكمل بعضها بعضاً ولا يمكن لكل منهما أن يستقل بها دون الآخر .

زيـادة محطـات الإرسـال :

اقتضت الزيادة المضطردة في برامج الإذاعة السعودية وتعددها زيادة مماثلة في عدد محطات الإرسال ، وكذا استديوهات إعداد البرامج وتسجيلها ، **وكانت جدة أول مقر لأول نظام إذاعي رسمي ينشأ في المملكة ، ولها أهميتها ، حيث تقع على ساحل البحر الأحمر ، مما يساعد على اتساع منطقة بث برامجها للدول المجاورة ، والناطقة بالعربية ، نظراً لأن الماء وسيط جيد وفعال لانتقال الموجات الإذاعية ، ولقربها من الأماكن المقدسة (مكة المكرمة ـ المدينة المنورة) ، وبما يساعد على نشر تعاليم الإسلام الصحيحة بين الحجاج والزائرين والمعتمرين .**

وعندما احتفلت الإذاعة بدخولها العام الثالث من عمرها **١٣٧٠ هـ ، ١٩٥١ م** كانت قد استكملت **الأسباب الفنية لإمكان الإرسال من استديو مكة المكرمة** ، الذي تم افتتاحه رسمياً في غرة المحرم **١٣٧١ هـ سبتمبر ١٩٥٢ م** ، في احتفال رسمي شهده سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز نائب الملك عبد العزيز في الحجاز .

وفي نفس الشهر سجلت الإذاعة السعودية ، ولأول مرة إبان اشتراكها في المؤتمر الدولي للإذاعة واللاسلكي ، **الموجات العاملة التي استخدمتها للبث والإرسال** ، بالإضافة إلى حصولها على ترددات جديدة متوسطة وقصيرة ، ومن جهة أخرى صحبت الزيادة في عدد المحطات **الإذاعية زيادة في عدد الاستديوهات** ، كما صحب هذه الزيادة **تجديد في الأجهزة المستخدمة** ، وفي شهر شعبان من عام **١٣٧١ هـ (مايو ١٩٥٢ م)** تم استكمال الوسائل **الفنية لإمكان الاتصال السلكي واللاسلكي والإرسال الإذاعي بين المسجد الحرام واستديو مكة .**

النقل المباشر على الهواء (النقل الحي) :

ولقد تمكنت الإذاعة السعودية من نقل **أذان العشاء حياً على الهواء مباشرة من الحرم المكي الشريف ، بعد استكمال الوسائل الفنية لربط الحرم بمحطة الإذاعة** (استديو مكة) ، وفي بداية شهر رجب عام ١٣٧١ هـ (مارس ١٩٥٢ م) ، قدمت الإذاعة لأول مرة فترة إرسال إضافية يوم الجمعة من كل أسبوع ، **لإذاعة شعائر صلاة الجمعة** على الهواء من الحرم المكي ، كما تمكنت الإذاعة خلال شهر رمضان **١٣٧١ هـ (مايو - يونيو ١٩٥٢ م)** من نقل **أذان المغرب من المسجد الحرام ، حياً على الهواء** ، في نهاية فترة **بث الإذاعة التي استحدثت قبل الغروب** ، كما تم نقل صلاة **الفجر وصلاة عيد الأضحى المبارك ، وخطبة العيد على الهواء مباشرة في نفس الشهر .**

الانضمام إلى الإذاعات الخارجية :

وفي أواخر شهر شوال ١٣٧١ هـ (يوليو ١٩٥٢ م) ، تمكنت الإذاعة السعودية من الانضمام إلى إذاعة هيئة **الـ بي . بي . سي (راديو لندن)** لنقل الحديث الذي ألقاه سمو **الأمير عبد الله الفيصل .**

واستمر إدخال التحسينات الفنية والهندسية والبرامجية ، والتي تمكن الإذاعة من أداء رسالتها **على الوجه الأكمل** ، كما تمكنت الإذاعة من **القيام بتسجيلات خارجية**

في حفلات القصور الملكية بجدة ومكة والرياض أثر إدخال أجهزة التسجيل ، ثم بدأت بعد ذلك ساعات إرسال الإذاعات الخارجية تتزايد وتنوعت برامجها ، واقتضت تعدد مصادرها وشمل التطور نظم وأجهزة الإذاعة الخارجية ، وبعد أن كانت الإذاعة الخارجية لا تتعدى إذاعة واحدة أو تسجيلا واحدا ، أصبحت اليوم فقرة مهمة في نطاق البرامج المذاعة ، وازداد مداها بحيث أمكن نقل البرامج فيما بعد على الهواء مباشرة ، من أي مكان في المملكة ، بل تعدت نطاقها ، وأصبحت البرامج تذاع من أي مكان في العالم بواسطة استخدام الاتصالات الفضائية Space Communication . وذلك عبر أقمار الفضاء للاتصالات عن بعد[٢٩] ، كما شمل التجديد في الأجهزة ، تجديداً في الوسائل فاستحدثت فيما بعد سيارات الإذاعة الخارجية ، التي تستطيع نقل البرامج مباشرة ، إما من نقط ثابتة بواسطة خطوط التليفون ، أو من نقطة متحركة بواسطة عربة اللاسلكي ، كما استحدثت سيارة التسجيل المزودة بأجهزة التسجيل على أشرطة مغناطيسية (صوتية) ، والتي يسرت عمليات التسجيل دون التقيد بالخطوط التليفونية ، أو شغل أجهزة واستديوهات الإذاعة ، وأصبحت اليوم الإذاعة الخارجية السعودية في كل مكان في المملكة أو خارجها .

البرامج الموجهة :

ويقصد بها البرامج التي **توجهها الإذاعة السعودية إلى شعوب العالم الخارجي بلغاتهم الوطنية** ، وبدأ **الاهتمام بفكرة البرامج الإذاعية الموجهة بعد عام واحد من بدء إرسال الإذاعة السعودية ، وذلك لأن الإذاعات الخارجية تعتبر رمزا لسيادة الدولة واستقلالها ، فهي الصوت الحر الذي تخاطب به الدولة شعوب الدول الأخرى وبطريقة مباشرة**[٣٠] ، ويعتبر الراديو **حتى الآن وسيلة الاتصال الدولي الوحيدة ، والتي لا يمكن وقفها ، فالدوريات من صحف ومجلات يسهل منعها ومصادرتها على الحدود** ، أو عند **نقاط البيع** ، كما يمكن **فرض الرقابة عليها بسهولة** ، كما إن برامج التلفزيون مازالت وطنية على الرغم من البث المباشر الذي أصبح ممكنا عبر الأقمار الصناعية ، كذلك مازال الفيلم السينمائي يخضع لرقابة الدول وسيطرتها[٣١] ، وتهتم الإذاعة السعودية بالبرامج الموجهة لشعوب العالم الخارجي ، **إيمانا بدور الإذاعة كوسيلة مهمة من وسائل النشر والتبليغ والدعوة الإسلامية ، ونعلم أن الإعلام السعودي على مر العصور يؤكد أن الدعوة إلى الله بين المسلمين وغيرهم قائمة دائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها**[٣٢] ، فالدعوة إلى الإسلام **ونشره بين الناس وتبليغه لهم**

في كل زمان ومكان واجب المسلمين القادرين على التبليغ ، وأول آية نزلت على رسول الله ﷺ في هذا المجال ـ مجال الدعوة هي قوله سبحانه وتعالى في سورة المدثر ﴿ **يأيها المدثر قم فأنذر** ﴾ ، وهي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم[٣٣] وتتوالى الآيات التي تكلف الرسول ﷺ بالتبليغ ، فالدعوة إلى الله « **دعوة الحق** » واجبة على الرسول عليه الصلاة والسلام أولاً ، وواجب المسلمين بالتبع لذلك ، كقوله سبحانه وتعالى ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾[٣٤] ، كذلك تتوالى الآيات التي توجب على المسلمين تبليغ دين الله وقرآنه ، للناس كافة ، بقوله سبحانه وتعالى ﴿ **وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾[٣٥] ، وقوله عز من قائل ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾[٣٦] ، كما يقول سبحانه وتعالى في سورة النحل ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾[٣٧] ويقول عز من قائل في سورة آل عمران ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾[٣٨] ، والخير هو اتباع **القرآن وسنة سيد الأولين والآخرين** .

فالمسلمون جميعاً مسؤولون عن تبليغ الدعوة الإسلامية لكل من لم تبلغه دعوة الحق ، كما أن هذه الدعوة موجهة إلى كافة شعوب المعمورة ، لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[٤٠] ، **فالدعوة عالمية تشمل الناس جميعا** ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾[٤١] والدعوة توجه إلى كل شعوب الأرض لقوله تعالى ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[٤٢] ، وتوجه إلى كل الناس دون تفريق ، لقوله سبحانه وتعالى ﴿ **يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا** ﴾[٤٣] ، **والآيات القرآنية الدالة على عموم الدعوة الإسلامية كثيرة جدا ، منها آيات** كثيرة يوجه الحديث فيها بكلمة « **الناس** » و « **الإنسان** » و « **عباد** » و « **يابني آدم** » و « **العالمين** » و « **البشر** » و « **رب المشرق والمغرب** » جمعهما أو تثنيتهما و « **الأولين والآخرين** » و « **أمة واحدة** » و « **أهل القرى** » .. الخ ذلك من آيات تدل على عموم الدعوة[٤٤] .

أهـداف الإذاعـات الموجهـة :

تزداد أهمية انتشار الإذاعات الإسلامية الموجهة لحمل لواء الدعوة ، ومناصرة قضايا الحق ، ومناهضة الظلم ، وزيادة الوعي بأمور الدين الإسلامي الحنيف ، في الوقت الذي تقتحم فيه موجاتها المتعددة حدود الدول بقوة الموجة التي تحملها ، بغير استئذان ، مستخدمة كافة عناصر التشويق ، والتي توجه إلى كثير من الدول التي تعاني فراغا دينيا ، يتمثل في قصور الوعي الديني بها ، ويمكن لمختلف البرامج الموجهة أن تخدم أهدافا وأغراضا متباينة ، منها ما هو إعلامي أو تعليمي أو تثقيفي أو توجيهي ، وأعتقد أنه لا توجد جزئية في حياتنا العملية إلا وفيها معنى شامل تتضمنه آيات القرآن الكريم ، ويقول رب العزة والجلال ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾[٤٥] ، كما يقول تعالى ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شئ ﴾[٤٦] ، هذا بالإضافة إلى سنة الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومن قال عن نفسه « أنا رحمة مهداة » ، إيمانا بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ صدق الله العظيم ، وتقوم الإذاعات الموجهة عبر الإذاعة الإسلامية بأغراض أساسية هي الإعلام عن الدين ، والدفاع عنه ، والدعوة إليه ، وتعليم فروضه ومبادئه وقيمه .. الخ[٤٧] ، وأذكر أيضا أن من بين أهداف البرامج الموجهة تعليم اللغة العربية ، وإن الصلة بينها وبين الإسلام وثيقة ، فهي لغة القرآن ، وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى ذلك فقال تعالى ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ ، ومن جهة أخرى فاختيار الله سبحانه وتعالى للغة العربية من بين لغات المعمورة لغة للقرآن الكريم ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ يعتبر تتويجا لها ، وإعلانا لتفوقها وسيادتها ، ودعوة أبدية للخضوع اللغوي لها ، كما أن في تعليم اللغة العربية سواء للناطقين بها أو غير الناطقين من شعوب العالم أساساً لفهم القرآن الكريم ، وفهم معانيه ، فاللغة العربية هي وعاء هذا التراث العظيم ، وتعليم اللغة العربية تمهيد للتمكن من التراث الإسلامي[٤٨] .

البرامـج الموجهـة في عهد الملك عبد العزيز :

سبق أن أشرنا إلى أن فكرة الإذاعات الموجهة نشأت بعد مرور سنة على تأسيس الإذاعة السعودية ، حيث رأى المسؤولون في الإذاعة أن يستفيدوا من تجمع آلاف الحجاج عام ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠ م) في المشاعر المقدسة ، من كل لون ، ومن كل

مكان ، في مكة المكرمة ، لأداء فريضة الحج ، وبما يستلزم توجيههم إلى التمسك **بتعاليم الإسلام** ، **وأداء الحج** ، وإرشادهم إلى **طرق الوقاية من ضربات الشمس** ، ولتحقيق هذه الأهداف بدأ البث التجريبي في اليوم الأول من **شهر ذي الحجة عام ١٣٦٩ هـ** ، **ولمدة ربع ساعة يوميا** ، فكان ذلك بداية لنشأة البرامج الموجهة في الإذاعة السعودية في عهد الملك عبد العزيز يرحمه الله(٤٩) .

ولما كان من أساسيات العمل الإذاعي في هذه الإذاعات الموجهة أن تستخدم أصلا **اللغات التي يفهمها جمهور المستمعين لها تماما** ، للتأثير عليهم باستخدام كلمات بسيطة ، سهلة الفهم ، ذات معان واضحة ، لا يشوبها غموض أو إبهام ، ذلك لأن الأفكار الغامضة تعرقل عملية التأثير ، كما تحول دون الاستجابة المستهدفة ، وبالتالي لا تحقق أي هدف(٥٠) ، ولذلك كانت بداية البث التجريبي الموجه لحجاج بيت الله الحرام باللغتين **الاندونيسية والأوردية** ، لكثرة المتكلمين بها من الحجاج ، تلك كانت بداية نشأة البرامج الموجهة في الإذاعة السعودية في عهد جلالة الملك عبد العزيز يرحمه الله ، وفي غرة المحرم عام ١٣٧٠ هـ الموافق ١٣ أكتوبر ١٩٥٠ م تمت زيادة إرسال البرنامجين ، ليصبح كل **منهما نصف الساعة** ، وطرأ تحسن واضح في المواد والفقرات المقدمة ، والتي شملت بالإضافة إلى **القرآن الكريم** ، **والحديث استخدام اللحن المميز** (موسيقى مارش عسكري) لمدة دقيقتين ، **ونشرة أخبار مدتها ثماني دقائق** ، وبدأت ساعات إرسال البرنامجين تتزايد دون تجديد **في الفقرات المذاعة** ، وكل ما هناك أن أصبحت تلاوة القرآن الكريم ثماني عشرة دقيقة بدلا من عشر دقائق ، وتشير البحوث والدراسات إلى أن ما حدث من تطور شمل البرنامجين(٥١) .

بعد ذلك تطور البرنامجان تطوراً واضحاً شمل زيادة ساعات الإرسال ، ونوعية المواد والفقرات المذاعة ، وأساليب تقديمها ، واستخدام كافة عناصر الإنتاج الإذاعي من **أصوات ومؤثرات صوتية وموسيقى شرقية وعربية بدلا من الموسيقى العسكرية** ، وتقدم البرامج الموجهة في الإذاعة السعودية **اليوم ٣١ ساعة يوميا** ، **باثنتي عشرة لغة ولهجة** ، **هي الأوردية والاندونيسية والتركية والسواحلية والفارسية والصومالية والبرتغالية والعربية والإنجليزية والفرنسية والتركستانية والبمبرة**(٥٢) .

السياسة العامة للإذاعة السعودية في عهد الملك عبد العزيز :

تُعَدُّ الإذاعة السعودية أحدث وسيلة اتصال في المملكة العربية السعودية في عهد

الملك عبد العزيز ، **خطت بسرعة إلى الأمام ، منذ بدأت أول محطة في عملها** في التاسع من ذي الحجة عام ١٣٦٨ هـ ، الموافق أول أكتوبر ١٩٤٩ م ، بإذاعة **شعائر الحج من عرفات ومنى ، وهدفها الأساسي بث البرامج الدينية والثقافية باللغة العربية** للناطقين بها ، مقدمة أول خدمة إذاعية في المملكة منذ ما يزيد على سبعة وثلاثين سنة ، **ولتصبح أول مساهمة للإعلام الإذاعي لخدمة التنمية في المنطقة ، و تعدُّ سياسة الإذاعة السعودية التي تعمل بمقتضاها آنذاك تابعة للسياسة العامة للمملكة ، والتي تنبثق من الإسلام وتلتزم به ، وتستمد معانيها من شريعته ، وتستند في قوتها ومتانتها على الفكر الإسلامي الواعي ، والضمير الإنساني اليقظ**(٥٣) وخاصة أن الملك عبد العزيز طيب الله ثراه استطاع أن يوحد المملكة على أساس **العقيدة والشريعة** ، وبالتالي فالإذاعة السعودية نشأت في ظل هذا النظام الذي يقدس **العقيدة الإسلامية ويرتبط بها** ، ولذلك أكد المرسوم الملكي الذي أصدره جلالة الملك عبد العزيز والسابق ذكره والخاص بتأسيس أول نظام إذاعي في المملكة على ضرورة **تمحيص وتدقيق ما يذاع ، وحتى يكون متمشياً ومتسماً مع ما جاء في كتاب الله ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾**(٥٤) ، وأيضا في المصدر الثاني للتشريع الإسلامي وهو سنة سيد الأولين والآخرين ، لقوله سبحانه وتعالى **﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾** ، ولذلك فالإذاعة السعودية **منذ بداية عهدها تلتزم بالشريعة الإسلامية ، التي تدين بها الأمة وبكل ما يصدر عنها ، ويحافظ على عقيدتها ، وتستبعد من مضمون برامجها كل ما يناقض شريعة الله ، التي شرعها للناس كافة .**

كما عملت الإذاعة السعودية منذ بداية عهدها بمناهضة كافة التيارات الهدامة ، والاتجاهات الإلحادية ، والفلسفات المعادية ، ومحاولة صرف المسلمين عن عقيدتهم بكشف زيفها في برامجها المستمرة ، وهذا أكدته الإذاعة السعودية محققة الملاحظة (رقم ج) والتي أشار إليها المرسوم الملكي الأول لنشأة الإذاعة السعودية ، والذي يقرر النظر **فيما يمكن إذاعته من القرآن الكريم إيمانا بقول رب العباد ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ﴾**(٥٥) ، وقوله عز من قائل **﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾**(٥٦) ، وقوله تعالى **﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحكيم ﴾** .

كذلك أكدت الملاحظة « ج » في نفس المرسوم **على إذاعة المواعظ الدينية**

والمحاضرات التاريخية عن الإسلام والعرب ، مؤكدة أهمية التراث ، والحاجة الملحة إلى إحيائه ، وهي ما أكدته فيما بعد المادة التاسعة عشرة من السياسة الإعلامية للمملكة فيما بعد[٥٧] .

السياسة الإخبارية للإذاعة :

احتلت الأخبار مكانا مرموقا من البناء البرامجي للإذاعة في عهد الملك عبد العزيز ، وأوضح المرسوم الملكي الأول الذي أصدره الملك عبد العزيز منهج وسياسة الإذاعة السعودية في إذاعة الأخبار العالمية والمحلية ، حين أكد في الملاحظتين أ ، ب واللتين تنصان على « نشر الأخبار الخارجية كما هي » ، مع ملاحظة « عدم شتم أحد ، أو التعريض بأحد ، أو المدح الذي لا محل له » ، وفيما يتصل بالأخبار المحلية ، يتضمن المرسوم « يلاحظ في الأخبار الداخلية الواقع ، وتلاحظ عادتنا في السكوت على ما اعتدنا السكوت عليه ، ونشر ما اعتدنا نشره »[٥٨] ، وبهاتين الملاحظتين حدد المرسوم سياسة الإذاعة الإخبارية ، محققا ما أشارت إليه السياسة الإعلامية للمملكة في العصر الحالي ، والتي تشير في مادتها الخامسة والعشرين إلى اعتماد الإعلام السعودي على الموضوعية في عرض الحقائق والبعد عن المبالغات ، والمهاترات ، واحترام الكلمة ، ووجوب صيانتها من العبث ، ويرتفع بها عن كل ما من شأنه أن يثير الضغائن ، ويوقظ الفتن والأحقاد .

وغني عن البيان أن هذه السياسة الإخبارية التي تحقق الموضوعية والدقة والصراحة ، والتي يؤكدها اليوم كل ما يعرف بمواثيق العمل الإذاعي في كافة الدول على اختلافها ، أكد عليها المرسوم الملكي الأول الخاص بتأسيس أول نظام إذاعي في المملكة ، ومن جهة أخرى تأثرت الخدمات الإخبارية في الإذاعة السعودية بشكل مباشر بالأوضاع السياسية والثقافية ، فكانت الإذاعة كجهاز إخباري أداة سياسية شأنها في ذلك شأن وسائل الإعلام الأخرى ، وعلى هذا كانت الإذاعة السعودية ومازالت ـ شأنها في ذلك شأن كل الإذاعات في الدول النامية ـ تخضع لإشراف الدولة المباشر .

تدريب الإذاعيين :

كما نص المرسوم في ذلك الوقت المبكر من عمر الدولة السعودية على ضرورة « العمل على تحسين هذه البرامج ، وتمرين المعاونين وتدريبهم على هذه الأعمال » والتدريب بصفة عامة هو عملية منظمة ، يحصل فيها الإذاعي على معلومات ومهارات

لكي يمارس عمله في إنتاج البرامج بكفاءة عالية ، وأداء حسن ، والتدريب مهم وضروري لتنشيط العمل الإذاعي ، وهو يساهم مساهمة فعالة في رفع مستوى البرامج ، وتحسينها ، وبالتالي رفع قدرة وفعالية الإذاعة كمؤسسة إعلامية ، وبالرغم من ذلك لم يحظ التدريب على مستوى الإذاعات العربية كلها بالعناية الكافية ، فهو يأتي في مرتبة أدنى من الاهتمام بالإنتاج اليومي للبرامج ، كما ينظر إليه على **أنه نشاط من الدرجة الثانية ، يمكن إرجاؤه ، أو الاستغناء عنه ، إذا قورن بالأنشطة اليومية الأخرى المتعلقة بسير العمل ، والتي تأتي دائما في المرتبة الأولى ، ونذكر على سبيل المثال أنه بينما بدأت الإذاعة المصرية إرسالها سنة ١٩٣٤ م ، إلا أن التدريب الإذاعي لم يبدأ إلا عام ١٩٥٥م** ، وكان من الواجب أن **يتواكب النشاطان معاً على أقل تقدير ، أو أن يسبق التدريب بدء الإرسال على أحسن تقدير** ، والتدريب ضروري للكوادر البشرية ، التي تسير العمل الإذاعي في مجالات ثلاثة ، وفق الخطة والأهداف المحددة طبقا لسياسة الإذاعة ، ويتضمن المجال الفني أو البراجمي ، والمجال الإداري والبحوث ، والتشغيل الهندسي ، مع مراعاة توجيه التدريب الإذاعي البراجمي إلى كل ما يخدم المجتمع(٦٠) ، ويتم ذلك سواء بعقد دورات عامة أم تخصيصية لتدريب العاملين نظريا وتطبيقياً ، على طبيعة العمل الإذاعي باستمرار ، بهدف إطلاعهم على التجارب والخبرات الجديدة والمتطورة في مجال الفن الإذاعي ، أو بعقد ندوات أو حلقات نقاشية ، لتبادل الرأي حول موضوع من الموضوعات يشارك فيه ذوو الخبرة والاختصاص من الإذاعيين ، وحتى ينطلق التدريب إلى آفاق أوسع لتضمن مسؤولية الإذاعة في إرساء وتنفيذ أهداف المجتمع ، خاصة بعد حصول الإذاعيين على القدر الكافي من التدريب على مهارات العمل الإذاعي وفنونه ، مع توفير الزيارات الميدانية والمنح والبعثات للإذاعات العالمية والمتقدمة ؛ للوقوف على تقنيات العمل الإذاعي فيها ، ولكي يكون التدريب فعالا لابد من الاستمرارية بمعنى ألا يقف التدريب عند حد معين ، أو مستوى من المهارة ، لأن فنون العمل الإذاعي في تغير دائم ، وتطور مستمر ، وكذلك ضرورة الانتظام ويعني أن تبنى سياسة التدريب على خطة واضحة ومرسومة تحقق الهدف المنشود منها .

البحوث الإذاعية :

عندما بدأت الإذاعة السعودية إرسالها (١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩ م) بإذاعة شعائر الحج من عرفات ومنى لم تكن النتيجة كما يجب ، لصعوبة الحصول على تقارير استماع من سائر أنحاء المملكة ، كما لم تكن هناك أية دراسات ميدانية ليتم التخطيط للإذاعة السعودية

على أساس مؤشرات هذه الدراسات الاستطلاعية ، **ونعلم أن مثل هذه البحوث والدراسات تقدم المعلومات والمؤشرات التي لا يمكن للمخططين في مجال الإذاعة أن يتخذوا قرارا دون توافرها ، شأنها في ذلك شأن غالبية إذاعات العالم آنذاك ،** سواء كانت هذه القرارات متعلقة بإنشاء الإذاعة ، أو تجديد رقعة انتشارها ، أو توفير إمكانياتها البشرية والمادية المطلوبة ، أو وضع خططها البراجمية ، هذا بالإضافة إلى أهميتها في تتبع آثار ما يذاع من برامج ، وردود فعل المستمعين لها[٦١] ، خاصة وتركز هذه الدراسات على اتجاهات المستمعين ، واهتماماتهم ، وقيمهم ، وعاداتهم ، ذلك لأن أساس عمل الإذاعة هو تقديم الخدمات الإذاعية التي تخدم اهتمامات الرأي العام ، والحرص على استمرار هذه البحوث الميدانية لمعرفة رأي الجماهير من المستمعين فيما يقدم من برامج إذاعية ، ومدى ملاءمة البرامج المذاعة لاهتماماتهم وأذواقهم ، وحجم وعادات الاستماع ، والتعرف على مدى ما تحقق من أهدافها التي تقدم من أجلها ، وتعديل المسار في الوقت المناسب وفق الغايات المستهدفة لتقييم العمل ، ذلك لأن عدم التعرف على ردود فعل المستمعين يسيء إلى نوعية المادة المذاعة ووقعها عليهم ، وطبيعي أن نجد كثيراً من إذاعات العالم الثالث لا تزال تفتقر إلى المعلومات ، التي تعمل في إطارها ، نتيجة لعدم اهتمامها ببحوث المستمعين ، وبالتالي نوصي بضرورة وضع خطة مستمرة لبحوث المستمعين ، على ألا تنصب هذه البحوث على التعرف على حجم الاستماع إلى البرامج المختلفة فحسب ، بل ضرورة أن تمتد إلى معرفة احتياجات الجماهير ورغباتهم ، وقياس الأثر الذي حققته الإذاعة ، كما نوصي الإذاعة السعودية حاليا بأهمية إجراء بحوث مقارنة ، لإذاعاتها المتعددة في المناطق المختلفة في جدة ومكة والرياض والمدينة المنورة لإمكان الاستفادة من نتائجها ، خاصة أن بحوث المستمعين تركز على مسألة العلاقة بين الإذاعة وجمهور المستمعين ، ونعلم أن التعرف علميا على المجتمع ومشكلاته وظروفه غير كاف للعاملين بها ، وأن التعرف على هذه العلاقة هو منطلق له أهميته في عملية التفكير والتخطيط والتنفيذ في العمل الإذاعي ، خاصة أن الإعلام الإذاعي عندما يعمل في معزل عن الإطار الاجتماعي والثقافي لا يمكن أن يحقق الغايات والأهداف المطلوبة .

التأثير السياسي والاجتماعي للإذاعة في عهد الملك عبد العزيز :

يشير ولبر شرام W. Schramm عالم الاتصال الأمريكي المعروف إلى خطورة دور وسائل الاتصال العصرية في المجتمعات التقليدية ، فيقول « إن الذي رأى وسائل الاتصال العصرية تدخل المجتمعات العصرية لا يساوره الشك أبدا في قدرتها » ، والإذاعة أحدث

وسائل الاتصال الجماهيرية في عهد الملك عبد العزيز ، ولها تأثيرها الواضح الذي لا يمكن إغفاله ، ويشير شرام إلى دور الراديو الذي يدخل القرى التقليدية ، ليشبع المعرفة ، والمعرفة قوة ، ناهيك عما يضيفه الراديو إلى صاحبه من مكانة ومنزلة ، فهو أول من يعرف الأخبار ، ولا مراء في أن الراديو كوسيلة إعلامية ذو نفوذ في ثقافة سعودية متطورة[٦٢] ، ونعني الثقافة السعودية باعتبارها أسلوب حياة يشمل الجانب المادي والمعنوي في حياة المواطن السعودي ، ليتحول المجتمع السعودي من الحياة التقليدية Traditional إلى الحياة المدنية Modernization ، فالإذاعة أصبحت تشكل عاملا من عوامل الضغط المؤثرة في حياة المجتمع التقليدي ، وتعتبر أقوى وسائل الإعلام Mass Media آنذاك ، فهي الوسيلة الأولى والأحدث للاتصال بالجماهير في عهد الملك عبد العزيز ، وقد أثرت تأثيرا خطيرا على فردية المواطن السعودي حيث بدأ المواطن السعودي ينتقل شيئا فشيئا من مجال الوعي الذهني الخاص إلى المجال الذهني العام ، بالرغم من اختلاف المواطنين فيما بينهم طبقا لمدى مشاركتهم في الاستماع إلى البرامج ، ودرجة التركيز .. الخ ، وكذا الإطار الاجتماعي والثقافي الذي يعيشونه ، ونحن نتفق مع ما أشار إليه ولبر شرام من أن التحدث عن الإعلام من زاوية الوسائل وحدها ، أو من زاوية العملية الإعلامية معزولة عن الإطار الاجتماعي والثقافي العام لا يمكن أن يؤدي إلا إلى طريق مسدود ، فالإذاعة السعودية تبث رسائل واقعية أو خيالية على أعداد كبيرة من المواطنين وغيرهم ، يختلفون فيما بينهم من النواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية .. الخ ، وينتشرون في مناطق متفرقة ، وتمتاز الإذاعة بالسرعة وبلوغ الجماهير العريضة والقدرة على خلق الوعي والتزويد بالمعلومات حيث توفر الإذاعة لمستمعيها معلومات كثيرة لا تتوافر لهم في حياتهم العادية وتلعب دورا إيجابيا أو سلبيا في عملية التكيف الاجتماعي كما تساهم في تغيير المعرفة والاتجاهات عند قطاعات كبيرة من جمهورها في المجتمع ، **وكانت البرامج في بداية الأمر متواضعة ، ويسيطر عليها الطابع الأدبي ، ونعلم أن لكلمة الأدب معاني عدة في التراث ، فالبعض يطلق « الأدب » على التأليف بصفة عامة ، وفي بعض العصور شاعت الكلمة لتدل على التهذيب والتثقيف ، حتى إن الفعل (أدّب) منها يعني هذب وروض على محاسن الخلق ، أو لقنه فنون الأدب ، أما الأدب بمعناه الخاص ، فهو يدل على الكلام الجيد الذي يحدث في النفس متعة راقية ، شعرا كان أم نثرا ، وهذا ما سيطر على الإذاعة السعودية في نشأتها الأولى في عهد الملك عبد العزيز ، وللأدب أهدافه الثقافية كتقديم المعلومات**

والحقائق والأخبار عن الناس والحياة والمجتمع .... الخ وأهدافه **الروحية لدعم القيم الروحية وتعميقها في نفوس المستمعين ، وأهدافه الخلقية** ليبصرهم بالقيم الفاضلة ، والسلوك الصحيح ، وأهدافه الاجتماعية لتعريف المستمع بالمجتمع السعودي ، ومقومات هذا المجتمع ، أهدافه ، ومؤسساته ، وما يجب أن يسود فيه من قيم وصفات اجتماعية ، فتكشف الإذاعة لهم جوانب الحياة الاجتماعية ، وبالتالي تساعدهم على الاندماج في المجتمع الكبير ، **وتحقيق التجاوب بين أفراده** ، كذلك له أهدافه العربية ليعرف المستمعين بأنهم جزء من الأمة العربية والإسلامية ، تربط بينهم اللغة العربية والدين الإسلامي والقيم الروحية والتراث العربي والإسلامي المشترك .. الخ ، كذلك تتيح الإذاعة السعودية لمستمعيها من خلال **البرامج الأدبية التي سيطرت في بدايتها فرصا لنشاط عقلي مثمر في مختلف مجالات التخيل "Empathy" ، والتذكر ، وتركيز الانتباه ، على كثير من مشاكلهم اليومية ، والربط بين الأحداث ، وفهم الأفكار والحكم على كثير من الأمور من منظور إسلامي صحيح ، وحسن التعليل والاستنتاج مع تقديم الصور الجمالية ، متضمنة في صور الخيال البديع ، التي تستهوي العرب آنذاك ، مع تقديم الصور الواقعية الجمالية ، والتي تدور حول مختلف جوانب الحياة والوجود ، واستعمال الأساليب اللغوية والتراكيب الأدبية الجميلة** ، **وتقديم القيم والاتجاهات التي ترد من خلال الإنتاج الأدبي ، وتدعو إلى تقدير الجمال والذوق السليم** ، ومن جهة أخرى يمكن أن يكون الأدب وسيلة **شائقة لشغل أوقات فراغ المستمعين ، ووسيلة محببة تجلب لهم المتعة والسرور إلى نفوسهم** ، وبديهي أن هذا فيه مراعاة للقيم والمثل والاتجاهات الإسلامية السائدة آنذاك ، فعن طريق **الأدب يمكن أن نرفه عن جمهور المستمعين ونروح عنهم ونسليهم** ، خاصة عندما نعلم أن **الترفيه والتسلية لفظتان تشتركان في المعنى في كثير من الأحيان بكل أسف** ، وكثير من الناس يعتقدون أنهما مترادفتان وبمعنى واحد ، فلفظة « ترفيه » لفظة مطاطة يدخل فيها **معنى التسلية** ، **لكنها تمتد إلى ما وراءها وكثير من الناس ترفه عنهم مناظرة أو مناقشة أو** حوار .. الخ ولفظة الترفيه لها معان كثيرة متعددة ، إذا نظرنا إليها على ضوء علم نشوء المعاني وتطورها ، إلا أننا حينما نطبقها على عمل أدبي مما تقدمه الإذاعة السعودية آنذاك نراها تتصل أساسا باستجابة المستمع ، أو رد فعله عليها ، وفي هذه الحالة يجب أن نفسر الترفيه على أنه إشباع للحواس ، بمعنى آخر إدخال السرور والبهجة على النفس ، وإشباع الحواس لا يكون بالانفعال وحده ، بل كثيرا ما يكون الإشباع على مستوى ذهني ، ومن ثم يكون

الإشباع هو القدرة على إدخال السرور على نفس جمهور المستمعين ، إما عاطفيا (انفعاليا) ، وإما ذهنيا وإما عن طريقهما معا[٦٣] .

ومن جهة أخرى استطاعت الإذاعة السعودية أن تخلق نوعا من الاتفاق بين أبناء الوطن ، وتقرب وجهات نظرهم نحو القضايا المهمة المشاركة في بناء المجتمع الجديد ، وبما يساعد على ربط أجزاء المجتمع ، ويدعم النظام السياسي ، الذي استطاع أن يشيع الأمن والنظام في دولة مترامية الأطراف ، قليلة السكان ، محرومة من الكفاءات البشرية ، وتعاني ظروفا قاسية ، وشحا خانقا في مصادر المياه ، وظروفا مناخية قاسية لا تشجع على العمل ولا تحث على الإنتاج .

الإذاعة والضبط الاجتماعي :

ومن جهة أخرى يمكن أن نشير لدور الأخبار المذاعة والتي احتلت مكانا متميزا في الإذاعة السعودية منذ نشأتها الأولى ، فاهتمت بإحاطة المستمعين بأهم الأخبار العالمية والمحلية ، ونستطيع أن نقول بثقة إن أخبار الإذاعة لم تقدم الأنباء والمعلومات فقط ، **وإنما استطاعت أن تقف لمظاهر الانحراف والتسيب بالمرصاد لتواجه السلوكيات الشاذة والبالية باستمرار ، وذلك عن طريق إذاعة أخبار الحوادث الداخلية من قتل وسرقة .. الخ ، وإقامة الحدود ، وتطبيق الشريعة الإسلامية ، وبالتالي فهي تساعد في نشرها وإذاعتها بين أكبر عدد من المستمعين ، وبالتالي يمكن عقابها اجتماعيا ، ويتم تحذير المستمعين من هذه الانحرافات** ، وبالتالي فهي تساعد **على تثبيت القواعد والأنماط الاجتماعية ، وبهذا يتحدد السلوك وتتشكل الاتجاهات ، وفي معظم الأحوال فإن تأثير** الإذاعة في مجال نشر المعلومات والأخطار مفيد ؛ فالإذاعة السعودية لها سجل حافل ومشرف في توضيح كثير من المشكلات التي يعاني منها المجتمع السعودي ، وتحطيم العزلة التقليدية ، وتحقيق الانتماء والولاء للوطن بعد أن كان مركّزاً من قبل على العائلات والقبائل والفرق والعشائر الهزيلة .

التأثير السياسي للإذاعة :

كان الراديو في آخر عهد جلالة الملك عبد العزيز أحدث وسيلة اتصال إعلامية ، وكان أيضا وسيلة إعلامية سياسية فهي الواجهة السياسية للمجتمع السعودي ، تعبر عنه وعن مشكلاته ، ويظهر التعبير السياسي للإذاعة السعودية في بداية عهدها في

أسلوبين إعلاميين تنتهجهما كثير من محطات الإذاعة في العالم هما :

١ ـ عرض تطورات الأحداث العالمية المحلية إخباريا ، بتقديم آخر ما حدث في الموقف السياسي على الصعيدين العالمي والمحلي ، وكانت الأخبار تمثل ٢٥٪ من خريطة برامجها .

٢ ـ بعد ذلك تدعو الأدباء والمثقفين إلى عرض وجهات نظرهم السياسية في إطار دعم **النظام السياسي ، ولمحاولة إقناع المستمعين** بها ، أو **بتحليل الأحداث أو** التعليق عليها ، كما يحدث في برنامج « **مع الناس** » ، **وفي ذلك تبسيط لعملية التأثير السياسي للإذاعة ، الذي يبدأ بإذاعة الحدث** ، **وإحاطة المستمعين علما** بما يحدث حولهم ، لتمكن المستمعين من معرفة ما يدور في بيئتهم ، وفي البيئات الأخرى ، وتحقق لهم حقهم في استيفاء المعلومات والأفكار والحقائق ، وهذا ما أكده البند الثالث في المرسوم الملكي الأول ، والخاص بتأسيس أول نظام إذاعي في المملكة ، حيث أشار المرسوم إلى ضرورة نشر الأخبار الخارجية كما هي ، كحقائق ، مؤمنا بحق الإنسان في المعرفة ، في إطار الشريعة الإسلامية ، التي تكفل للفرد حرية المعرفة ، وحرية الرأي ، والفكر ، وطبيعي أنها ليست حريات مطلقة ، وإلا أدت إلى شيوع الفوضى والضياع ، **فهي محكومة** بإطار إسلامي أو قيم ومثل وفضائل .

وعندما تنشر الإذاعة السعودية الخبر ، فهي تساعد على تكوين الآراء في واقعة من الوقائع أو المشكلات ، ولهذا أكد المرسوم على إذاعة الأخبار كما هي ، وفي شكلها الصرف Strait News وهذا ما تؤكد عليه مواثيق العمل الإذاعي في كافة دول العالم ، ويعمل من أجله القائمون على الأخبار في عصرنا الحالي ، وتشير إليه القاعدة المهمة « **إن الوقائع المقدسة والتعليق حر** » ، **لأهمية هذه الحقائق الثابتة والمعلومات** السليمة في حياة المستمعين ، وتكون النتيجة سلامة التصرفات ، وذلك اتباعا للقاعدة التي تقول « **أعطني معلومات صحيحة أعطك تصرفا سليما** »[٦٤] ، وبالتالي تؤكد المادة على ضرورة **ابتعاد أخبار الإذاعة السعودية عن أي توصية ، أو تزييف ، فهذا من شأنه أن يوفر الدقة والموضوعية وعدم التحيز الواجب توافرها في الأخبار ، حتى يمكن كسب المستمعين على أساس من الصدق والصراحة ، ومن جهة أخرى يوفر الصدق عنصر الثقة في العلاقات بين كل من الجمهور والحكومة وأجهزتها** ، حيث تعتبر الإذاعة آنذاك أهم دعامة من دعائم الإعلام الداخلي .

الإذاعـة ومظاهـر التنميـة الشاملـة :

بدأ الملك عبد العزيز جهودا ناجحة ليحول سكان شبه الجزيرة من طور البداوة المغلقة إلى طور الاستجابة للحياة العصرية Modernization لكي يجعلهم مواطنين ينتمون إلى شعب ودولة عصرية ، بعد إن كانوا أفرادا ينتمون إلى عشائر وقبائل متنافرة ، ومشتتة على أجزاء الأرض[٦٥] ، ويرى علماء الاتصال أنه بدون الاتصال ، وبدون استخدام وسائل الإعلام ، وتكاملها مع الطرق التقليدية للاتصال على المستوى الوطني لا يمكن أن نصل إلى أهداف التنمية المطلوبة ، فالإعلام يسرع في عمليات التحضر **والتطور وإخراج المجتمع من جموده وعزلته ، خاصة وأن عجلة التغيير تزداد سرعتها بصورة كبيرة بوصول وسائل الإعلام الإليكترونية** ، والتي تتخطى الأمية ، ولا تتطلب القراءة والكتابة ، ويرى **دانيل ليرنر** في وسائل الإعلام مضاعفاً للتنمية ، فهي تقدم للجماهير المواقف العصرية الجديدة ، غير المألوفة بالنسبة لهم ، كما تطلعهم على سلسلة من المواقف يستطيعون الاختيار من بينها[٦٦] ، ويؤكد **ولبر شرام** على دور الإعلام المهم في عملية التحديث والعصرية من المجتمع التقليدي إلى مجتمع أكثر عصرية ، وتُعَدُّ الإذاعة من أهم وسائل الإعلام ، حيث تتخطى حاجز الأمية فهي تخاطب الناس بلغة واضحة ومفهومة ، وتنقل رسائلها إلى الجماهير بأسرع وأرخص ما يمكن ، لتصبح عاملا مهما يدفع إلى عملية التنمية ، ولب هذه العملية المتكاملة الإنسان أو المواطن السعودي الذي كان دائما محور اهتمام صقر الجزيرة العربية الملك عبد العزيز ، ومن هنا يأتي دور الإعلام الإذاعي ليساهم في تعبئة الموارد البشرية ، وتعبئة الموارد البشرية تتطلب قدراً كبيراً من الاهتمام بما يعرفه المواطنون عن التنمية ، وما يرونه منها ، وبخاصة **لتشجيع المواقف الاجتماعية المؤيدة للتنمية وتزويدهم بالمعرفة والمعلومات التي تواكب عملية التنمية ، والمعرفة قوة ، كما أشرنا من قبل ويقال إن أنجح رجل في حياته هو ذلك الرجل الذي لديه أفضل المعلومات ، وعالم المعلومات لا يحده سوى ما لدى المرء من وسائل للوصول إلى هذه المعلومات**[٦٨] ، والإذاعة تُعَدُّ أسهل وأسرع الوسائل الإعلامية في نشر المعلومات ، محطمة كل قيود العزلة والمسافات ، لتنقل المجتمع التقليدي وتصبح بمثابة الجسر الذي يربطه بالمجتمع العصري المتقدم ، وتفوق قدرتها على تحريك النفوس بسرعة تفوق الدول وإمكاناتها ، وتزيد من تطلعات أفرادها لتساعد في خلق جو أو مناخ إعلامي من أجل الاستجابة لمستحدثات الحياة العصرية ، كما تشارك

في عملية بناء المجتمع وبناء الإنسان الأسرة ، والمدرسة ، وكل مؤسسات وخلايا المجتمع ، تساعد في رفع مستواهم ومهاراتهم ، وتبثُّ الأمل في نفوسهم فما يعرفه الناس وما يمكن أن يقوموا بفعله وموقفهم من التنمية الشاملة بصفة عامة ، تلك هي الأمور التي لابد للناس أن تتغير فيها قبل أن يدب التغيير في كافة أرجاء الدولة(٦٩) ، وبالتالي تساهم الإذاعة في الانتقال من الحياة التقليدية إلى الحياة العصرية التي تتزايد فيها مساهمات الأفراد ، وتصبح إحدى **القنوات المهمة التي تدخل من خلالها الأفكار والمعلومات والموضوعات الجديدة** ، **لتوظف كل الجهود من أجل الصالح العالم** ، ولتحقق **حاجات المجتمع وأهدافه** ، **وبالتالي تؤدي دورها الرئيسي** في توفير المناخ المؤيد لكل مظاهر التقدم والتطور والتنمية ، وهذا ما أكدته العديد من الدراسات والبحوث التطبيقية في كثير من دول العالم الثالث والمتقدم ، ولم يعد ينظر اليوم إلى التنمية على أنها التنمية الاقتصادية أو الاجتماعية .. الخ ، وذلك بعدما ثبت أن غالبية المشكلات الاقتصادية تكمن في داخلها مشكلات إنسانية واجتماعية ، وبدأ الفكر العالمي المعاصر يأخذ بمفهوم التنمية الشاملة على اعتبار أنها عملية مستمرة وشاملة ومتكاملة في مختلف القطاعات والأنشطة ، وبالتالي كان اهتمامها بالإنسان لأن المهم حقا هو تنمية الإنسان ، وتوفير احتياجاته ، وجعل الإنسان أكثر إنسانية بتوفيرحاجاته المادية والأدبية في وقت معا ، **ولهذا كان المواطن السعودي محور اهتمام صقر الجزيرة** ، **فالإنسان هو اللبنة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع ، هو فكرها المخطط ، وفي نفس الوقت قوتها المنفذة وكلما صلح هذا الإنسان ، واستقام بناؤه ، واكتملت قيمه ، صلح المجتمع ، والعكس صحيح ، ومن هنا يأتي دور الإذاعة لتعبئة الموارد البشرية ، والتي تتطلب قدراً كبيراً من الاهتمام بما يعرفه الإنسان من معلومات ومعارف تواكب عمليات التنمية** ، فالأموال بغير بشر قادر أوراق مكدسة في خزائن الدولة ، وأحدث الآلات تظل أجساداً هامدة بغير يد الإنسان الماهرة ، وأخصب الأراضي تظل بوراً ما لم يمسها عمل الإنسان ، فما لم تَنْمُ روح الشعب وأفكاره وطاقاته ، فلن تستطيع تنمية أي شيءآخر ، فعماد التحليل الأخير لأهداف التنمية الطموحة هو الإنسان .

فالإنسان هو الخليفة المسؤول بين جميع خلق الله ، وهو أكرم الخلق ومكانه في القرآن الكريم أشرف مكان . يقول رب العباد ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾(٧٠) *كذلك قوله تعالى* ***﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾(٧١) ، فمكان الإنسان أشرف مكان*** ، *سواء* ***في ميزان العقيدة ، أم في ميزان الفكر ، أم في ميزان الخليقة***

الذي توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات ، وفي ميزان التنمية هو محورها الأساسي . يقول الله تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ صدق الله العظيم . ويذهب الباحثون والخبراء والمختصون إلى أن جزءًا من العصرية يشمل تقديم أفكار جديدة ومعلومات عن العالم والعلاقات الإنسانية ، وهذا ما نجحت فيه إذاعة المملكة العربية السعودية تمهيداً لمراحل التنمية اللاحقة .

●●●

هوامش البحث

(*) وفيه يتم نقل المعلومات من الفم إلى الأذن داخل الجماعات ، ويعرف بالاتصال المباشر الذي يعتمد على علاقة الوجه للوجه بعكس النظام القائم على وسائل الإعلام حيث نجد القائمين عليها محترفين يمتازون بالمهارة في إنتاج الرسائل الإعلامية التي يتم نقلها عن طريق وسائل الاتصال غير الشخصية ومنها الإذاعة التي تخاطب جماهير مختلفة ومتنوعة إلى حد كبير وهي موضع دراستنا .

(١) د. جيهان رشتي ، نظم الاتصال ، الإعلام في الدول النامية ، الجزء الأول ، دار الفكر العربي ، ص ٤٥ .

(٢) E. C. Eyre, Med, ACTS, Effective Communication, Made Simple Books. London, Heinemann, 1983, P. I.

(٣) Schramm W. The Process and Effects of Mass Communication, Urbana University of Illinois Press, 1971, P. 3

(٤) د. زيدان عبد الباقي ، وسائل وأساليب الاتصال في المجالات الاجتماعية والتربوية والإدارية والإعلام ، ١٩٧٤ ، ص ٩ .

(٥) د. شاهيناز طلعت ، دور وسائل الإعلام في التنمية الاجتماعية ، دراسة تطبيقية ، (دكتوراه) ، غير منشورة ، كلية الإعلام جامعة القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ١٤ .

(٦) وليام ريفرز وآخرون ، وسائل الإعلام والمجتمع الحديث (مترجم) ، القاهرة ، دار المعرفة ص ٤٩ .

(٧) د. إبراهيم إمام ، الإعلام الإذاعي والتلفزيوني (بدون تاريخ) ، دار الفكر العربي ، ص ١١٩ .

(٨) Berlo, David The Process of Communication, San Francisco Rinehart Press, 1960, PP.

(٩) راجع بدر أحمد كريم ، نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي (٩٢) ، الكتاب العربي السعودي ، الطبعة الأولى ، جدة ، تهامة ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢ م ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(١٠) د. سعد مغربي ، ماذا نقصد بالثقافة ، وماذا نريد منها ؟ مقالة بمناسبة الاستعداد للمؤتمر العام للثقافة (غير منشورة) .

(١١) فاطمة عبد المقصود النجار ، أثر الصحافة السعودية في الحركة الأدبية حتى عام ١٣٨٣ هـ ، الموافق ١٩٦٣ م ، (دكتوراه) ، كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م ص ٦٩ .

(١٢) سعد لبيب ، دراسات في الفنون الإذاعية ، بغداد ، وزارة الإعلام ، مطبعة الأديب البغدادية ، ص ٦٧ .

(١٣) د. جيهان رشتي ، الأسس العلمية لنظريات الإعلام ، القاهرة ، دار الفكر ، ١٩٧٥ ، ص ٣٤٣ .

(١٤) د. إبراهيم إمام ، دور الاتصال في تغيير الاتجاهات نحو تنظيم الأسرة ، محاضرات بمعهد التدريب الإذاعي (استنسل) ، ص ٣٧ .

(١٥) ★ هاشم عبده هاشم الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية ، الكتاب الجامعي ، الطبعة الأولى ، تهامة ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م ، ص ٢٧ ـ ٣٢ .
★ د. عبد الله الحامد ، « الصحافة والأدب في المملكة العربية السعودية خلال نصف قرن ١٣٥٠ ـ ١٤٠٠ هـ » ، مجلة الفيصل العدد ٩٦ جمادى الآخرة ١٤٠٧ ص ٦٧ .
★ خالد أحمد اليوسف ، الصحافة السعودية ، تاريخها ، وتطورها ، ملحق المجلة العربية ، العدد ١٠١ جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ ، ص ٦٧ ، مارس ١٩٨٩ م ، ص ٩ .
(١٦) د. إبراهيم إمام ، دور الاتصال في تغيير الاتجاهات نحو تنظيم الأسرة ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .
(١٧) L. Doob. Goehbels, Principles of Propaganda, P.O.Q., X IV (1960).
(١٨) بدر أحمد كريم ، مرجع سابق ، ص ٦٨ ـ ٧١ .
(١٩) اقرأ في هذا الصدد د. إبراهيم الداقوقي ، نظرة في إعلام العالم الثالث من خلال الأنظمة الإذاعية في الدول النامية ، بغداد ، مركز التوثيق الإعلامي لدول الخليج ، ص ١٣ .
(٢٠) بدر كريم ، مرجع سابق ص ٥٤ .
(٢١) فاطمة عبد المقصود النجار ، مرجع سابق ، ص ٦٩ .
(٢٢) د. محمد معوض ، الأسس العامة لإعلام الطفل ، الفن الإذاعي ، تصدر عن اتحاد الإذاعة والتلفزيون ، العدد ١٠٩ أبريل ١٩٨٩ ص ٢٢ .
(٢٣) أحمد طاهر ، المنوعات الإذاعية ، الفن الإذاعي ، العدد ١٠١ ، (عدد خاص) أبريل ١٩٨٤ ، ص ٩١ .
(٢٤) يوسف مرزوق ، المدخل إلى حرفية الفن الإذاعي ، القاهرة ، الانجلو (١٩٧٥ م) ص ٧٧ ـ ٧٨ .
(٢٥) د. ماجي الحلواني ، الإذاعات العربية ، القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٨٢ ، ص ١٢١ .
(٢٦) على عيسى ، كتابة التمثيلية الإذاعية ، الفن الإذاعي ، العدد ١٠١ ، ص ٢١٠ ـ ٢١١ .
(٢٧) وزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية ، وكالة الأنباء السعودية ص ٥ .
(٢٨) بدر كريم ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .
(٢٩) M. Dolukhanov. Propagation of Radio Waves, Moscow, Mir publisher, Revised from the Russian edition, 1965, P. 351 – 360.
(٣٠) د. سهير بركات ، الإذاعة الدولية ، دراسة مقارنة لنظمها وفلسفاتها ، الكويت ، مؤسسة علي جراح الصباحي ١٩٧٨ ، ص ١٩ .
(٣١) د. جيهان رشتي ، الإعلام الدولي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٨٩ ، ص ٣٠ .
(٣٢) وزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية ، السياسة الإعلامية في المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ص ١٦ .
(٣٣) د. علي عبد الحليم ، عالمية الدعوة الإسلامية ، جدة ، دار عكاظ للطباعة والنشر ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ، ص ٥٩١ .
(٣٤) سورة الأحـزاب ، الآية ٣١ .
(٣٥) سورة الأنعـام ، الآية ١٩ .
(٣٦) سورة يوسف ، الآية ١٠٨ .
(٣٧) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

(٣٨) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ .
(٣٩) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧ .
(٤٠) سورة سبأ ، الآية ٢٨ .
(٤١) سورة التكوير ، الآية ٢٧ .
(٤٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .
(٤٣) سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ .
(٤٤) د. علي عبد الحليم ، مرجع سابق ، ص ١٦٥ .
(٤٥) سورة النحل ، الآية ٨٩ .
(٤٦) سورة الأنعام ، الآية ٣٨ .
(٤٧) راجع د. محمد معوض ، الإذاعات الإسلامية وحمل لواء الدعوة ، مجلة الفن الإذاعي ، العدد ١٠٤ ، يناير ١٩٨٥ ، ص ٣٧ - ٣٨ .
ومحروس عبد الوهاب ، البرامج الدينية في الإذاعات الموجهة ، مجلة الفن الإذاعي ، نفس العدد السابق ذكره ، ص ٩ .
(٤٨) مكتب التربية العربي لدول الخليج ، وقائع تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها الجزء الأول ، المادة اللغوية ، الرياض ، مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، ص ٨ .
(٤٩) بدر أحمد كريم ، مرجع سابق ، ص ١٥٧ .
(٥٠) د. جيهان رشتي ، الإعلام الدولي بالراديو والتلفزيون ، القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٧٩ ، ص ٣ ، ٤ .
محمد فتحي ، عالم بلا حواجز في الإعلام الدولي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢ ، ص ١٢ .
(٥١) بدر كريم ، مرجع سابق ، ص ١٥٨ - ١٩٠ .
(٥٢) د. ماجي الحلواني ، الإذاعات الموجهة ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٢ - ١٩٨٣ ، ص١٥٢ .
بدر كريم ، مرجع سابق ، ص ١٩٨ .
(٥٣) كلمة سمو الأمير نايف عبد العزيز في تقديم السياسة الإسلامية للمملكة العربية السعودية الصادرة من وزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية .
(٥٤) سورة الإسراء ، الآية ٩ .
(٥٥) سورة الزمر ، الآية ٢٧ .
(٥٦) سورة الفرقان ، الآية ١ .
(٥٧) وزارة الإعلام ، السياسة الإعلامية في المملكة العربية السعودية ، ص ١٧ .
(٥٨) المرسوم الملكي رقم ٣٩٩٩/١٦/٣/٧ في بدر كريم ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .
(٥٩) وزارة الإعلام ، السياسة الإعلامية في المملكة العربية السعودية ، مرجع سابق ، ص ٢٠ .
(٦٠) د. فوزية فهيم ، التدريب في الإذاعات المحلية ، في ندوة الإذاعات المحلية والتنمية الشاملة ، القاهرة من ٦/٣٠ إلى ١٩٨٠/٧/٢ م ، بمقر جامعة الدول العربية ، ص ٥ .
(٦١) اتحاد إذاعات الدول العربية واتحاد الإذاعة والتلفزيون والهيئة العامة للاستعلامات توصيات ندوة الإذاعات المحلية والتنمية الشاملة ، ٦/٣٠ إلى ١٩٨٠/٧/٣ ، ص ٧ .
(٦٢) Schramm W. Mass Media and National development, the role of information in the

developing countries, California San Ford University press, 1964, P. 42.

(٦٣) روجرم . بسفليد ، فن الكاتب المسرحي ، للمسرح والإذاعة والتلفزيون والسينما ، ت. دريني خشبة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٨ م ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

(٦٤) د. عبد اللطيف حمزة ، الصحافة والمجتمع ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦٣ ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٦٥) وزارة الإعلام ، الإعلام الداخلي ، المملكة العربية السعودية ، معالم من الماضي والحاضر ، ص ٨ .

(٦٦) Lerner, D. The Passing of Traditional Society, Modernizing the Middle East, New York, Free Press, 1958 P. 54.

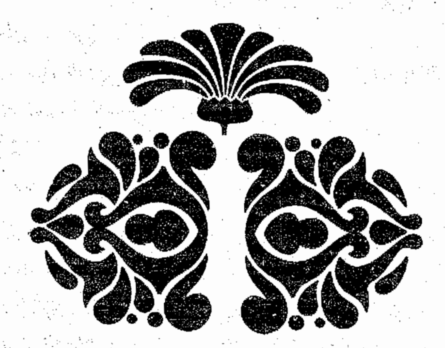
(٦٧) المركز الوطني للمعلومات الوطنية والاقتصادية ، عصر المعلومات وأثره على قضية التنمية ، ندوة الإعلام من أجل التنمية في الوطن العربي ، الرياض من ٢٤ ـ ٢٦ جمادى الأولى ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م ، ص ١٦ .

(٦٨) Schramm W. Mass Media and National Development, OP. Cit., PP. 26 – 27.

(٦٩) Op. Cit. P. 27.

(٧٠) سورة الإسـراء : الآية ٧٠ .

(٧١) سورة التين : الآية ٤ .



ملاحظات وآراء حول الأرشيف العثماني وأهميته في دراسة التاريخ العثماني

د. محمد مهدي إيلهان

لا شك أن موضوع الأرشيفات من الموضوعات المهمة التي ينبغي للدارسين الإلمام بها ومعرفة شيء عن نظمها وعما تحتويه من الوثائق. وهذا الموضوع ـ رغم ما يبدو عليه للوهلة الأولى ـ من كونه موضوعاً سهلاً يسيراً، فإنه في الواقع تكتنفه الصعوبات، وتحتاج دراسته إلى بحث عميق. وبالنظر لأهمية الأرشيفات العثمانية بالنسبة للباحثين في هذه المنطقة من العالم، فقد رأيت من واجبي أن أقدم لهؤلاء الباحثين نبذة من المعلومات عن بعض دور الوثائق العثمانية الموجودة في تركيا الحديثة.

لقد بدأ اهتمام العثمانيين بدور الوثائق عندما احترقت أجزاء من وثائق السراي (أي القصر السلطاني) في عام ١٧٥٤ م، مما أدى إلى نقل الوثائق إلى مخزن آخر يقع فيما يسمى «مهتر خانة».

هناك أربعة من دور الوثائق المشهورة في تركيا.

وفي الوقت نفسه هناك كثير من الوثائق التي وزعت على المتاحف والمكتبات في مختلف أنحاء تركيا. وأقدم فيما يأتي بعض المعلومات التي قد تهم القراء عن تلك الدور:

١ ـ أرشيف (باشبا قانلق) أو الصدارة العظمى

عندما أصبح قوجا رشيد باشا (١٨٠٠ ـ ١٨٥٨ م) صدراً أعظم (أي رئيساً للوزراء) في عام ١٨٤٦ م، بدأ يهتم بالأرشيفات، وقام بجهد كبير لتجميع الوثائق من الدوائر الحكومية المختلفة وإيداعها في مكان واحد. وقد عين محسن أفندي أمينا لوثائق الصدارة. ثم أسست وزارة خاصة سميت «وزارة الأرشيفات الدولية» وبعد مدة ألغيت الوزارة وحولت مسؤوليتها إلى «مديرية» تابعة إلى الصدارة العظمى.. وفي سنة ١٩٣٧ م رفعت الحكومة التركية مستوى هذه المديرية وصيرتها مديرية عامة وسمتها «المديرية العامة

للأرشيف » . وألحقت بها دوائر فرعية إحداها بعنوان مديرية التصنيف والفهارس ، والأخرى بعنوان « مديرية التخليص » ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن هناك معلومات تفيد بوجود بعض المؤرخين للسراي (أي القصر السلطاني) وأن هؤلاء المؤرخين قد كانوا يستعملون الوثائق في مؤلفاتهم ، مثل أسعد أفندي في كتابه « التشريفات القديمة » ولكن رغبة المؤرخين الآخرين في استعمال الوثائق كانت ضعيفة جداً . وهكذا بقيت أكثر الوثائق حبيسة في ملفاتها .

وفي عام ١٩٠٨ م أسست « الجمعية التاريخية العثمانية » التي تسمى (تاريخ عثماني انجومني) . وقد بدأت الجمعية بنشر مجلة تحت إشراف رئيسها الأستاذ عبد الرحمن شرف ، الذي كتب فيها مقالة وصف فيها الحالة الأليمة التي كانت عليها الوثائق العثمانية . وعلى أي حال فإن المسؤولين في هذه الجمعية قد بدأوا بتصنيف الوثائق ودعوا أحد الخبراء من المجر ، وهو كراجسون (Lmre Kracson) ، فوصل إلى استانبول وصار يساعدهم في وضع أصول التصنيف إلا أنه مات بعد مدة قصيرة من وصوله مما أدى إلى توقف عملية التصنيف .

ثم استؤنفت أعمال التصنيف وصنع الفهارس وكانت هذه المرة تحت إشراف الأستاذ علي أميري (١٨٥٧ - ١٩٢٤ م) وذلك في عام ١٩١٨ م وظلت مستمرة حتى عام ١٩٢١ م .

وخلال هذه المدة تم تصنيف ١٨٠,٣١٦ وثيقة حسب الترتيب الزمني ، وأُلِفَ فهرس لها بالحروف العربية .

وفي عام ١٩٢١ م بدأت مرحلة جديدة للتصنيف تحت إشراف ابن الأمين محمود كمال (١٨٧٥ - ١٩٥٧ م) .

وقد تناولت أعمال التصنيف والفهرسة في هذه المرحلة عدداً كبيراً من الوثائق بلغ عددها ٤٦,٤٦٧ وثيقة وتعود إلى فترة طويلة تمتد من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي (القرن التاسع - الثالث عشر الهجري) .

وبعد حرب الاستقلال التركية أهملت الوثائق الموجودة في أرشيف الصدارة العظمى ، بل تجرأ بعض الموظفين على بيع جزء من تلك الوثائق إلى بلغاريا ، ولا تزال تلك الوثائق موجودة في صوفيا عاصمة بلغاريا .

وحدثت هذه الجريمة في عام ١٩٣١ م . ويقال أن الأستاذ عبد الرحمن شرف قد حال دون الاستمرار بعقد مثل هذه الصفقة . ثم تغيرت الأحوال بعد هذه الحادثة الأليمة ، إذ أظهرت الحكومة التركية الجديدة اهتماما بالأمور الأرشيفية ، فقد أدركت أهمية الوثائق المحفوظة في الأرشيف ، وعينت بعض المتخصصين في شؤون الأرشيف على أن يبدأوا في التصنيف في سنة ١٩٣٢ م .

وقد قامت الهيئة المشكلة برئاسة الأستاذ معلم جودة (١٨٨٤ - ١٩٣٥ م) بتصنيف ١٨٤,٢٥٦ من الوثائق المحفوظة في أرشيف الصدارة العظمى ، مبوبة تحت ستة عشر موضوعاً ، وذلك نتيجة الجهود المبذولة خلال خمس سنوات .

وفي سنة ١٩٣٧ م دعت الحكومة

التركية الأستاذ لاجوس فكته (Lagos Fekete) من بودابست (Budapest) في المجر إلى استانبول. وقد بدأ « فكته » باتباع أسلوب جديد في التصنيف يسمى Provenance (أي الرجوع إلى المصدر الحقيقي) وقد اتبع في تصنيف الوثائق المحفوظة في أرشيف الصدارة العظمى حيث قسمت الوثائق إلى ثلاثة أقسام هي :

١ ـ وثائق الديوان الهمايوني .
٢ ـ وثائق الباب العالي (الآصفي) .
٣ ـ الوثائق المختلفة والمتنوعة .

إلا أن الموظفين في أرشيف الصدارة العظمى قد وزعوا ـ مع الأسف الشديد ـ الوثائق التي سجلت في فهرس « فكته » بين الوثائق الأخرى ، وبناء على ذلك فقد صار الباحثون لا يستطيعون أن يستعملوها . وجدير بالذكر أن أقدم وثيقة مسجلة في هذا الفهرس ، هي وقفية لقطعة الأرض التي أعطاها بير حسن إلى شيخ سنان وأولاده وتقع في قره حصار الشرقي التي كانت تحت حكم حسن الطويل في تلك الأيام ، وكان ذلك في عام ٧١٦هـ/١٣١٧ م وهذا التاريخ مدون على تلك الوثيقة .

بعد « فتكه » قام الموظفون في أرشيف الصدارة العظمى بأعمال التصنيف والفهرسة تحت رئاسة الأستاذ كامل كبجي (Kamil Kepeci) وهذه الفهرسة تشمل الوثائق التي تتعلق بالدوائر المالية (Maliye Kalemleri) .

وبالرغم من كل تلك الجهود فإن ما تمت فهرسته وتصنيفه من الوثائق هو عدد قليل بالنسبة للوثائق الموجودة ، إذ يقول أهل الاختصاص إن هناك أكثر من مئة مليون وثيقة تقريبا في أرشيف الصدارة العظمى ، وتلك الوثائق تتعلق بأكثر من ثلاثين قطراً ، وأن حوالي خمسة عشر في المائة منها فقط قد صُنفت حتى الآن . ولكن عملية التصنيف والفهرسة في هذا الأرشيف لا تزال جارية وسوف تستمر لسنوات طويلة .

إن أنواع الدفاتر والوثائق الموجودة في هذا الأرشيف كثيرة جداً ، ويمكن لمن يريد من الباحثين أن يؤلف كتاباً قيماً كمقدمة لكل واحد من تلك الأنواع . وإنني سوف أورد نبذة موجزة فيما بعد ـ إن شاء الله ـ عن الدفاتر المسماة (دفاتر طابو تحرير) ، و (الدفاتر المهمات) ، و (الدفاتر الوقفية) .

٢ ـ أرشيف دار الوثائق في « طوبقابو سراي »

من حسن الحظ أن الوثائق العثمانية المخزونة في هذه الدار كانت قد حفظت حفظا جيداً حتى عام ١٩١٤ م . ولكن بسبب التعميرات والتصليحات التي تمت في القصر السلطاني فقد أهملت تلك الوثائق وتركت في مخزن . وفي عام ١٩٣٥ م أبدى السيد خليل أدهم ، المدير العام للمتاحف والمكتبات في استانبول اهتماما بتلك الوثائق ، حيث نقلها إلى مكان في مكتبة القصر السلطاني ، وبعد مدة تم نقلها إلى جناح الطباخين في ذلك القصر . وهناك بدأت عملية التصنيف لتلك الوثائق بالاعتماد على أصول Provenance التي وضعها « لاجوس فكته » وتبعاً لهذه الأصول ، ألف السيد تحسين أوز (Tahsin Oz) فهرسا في مجلدين

نشر الأول منهما في عام ١٩٣٨م ونشر الثاني في عام ١٩٤٠ م . ولكن أهمية هذا الفهرس قد زالت بسبب التغيير الذي حصل في أصول التصنيف والفهرسة في هذا الأرشيف .

ومع ذلك فإننا إذا ما تصفحنا هذا الفهرس سنجد أن هناك كثيراً من أنواع الوثائق مثل الأحكام وبراءات التملك (تملكنامة) والمخابرات السرية تتعلق بالبلدان العربية وهي تعود إلى الفترة الواقعة بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر الميلاديين (القرن العاشر ـ الثالث عشر الهجري) . وهناك أيضا يوجد في هذا الأرشيف المراسلات التي تمت بين السلطان العثماني والأمراء العرب ، من بين تلك الوثائق .

٣ ـ « أرشيف القيود القديمة » في أنقرة المسمى (طابوقا دواسترو عموم مدير لكى)

هناك كثير من دفاتر التحرير ، « روز نامجة » والمستحفظات وبعض الوثائق الأخرى المتوفرة في هذا الأرشيف . ويمكننا أن نجد في هذا الأرشيف أيضا بعض الدفاتر التي ليست موجودة في دار وثائق الصدارة العظمى في استانبول . ولكن من المؤسف أننا لا نجد هناك كثيراً من الباحثين قد استفادوا من هذا الأرشيف أو دخلوه ، بسبب عدم توفر أجهزة التصوير وإعداد الميكروفيلم فيه .

وعلى أي حال فهناك فهرس لهذا الأرشيف مكتوب بالحروف العربية ، ولكن المعلومات الواردة فيه محدودة جداً .

٤ ـ أرشيف دار الوثائق الوقفية التابع لمديرية الأوقاف العامة في أنقره

تم جمع دفاتر الوقف والوقفيات والوثائق التي تتعلق بالوقف الموجودة في مختلف الدوائر الحكومية ، وحُوّلت إلى وزارة الأوقاف بعد تأسيسها في عام ١٨٢٦ م في استانبول . وعندما أسست المديرية العامة للأوقاف في أنقره في عام ١٩٣٦ م . حُوّلت إليها كل تلك الدفاتر والوثائق ، وهي الآن في أنقرة .

وترجع الدفاتر الوقفية الموجودة في هذا الأرشيف إلى فترة تمتد من عام ٤١٠ هـ/١٠١٩ م إلى عصرنا الحاضر ، ويوجد هناك ٢,٠٠٠ من الدفاتر الوقفية و ٢٧,٠٠٠ وقفية ، وأكثر من ٢٠٠,٠٠٠ من الوثائق الأخرى .

وهناك عدد غير قليل من الوقفيات المدونة باللغة العربية يبلغ عددها ٢,٠٠٠ على الأقل . هذا وهناك عدد من الموظفين في هذا الأرشيف ينقلون جميع تلك الوثائق والدفاتر من الحروف العربية إلى الحروف التركية الحديثة (أي الحروف اللاتينية) ، كما يترجمون الوثائق المكتوبة باللغة العربية إلى اللغة التركية . وقد تمكن هؤلاء الموظفون حتى الآن أن ينقلوا ويترجموا (١٠,٣٥٣) من الوثائق ، وقد قاموا بالتصنيف والفهرسة لـ (١٧,٩٠٢) من الوقفيات ، وصوروا (١,١٣٩) من الدفاتر على الميكروفيلم .

وأقدم وثيقة موجودة في هذا الأرشيف هي وقفية لزاوية أسسها طغرل بك السلجوقي ـ حكم من عام ٤٢٩ هـ إلى عام ٤٥٥ هـ (١٠٣٨ ـ ١٠٦٤ م) ـ لشخص اسمه سيد شريف خليل ديواني في ناحية ياسين ، وهذه الوقفية مؤرخة أواسط رجب ٤٤٠ هـ/٢٤

ديسمبر (كانون الأول) ١٠٤٨ م .

هذا ويمكننا أن نجد في هذا الأرشيف كثيراً من الوقفيات التي تتعلق بالحرمين الشريفين وغيرهما من المؤسسات الدينية والخيرية في مختلف الأقطار التي كانت تابعة للدولة العثمانية .

وهناك نوع آخر من الوثائق الأرشيفية تسمى سجلات القاضي الموجودة في عدد من المتاحف والمكتبات عبر البلاد التركية والبلاد العربية والبلقانية فإنها تحتل مكانا خاصا وتستحق عناية خاصة . أما أشهر السجلات في تركيا فتوجد في بورصة وفي متحف أنقرة الاثنوغرافي .

يوجد عدد كبير من الباحثين الذين اهتموا بكل أنواع الوثائق الموجودة في هذه المحفوظات ، وهم يؤدون عملا جيداً . ويمكن القول فيما يخص دراسة التاريخ العثماني ، بأن هؤلاء الباحثين قد بدأوا حقبة جديدة في كل حقل من حقول دراسات العثمانية .

والمواد المتوفرة في هذه الأرشيفات لا يستعملها المؤرخون فحسب ، بل والجغرافيون وعلماء السكان ، والمختصون بالخطوط وعلماء الآثار ، وعلماء الانثروبولوجيا الاجتماعية والاقتصاديون واللغويون أيضاً . وأحياناً نعثر على وثيقة واحدة يمكن أن تكون موضوع اهتمام هؤلاء جميعاً . وإذا اعتقدنا بأن كل هذه المواضيع حيوية للمؤرخين ، فإن إيماننا يزداد قوة عندما نؤمن بأهمية هذه الوثائق للمؤرخ .

ويقدر – كما ذكرت آنفاً – بأن هناك ما يزيد على مليون وثيقة في أرشيف الصدارة العظمى (باشبا قانلق) تَمَّ فقط تصنيف ١٠ بالمئة منها حتى الآن . ويوجد في أرشيف دار الوثائق الوقفية ٢٣٧,٤٩٦ وثيقة ، ٢٦,٧٩٨ منها هي حجج وقف وملحقاتها ، أما وثائق محفوظات القيود القديمة في أنقرة فإنها كما لاحظت تشبه مكتبة تملأ رفوفها الجدران .

ولكن ليس من الممكن إعطاء حتى معدل وسطى للوثائق الخاصة بالمناطق العربية في هذه الأرشيفات .

وعلى كل يمكن للمرء أن يقول بأن الوثائق الخاصة بالمناطق العربية ليست أقل من الوثائق الخاصة بالمناطق التي تقع ضمن حدود تركيا الحديثة .

ولا يمكن لأحد أن ينكر قيمة هذه الوثائق لدراسة تاريخ البلاد العربية ، وهنالك مثالان يمكن أن يوضحان هذه الحقيقة . فسجلات الكاداسترو (طابو تحرير دفتري) في محفوظات (قيودي قديمة) والصدارة العظمى ، تخص على الأقل عشرين مقاطعة عربية .

وهذه الإحصاءات الكادستروية التي نفذت غالبا في القرن السادس عشر (العاشر الهجري) هي المصادر الوحيدة الموثوق بها من أجل معرفة التأريخ السكاني لهذه المقاطعات في القرن السادس عشر ، إضافة إلى الحقيقة ، إن قيمتها لا يمكن إنكارها من قبل المؤرخين ، أو من قبل الباحثين في اختصاصات تتصل بالتاريخ .

إن « القانوننامة » (القوانين) في طليعة هذه الدفاتر هي مصدر آخر لدراسة تاريخ العثمانيين السابق . وعلى سبيل المثال فإن « قانوننامة » في دفتر طرابلس الشام تلمح إلى

قانوننامة قايتباي ، وقانوننامة داقوق في العراق تلمح إلى قانوننامة ازون حسن (حسن الطويل الاقفويونلي) ودفتر داقوق نفسه يلمح أحيانا إلى قانوننامة قره أولوس (أي قره قويونلي الدولة التي حكمت العراق في القرون الوسطى) بينما قانوننامة القطيف نفسها تذكر بأنه لم يسبقها في الوجود أي قانوننامة أخرى (غير الشريعة الإسلامية طبعاً) .

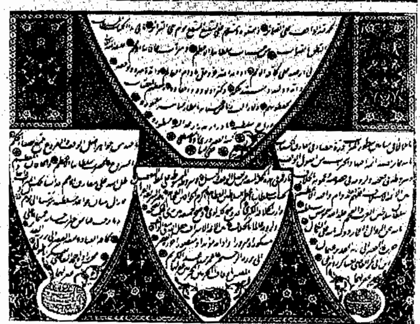
أود أن أقدم مثالاً من نمط آخر من الدفاتر وهي دفاتر المهمات (أي دفاتر الشؤون العامة) . فقد حدثت عدة ثورات قبلية في مقاطعة البصرة في عام ١٥٦٠ م .

ويعطي عباس العزاوي في كتابه « تاريخ العراق بين احتلالين » معلومات حول هذا الموضوع في بضع صفحات ولا يذهب بعيدا في وصف الثورة والقتال ، وبالمقابل فقد جمعت أكثر من مئة وثيقة ، فيها معلومات مفصلة عنها . وفي نظري أن هذه الوثائق هي العمود الفقري لأي كتاب يكتب في موضوع الثورة في مقاطعة البصرة .

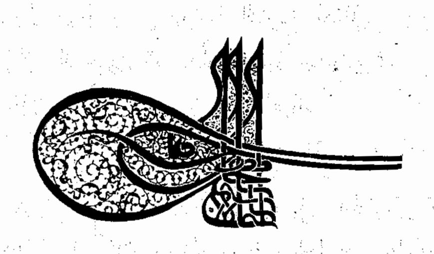
ويتضح مما تقدم مدى أهمية دور الوثائق العثمانية بالنسبة للباحثين المتخصصين في التاريخ الحديث ، ولاسيما من أبناء البلاد العربية التي كانت جزءً من الدولة العثمانية .

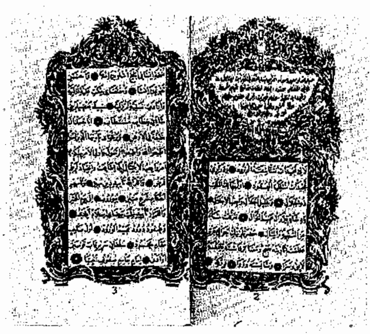
وإنني لأرجو أن أكون بمقالي الموجز هذا قد لفتُّ أنظار الباحثين إلى تلك الأرشيفات التي تعد منجما غنيا بالوثائق التي تصلح أساساً لدراسات لا تنتهي ، والله من وراء القصـد .





وقفية مصطفى الثالث
(حكمه ١٧٥٧ - ١٧٧٤م)





وقفية محمود الثاني
(حكمه ١٨٠٨ - ١٨٣٩م)

حلقة الوصل
بين الألسنية الحديثة والنحو العربي

د. خليل عمايرة

.... وحدّ اللغة مجموعة من الأصوات التي تآلفت تآلفا اعتباطياً عشوائياً ،[1] فكونت مجموعة من المباني الصرفية التي أصبحت الدّوال لمدلولات تستدعيها ، وتقتضي صورتها اقتضاءً اجتماعياً عرفياً ، بعد أن كانت مع مدلولها ، كسابقتها ، في علاقة اعتباطية عشوائية ، فالكلمات : رجل وفرس وحائط (وهي أمثلة تعريف الاسم عند سيبويه)[2] تستدعي كلّ واحدة منها صورة معينة طبقا لموروث دلالي اجتماعي ، أخذ بُعدا عرفيا قسريا ، يُعاقَبُ من يخرج عليه ، بالإعراض عنه وعدم إجابته ، أو بنقده ومهاجمته ، ثم تستخدم المباني الصرفية في تراكيب لغوية ، يؤدي كلّ تركيب معنى معينا ، يحمل في مجمله فكرة المتكلم عن العلاقة الذهنية بين صور جزئيات التركيب ، أو يطلب من السامع توضيحا لهذه العلاقة ، أو يكلفه مشاركة القيام بها أو بشيء منها .

تنتظم المباني الصرفية في التركيب اللغوي في لغةٍ ما ، طبقا لكيفية اجتماعية ذات قواعد وقوانين ، وصفية في بدايتها ، معيارية في نهايتها ، عشوائية في نشأتها على ألسنة المتحدثين بتلك اللغة ، مرنة الاستعمال في توالي العصور ، متأثرة بما يكون في المجموعة التي تتحدث بها من عوامل التأثير ، تراكيبها قابلة للزيادة أو الحذف ، أو إعادة ترتيب مبانيها ، ليتمكن المتكلم من نقل إحساسه الحقيقي بالعلاقة الذهنية بين الصور التي يتألف منها التركيب (بكلمات منطوقة أو مكتوبة) فتجسّد العلاقة الذهنية وتكون دليلا يقود إليها ، أي إلى ما يسمى بالمعنى الدلالي .[3]

على الرغم من أن مصطلح « المعنى الدلالي » من أكثر المصطلحات غموضا واتساعا في الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية ، مع كثرة استعماله كثرة تكاد تزيد على استعمال أي مصطلح آخر فيها ، إلا أننا سنحاول هنا أن نجعله المحور الرئيسي لحديثنا عن بؤرة محاولات المدارس اللغوية المعاصرة في تحليل النصوص ، ونجعله كذلك في حديثنا عن المنهج الذي سار عليه نحاة العربية القدماء ، ونجعل له كذلك الموقع نفسه في محاولة الربط بين ما توصل إليه السّلف الصالح من نحاة العربية ومعطيات الدراسات اللغوية الحديثة .

إن الحديث عن المعنى الدلالي ليس بالأمر اليسير ، وإن حصر المدارس التي تحدثت عنه واختطت كلّ لنفسها منهجها الذي ترتضيه وتباهي غيرها به ، بل تعلن بأنه الأكمل في تحليل المنظومة اللغوية في النصوص ، والوصول إلى المعنى الدلالي ، إن حصر هذه المدارس والحديث عن مناهجها يحتاج إلى جهود مجموعات من الباحثين ، فضلاً على أن نتحدث عنه في مقالة قصيرة ، ولكنّنا سنعمل على عرض سريع لأهم ما جاءت به أهمّ هذه المدارس ، لنرى أين تقع دراساتنا اللغوية في هذه السّلسلة المتصلة من المعرفة الإنسانية التي أخذت المخترعات الحديثة ، وما توصل إليه الإنسان من وسائل الاتصال تلّح ، بل تحتّم الاطلاع لأخذ السمين وترك الغث .

يرى كثير من الباحثين المعاصرين أن رأس الدَّرْس اللغوي المعاصر في الغرب ، هو العالم السويسري ، دي سوسير (١٨٥٧ - ١٩١٣) بعد أن نشر طلابُه كتابَه « محاضرات في علم اللغة العام » بعد وفاته بثلاث سنوات ، فترك هذا العالم بما جاء في كتابه من أفكار ، أثره في العلماء الذين جاءوا بعده إلى يومنا هذا ، يوجه كلّ منهم عبارة سوسير زاعماً أنه أدق من غيره ، وأقرب إلى فهم كنه ما أراده الرائد . ولعلّ من المفيد أن نكتفي من اللغويين الذين تأثروا بدي سوسير بأصحاب المدارس التي بحثت في المعنى مكونة مدارس نحوية لغوية ، أو كانت معالم المدرسة النحوية ماثلة في ما يذهبون إليه . ونرى أنّ من المفيد حقا أن نذكر عددا من أهم النقاط التي جاءت في محاضرات سوسير مما بنى عليه العلماء من بعده .

فرّق سوسير بين الكلام واللغة ،[٤٠] فاللغة هي مخزون جمعي من اتفاقات التواصل الضرورية لأفراد أمة معينة ، مخزون كامل في أذهانهم بالقوة ، يستعمله الفرد الواحد في ما يسمى بالكلام استخداما ناقصا ، يعبّر به عمّا في ذهنه طبقا لملكته وقدرته على



استخدام هذه الملكة سيكولوجيا وفيزيولوجيا ، ولعل ممّا يتصل بهذه النقطة بسبب ، أن سوسير يرى ـ كما يرى غيره ـ أن اللغة المنطوقة هي الأصل ، جاءت المكتوبة لتجسده ، رموزا له ، فنشأ بذلك بند آخر من بنود أفكار سوسير ، وهو العلاقة بين الدّال والمدلول ،(٥) المدلول الذي هو التصور الذهني والدّال الذي هو الصورة السمعية التي قد تأتي مكتوبة في هيكل لا يزيد على كونه رمزاً مجسداً للصورة الصوتية السمعية ، والارتباط بين الدّال والمدلول ارتباط ذهني سيكولوجي اتحدت أصواته (كما يرى عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز)(٦) اتحادا عشوائيا اعتباطيا ، ثمّ ارتبط بمدلوله بالرابطة نفسها ، حتى إننا لنقول : بأنّ القائل الأول لكلمة (ضرب) لو كان قد قالها (ربض) لما كان في ذلك ضير أو فساد ،(٧) ولكنها بعد أن تتحد بمدلولها تأخذ بُعدا اجتماعيا قسريا ، ليس من اليسير أنْ يتغير .

ومن أبرز النقاط التي قال بها سوسير أيضا فكرة العمل الأفقي والعمودي للنظام اللغوي في الجملة(٨) ، ويعتمد على العمل الأفقي في إبراز الترابط بين مركبات الجملة من فعل وفاعل ومفعول ، أو من مبتدأ وخبر في نسق يتسق مع ما عليه قواعد اللغة ، موضوع الدرس .

ويعتمد على العمل العمودي في الكشف عن المعنى بإبراز العناصر التي يمكن أنّ يتم تبادلها مع كلّ كلمة من كلمات الجملة تبادلا عموديا ، فيعمل الاثنان (الأفقي والعمودي) معا لمساعدة المتكلم في الوصول إلى ما يريد ، والسامع لفهم ما يسمع في علاقات استبدالية أو تركيبية .

ولدراسة اللغة في ما يظهر بوضوح عند سوسير منهجان :(٩) أحدهما وهو المسمى التزامني Synchronic تتم به دراسة اللغة دراسة وصفية : ما هي عليه ، أو ما كانت عليه في فترة محددة من تاريخها ، استنادا إلى الملاحظات التي تتم على البنية أو المنظومة اللغوية في تلك الفترة المحددة . والثاني : وهو المنهج المسمى التزمني Diachronic ، فتتم به دراسة اللغة من حيث تطورها دراسة مقارنة : لهجة بلهجة ، أو لغة بلغة ، ولغة أو لهجة في فترة معينة ، معها أو في فترة سابقة عليها أو لاحقة بها . وقد أصبح المنهج الأول (التزامني) هو المنهج الذي يرتضيه أصحاب المدرسة البنيوية ، في حين أخذ أصحاب المدرسة التاريخية بالمنهج الثاني .

ذكرنا سابقا بأننا سنكتفي بعرض سريع لأهم المدارس اللغوية ذات الأثر في

الدرس النحوي ، فنعرض بإيجاز رأي أصحاب النحو البنيوي ، ثم رأي أصحاب النظرية التوليدية التحويلية .

المنهج البنيـوي :

ليس من اليسير حصر المصطلح « البنيوية » والحديث عنها من خلال رجل واحد أو مدرسة واحدة ، ولكن من اليسير أن نقول بأنّ البنيوية قامت كرّدة فعل للمناهج القديمة ، وتعدّ ثورة على التمسك بها تمسكا لا يميز الجيد والرديء ، فظهرت هذه الثورة بعد بلومفيد في المدرستين التاليتين : التوزيعية والوظيفية (وهناك عدد من المدارس ولكنني آثرت أن أكتفي بهاتين المدرستين) .

أ ـ التوزيعيـة :

على الرغم من أن التوزيعية منذ زمن بلومفيد إلى زمن هاريس قد ظهر فيها عدد من العلماء البارزين ، مثل : بلوك B. Bloch وهوكيت Hockett وتراغر G. Trager وغيرهم ، إلاّ أن الفضل في ظهورها مذهباً ألسنياً له معالمه ، يرجع إلى العالم الأمريكي الروسي الأصل ، زيلغ هاريس (١٩٠٩ ـ   ) الذي يعدّ بكتابه « مناهج في الألسنية البنائية ١٩٥١) واضع هذه النظرية مع أنّه كان في كتابه هذا يطبق شيئا من أفكار بلومفيد بمنهج خاص وطريقة رياضية عسيرة التتبع ، معتمدا على أفكار الرائد الأول دي سوسير في تطبيقه ، فيعتمد في نظريته اللغة وليس الكلام ميداناً للدراسة ، فيدرسها دراسة تزامنية ، وليست تزمنية ، وهذه من أبرز ما أشار إليه سوسير ، ثم يقوم بتقسيم النص إلى مكوناته الصرفية الرئيسة (المورفيمات) ، ليصل إلى تحديد العلاقات الداخلية بينها ، أي إلى العلاقات الداخلية بين المباني التي قامت ببناء النّص أو المنظومة اللغوية لتحديد توزيع العناصر المكوّنة لها في سياق التشكل النصي كاملا ، وهذه العناصر تنساق في تراكيبها انسياقا قسريا يخضع لعدد من القوانين Restrictions التي تتمّ في ضوئها عملية التصنيف النّحوي في أبواب[١٠] وهذا يذكرنا بعمل النحاة العرب القدماء تماماً في إلحاق كلّ مكّون صرفي في الجملة بباب نحوي ، مثل باب كان وأخواتها ، وإن وأخواتها ، والأدوات العاملة عمل ليس .... الخ .

إنّ تحليل النّص فيما يراه أصحاب هذه المدرسة إلى ما فيه من مستويات تركيبية : صوتي وصرفي وتركيبي جملي ، يقتضي بأن ينظر إليها من حيث نهاية ما وصلت إليه ، أي إلى التركيبي الدلالي ، ليصل المحلّل في النهاية إلى القول بأنّ التركيب (س) ، بتوزيع

مبانيه ، يساوي أو لا يساوي التركيب (ص) . وقد دفع هذا الأمر إلى النظر في مكونات الجملة ، فهي عندهم محدِّد واسم ، ترتبط المحددات بالأسماء في التركيب لتحديد فئتها أو مكانها أو زمانها أو صفاتها ... الخ ، ويقوم بهذا الترابط عدد من الحروف والأدوات ، أو ما يسدّ مسدها ، وربما كان المنهج في التحليل اللغوي يبدو بشكل بارز في فرع من فروع التوزيعية وليس فيها كلّها فقد برز في ما يسمى بمنهج « المكونات المباشرة » Immediat Consttuants[11] .

يقوم المحلّل في المنهج التوزيعي بردّ النص الذي يجمعه عينة من عدد من المتكلمين المتجانسين في فترة محددة زماناً ومكاناً ـ برده إلى مستوياته الصوتية والصرفية والتركيبية ، فيجمع **المتبادلات** المتماثلة شكلا من غير اهتمام كبير بالمعنى ، في مكان واحد ، ثم يقوم بتصنيف القواعد التي تحكم التوزيع الشكلي في الصوت والصرف والتركيب ،[12] وهذا يذكرنا بمنهج نحاة العربية في تصنيف أبواب النحو في ضوء نظرية العامل : إلى مرفوعات ومنصوبات ومجرورات ومجزومات وتوابع ،[13] وإنّ نظرة سريعة إلى باب كان وأخواتها ، أو إنّ وأخواتها ، أو أفعال المقاربة ، أو الحروف العاملة عمل ليس أو عمل إنّ ، أو حروف الجر ، ستبين أنّ النحاة العرب القدماء قد اعتمدوا الشكل في المتبادلات المتماثلة تأثيراً ليجمعوها في باب واحد لا مسوّغ لجمع جزئياته لو استُثْنِيَ هذا العنصرُ .

ب ـ الوظيفيّــة :

ربما كان العالم الدنماركي هلمسليف ـ صاحب النظرية الكلوسيماتيكية Glossematic ـ وهي النظرية الخاصة بالوظيفة الإيجابية للكلام أول من أبرز مفهوم الوظيفة والوظيفية ، إحياء لما جاء في محاضرات دي سوسير ، ولكّن الذي تصدّر لها وجعلها نظرية ذات معالم في التحليل اللغوي هو العالم الفرنسي مارتينيه .[14]

تتكون الجملة موضوع التحليل ، أو العيّنة اللغوية من مجموعة من المكونات الصغرى ، فمثلا الجملة :

أكرم رئيس النادي ضيوفه مساء يوم الأحد .

مكونة من : أكرم + رئيس النادي + ضيوفه + مساء يوم الأحد .

وكلٌّ من هذه مكوّنة من مجموعة من المكوِّنات .

أكرم + (رئيس + ال + نادى) + (ضيوف + ـه) + (مساء + يوم + الأحد)

وكلٌّ من هذه مكوَّنة أيضا من مجموعة من المكّونات الصغرى من عناصر الصوت (الفونيمات) وعناصر الصياغة (المورفيمات) الملتصقة لتكوّن لكسيمات عناصر معجمية أو مونيمات مشتقات لكل منها وظيفته في النّص موضوع التحليل وتكون دراسة هذه المكونات من جانبين : فونتكس (صوتي) Phonetics وسينتاكس (تركيبي ـ نظمي ـ جملي) Syntax يتضمنان دراسة الأصوات والمباني الصرفية ووظائفها في الجملة من غير انصراف إلى المباني الصرفية دراسة معجمية (أي من حيث هي جذور معجمية لكلمات تتفرع عنها) ، أو دراسة اشتقاق صرفي ، ذلك لأن مارتينيه يهتم باللغة اهتماما يقابل وظيفتها الكليّة ، أي أنّها تقوم ببنيتها الكليّة بوظيفة نقل المعلومات بين المتكلمين بها ، وليس بجزئياتها : مفردات أو أصوات ، ومن هنا فإنّه يدرس الجزء الصرفي المورف في المونيم المشتق من حيث وظيفته ، كدراسة علامة التأنيث في الاسم المؤنث في اللغة العربية مثلا ، أو علامة الجمع في جمع المذكر السالم أو المؤنث السالم ، أو في الأفعال الخمسة .... الخ .

درس مارتينيه[١٥] الجملة تركيبيا ووظيفيا اعتمادا على فهمه دور كلّ من المسند والمسند إليه ، فالمسند إليه هو صاحب الوظيفة الرئيسة في التركيب الجملي . والعلاقة بينه وبين المسند علاقة كليّة ، وكلُّ ما جاء في الجملة زيادة على ركنيها الرئيسيين فهو من قبيل التوسع فيها . ولعلّ في هذا ما يذكرنا بما عند نحاة العربية من اعتمادهم المسند إليه والمسند أصولا في الجملة ،[١٦] وما زاد على الأصول فيها ففضلات أو تتمات ، ويذّكرنا كذلك بأن النحاة قد اعتمدوا المسند إليه بمثابة بؤرة الجملة .

بالإضافة إلى هاتين المدرستين[١٧] فقد كانت هنا مدارس أخر ، وكان هناك أفراد آخرون ، يمثل كلّ منهم ـ بالمعالم التي وضعها ـ منهج تحليل لغوي ، وكأنه مدرسة قائمة بذاتها ، مع أنّه يسير في إطار كبير يسمى البنيوية ، فقد كانت هناك حلقة براغ التي أسسها ماثيسيوس سنة ١٩٢٦ م واستقطب لها تروبتسكووي وورومان جاكبسون ، وهما من ألمع لغويي هذا العصر ، فاصطبغت الحلقة بصبغة البحث المشترك في عدد من النقاط الرئيسة في منهج دي سوسير من أبرزها الرمزية اللغوية والأخذ بالمنهج التزامني في التحليل ، بالإضافة إلى الصبغة العلمية الجادة التي أضفياها على دراسة الأصوات من حيث ما يسمى الدلالة الصوتية والأصوات Phonetics and Phonology ، وربما كان جاكبسون أبرز عالم حتى يومنا هذا يلفت الانتباه إلى دراسة الأصوات من حيث



التنغيم والنبر بالإضافة إلى عملية دراسة الأصوات الصامتة والصائتة كما هو معروف في الدراسات التقليدية[١٨] .

المدرسة التوليدية التحويلية :

ذكرنا سابقاً أنّ بلومفيلد قد ترك أثره الواضح في الدراسات اللغوية في هذا العصر ، وكذلك في اللغويين الذين جاءوا بعده ، فكان هاريس من بين أبرز من تأثروا به في جعل التوزيعية مذهبا له أبعاده في التحليل اللغوي ، وقد كانت الصلة بين هاريس وتشومسكي الذي جاء بالنظرية التوليدية التحويلية صلة صداقة حميمة ، بعد أن قضى هذا (تشومسكي) مرحلة طلب العلم على يدي أستاذه هاريس ، فتمكن التلميذ من الاطلاع من قرب على ما نُشر وما لم ينشر من أعمال أستاذه وأفكاره ، فأدرك الثغرات التي كانت في التوزيعية بخاصة وفي البنيوية بعامة ، وهو العالم البنيوي إلى سنة ١٩٥٧ م حيث نشر كتابه الذي يعد النواة الأولى للنظرية التوليدية التحويلية وبداية الطريق للتحول عن البنيوية .

تقوم نظريته على عدد من الأُسس الرئيسة ، من أبرزها :[١٩]

١ ـ الفطرية اللغوية ، وقد كان تشومسكي متأثرا في هذه النقطة بما كان في فلسفة الفيلسوف العقلي ديكارت ، وهمبولت من بعده ، ونحن نعلم أنّ تشومسكي كان معجبا بديكارت وبفلسفته إلى الحدّ الذي اندفع معه لوضع كتاب في الفلسفة الديكارتية .

يرى تشومسكي أنّ الطفل يولد مزوداً بعدد من القوالب الذهنية ، يكون فيها الاستعداد الفطري لمختلف اللغات ، فتُملأ هذه القوالب من واقع الاكتساب البيئي في الوسط اللغوي الذي يعيش فيه الإنسان .

٢ + ٣ ـ الكفاية والأداء ، تمثل الكفايةُ المخزونَ المعرفيّ في ذهن الإنسان من القواعد والقوانين اللغوية الكامنة ، يكتسبها الفرد في حياته ، فتأخذ في النموّ معه منذ الفترة الأولى في حياته ، فتمكّنه من إنتاج الجمل الصحيحة والقواعدية ، وتمكّنه كذلك من الحكم على ما يسمع بالصحة أو الخطأ طبقا لهذا المخزون .

ويمثّل الأداءُ استعمالَ الفرد المتكلم هذه القوانين في ما ينطق به أو يكتبه ، أي أنّه عملية توظيف هذه القواعد ، أو توظيف الكفاية ، في استعمال الفرد . ويذكرنا هذا

بما جاء في محاضرات سوسير من التفريق بين الكلام واللغة .
٤ + ٥ ـ البنية العميقة والبنية السطحية : تعود البنية العميقة إلى الفكرة الذهنية المجرّدة في عقل الإنسان ، تلك التي يود المتكلم التعبير عنها ، وأما البنية السطحية فإنها تجسيد هذه الفكرة الذهنية في كلمات منطوقة يتم بها تحويل الفكرة من مرحلة إلى مرحلة ، فتنطق متفقة مع قوانين اللغة وقواعدها من حيث المبنى ، وأما المعنى فيبقى مع البنية العميقة بصلة هي صلة الشيء المجسِّد أصله بالمفترض .
٦ + ٧ ـ قواعد النحو التوليدي وقواعد النحو التحويلي :

يبدو أنّ في هذين المصطلحين يكمن جلّ الفرق بين منهج تشومسكي في نظريته التوليدية التحويلية ومناهج المدارس البنيوية السابقة عليه أو المعاصرة له فهو لا يكتفي بوصف اللغة كما هي ، فيعمد إلى ما يمكن أن يسمي بالمعيارية أو التقعيد ، ويبحث في طريقه عن عدد من الفرضيات ونقاط التشابه والالتقاء بين اللغات في ما يسمى عنده « بشموليات اللسان » في الأصوات ومحدوديتها وإمكان إيجاد عدد غير محدود من الجمل منها ، وفي المباني الصرفية الفئوية : اسم أو فعل أو حرف أو مصدر أو ظرف أو صفة أو ... الخ فتقوم قواعد النحو التوليدي بوصف مكونات الجمل وصفا تصنيفيا صرفيا (اسم ، فعل ، ... مفرد ، مذكر ، مؤنث ... الخ) ثم توظيف ذلك للوصول إلى حلّ ما فيها من لبس ، أو لإزالة اللبس القائم فيها من تماثل بعض العبارات في مبانيها واختلافها في المعنى .

أما قواعد النحو التحويلي ، فإنها تهتم بالعبارة محوّلة إلى ميدان حسّي منطوق أو مكتوب ، مقاسة على قوانين اللغة التي تنطق العبارة بها ، فيراعي فيها المتكلم ما يجب أن يراعيه ليُحكم على عبارته بالصحة النحوية . ومن هنا تبرز عنده فكرة الجمل التي يمكن أن تكون صحيحة نحواً ومغلوطة دلالة ، إذ لا تطابق بين البنيتين العميقة والسطحية ، والمثل الذي يضربه لذلك هو : الوردة الخضراء تنام غاضبة[٢٠] .

تعمل الكفاية مع البنية العميقة مع قواعد النحو التوليدي في خط يوازي عمل الأداء مع البنية السّطحية مع قواعد النحو التحويلي لتمكن المتكلم من إيجاد عدد محدود من الفونيمات والمورفيمات .
٨ ـ وأخيراً يعتمد تشومسكي فكرة الحدس[٢١] للوصول إلى المعنى الدلالي ،وربما كانت هذه النقطة في نظريته من نقاط الضعف التي كانت بتأثير من مدرسة سابير الذهنية ، ومن أبرز ما يمكن أن يؤخذ على نظرية تشومسكي هو عدم إحكام الربط

بين البنية العميقة والبنية السطحية ، فالبنية العميقة عنده ؛ تكون في الذهن فكرة مجردة تبرز في جملة أو في جمل منطوقة لتكون تجسيداً لها ، بقطع النظر عن الكيفية التي تظهر عليها هذه الفكرة من التقديم والتأخير ، أو التوسيع أو الحذف الخ ، فمهمة الجملة المنطوقة عنده ؛ إبراز الفكرة الذهنية الكامنة(٢٢) . وكذلك الحدس ، فإنه يمثل نقطة ضبابية في نظرية تشومسكي ، وهي ، كما ذكرنا ، تتصل بسبب بفكرة الحافز الذهني عند سابير ، فليس من سبيل للوصول إليه(٢٣) ، ولهذا فقد صرف بلومفيلد ـ صاحب المدرسة الديناميكية السلوكية(٢٤) ـ النظر عن البحث فيه لعسر الوصول إليه وليس لعدم أهميته أو لضعف دوره في المنظومة اللغوية .

قبل عرض إمكان الإفادة من هذه المدارس في النحو العربي ، نجد أنّ علينا أن نقول بأنّ إنتاج العقل البشري ليس حكراً على فئة دون فئة ، فليس هناك منتج ومستهلك ، بل ربّما كان في الإحساس بضرورة معاداة كلّ حديث جديد في أيامنا هذه ما يُبعد عنّا ، بل ما يبعدنا عن أن ندفع عجلة الدرس اللغوي عندنا لتسير بحدّ التسارع الذي كانت عليه عندما أفاد منه الغربيون ولم يجد أحدٌ منهم ما يعيب أو يضير في الاطلاع على كتاب سيبويه أو معجم الخليل أو كتاب الإنصاف أو غيرها .

ونجد لزاماً علينا أن نذكر بإيجاز سريع بأن النظرية النحوية التي قامت عليها كتب النحو العربي منذ سيبويه إلى يومنا هذا ، هي نظرية العامل النحوي فَقَسَم النحاة في ضوئه الكلام إلى مبنيات ومعربات ، ثم قَسَموا المعربات إلى مرفوعات ومنصوبات ومجرورات ومجزومات وتوابع ، واقتضى البحث في المبنيات البحثَ في الإعراب المحلي ، فوضع النحاة القواعد لكل باب من الأبواب الفروع في كلّ من هذه الأطر الكبرى ، استنادا إلى عدد من الشواهد ، وما خرج على هذه القواعد ، فقد حكم عليه بالشذوذ حتى لو كان هذا الشّاذ كثيرا في لغة العرب ، أو كما يقول أبو علي الفارسي : هو كثير في كلامهم ولكنه يحفظ ولا يقاس عليه ،(٢٥) ومن هنا نشأ ما يمكن أن يسمى بقسرية اللغة النحوية ، ونشأ كذلك ما يسمى بمسائل الخلاف في وجهات نظر العلماء في كلّ من البصرة والكوفة . ولا أرى أننا بحاجة في هذا المقام لضرب أمثلة ، ويكفي الاطلاع على ما جاء في كتاب الإنصاف للأنباري ، لنرى أن من النحويين من كان يخرّج ظاهرة لغوية معينة ، يخرّجها غيرُه تخريجا مناقضا تماما ، كاسمية نعم وبئس أو فعليتهما(٢٦) وكأصل الاشتقاق(٢٧) ، وكجملة الحال وارتباطها

بقد[٢٨] مثلا ، فنشأ ما يسمى مجازا نحو المدرسة البصرية ونحو المدرسة الكوفية ، فوجدت كلَّ مدرسة مَنْ يتعصب لها وللأخذ بآرائها إلى يومنا هذا . ولكنّ حظ البصرة كان وافراً ، فأخذت به الأجيال ، حتى جاء جيل لا يعرف عن منهج الكوفة شيئا ، ويعادي كلّ ما يخالف ما يعرف معاداة صارخة بحجة أنه يعادي كلّ حديث لأنه حديث ، أو قل لحداثته ، حتى لو كانت هذه الحداثة عائدة إلى الكسائي أو الفراء أو ثعلب .

نرى أن النحاة القدماء – رحمهم الله – بحثوا في الحركة الاعرابية بخاصة ، وفي مبنى الكلمة والجملة بعامة ، وأجادوا في ذلك إجادة ليس من اليسير لغيرهم أن يصل إلى ما يصل إليه دون اعتماد على ثمار جهودهم ، ولا أظن كذلك أنّ أيّة محاولة لا تعتمد على ما جاء عنهم ، يمكن أن تكون ناضجة تصلح للأخذ بها ، وستكون – في ما نرى – مبتورة عن خط البناء العلمي الذي يعتمد فيه اللاحق على ما وصل إليه السابق ، مبتورة تماماً كمحاولة الوقوف بأيّ من العلوم – ومنها النحو وعلوم اللغة – عند القديم بحجة المحافظة على كماله وقدسيته أو عند الحديث بحجة أطراح القديم لعدم مواءمته مجريات العصر .

نرى أن نحاة العربية قد انصرفوا إلى البحث في المبنى وتخريج ما يتعلق به ، عن المعنى – إلاّ ما اتفق منه مع المبنى – وانصرف البلاغيون إلى الخط الموازي تماما ، إلى أن جاء أحد علماء السّلف الصالح – عبد القاهر الجرجاني – فضّم المبنى إلى المعنى في ما يسمى بالنظم ، وما النظم إلا أن تضع كلماتك الوضع الذي يرتضيه علم النحو ،[٢٩] فخرج عنده علم متوازن يفخر كلّ منا بأنه (الجرجاني) قد استطاع أن يمسّ – على الأقل – ما ينادي به أصحاب المدارس الغربية الحديثة في الألسنية وفي النقد الأدبي .[٣٠]

سنعمل في ما تبقى من هذه الدراسة على وضع تصور نربطَ فيه بين المبنى والمعنى ، والشكل والمضمون ، نقترح في ضوئه تصنيفا يساعدنا في دراسة النحو العربي من غير إخلال بالحركة الاعرابية ، فهي عندنا جزء أساس من فونيمات المبنى ذات الوظيفة الرئيسة للوصول إلى المعنى ، بغيرها تنهار جمل العربية ، فلا يُتبيّنُ فيها الفاعلُ من المفعول ولا الحال من الصفة .... الخ .

فنعتمد على المنهج الوصفي في وصف الجمل وتحليلها ، ونعتمد في المنهج الوصفي

على النظر إلى المكوّنات الرئيسة في الجملة ، على أنّها مبان صرفية تجسّد أبواباً نحوية رئيسة في ذهن المتكلم ، وأما المكونات الفروع في الجملة فإنها تمثل أبوابا نحوية فرعية جاءت لإضافة معنى معين إلى الجملة ، وأن لكلّ من المكونات الرئيسة موقعا أصيلا في الجملة ، يمكن أن يتحول عنه لمعنى في ذهن المتكلم ، تماما كما يكون الوصول إلى الغرض الذي يريده المتكلم عن طريق أحد العناصر الرئيسة في الجملة ، والتغير في تنغيمها أو عن طريق الحركة الاعرابية .(٣١)

ويقتضي المنهج الوصفي الذي نتّبع ، أن ننظر إلى الجملة المنطوقة على أنّها المادة المحسوسة أو المجسِّدة لفكرة في الذهن ، ولمّا لم يكن من اليسير وصف الفكرة في الذهن ، فإنّنا نرى أن نصفها من الجملة المنطوقة ، بوصف ما يجري في الدّوال للتعبير عمّا يراد أن تكون عليه المدلولات . والدّوال والمدلولات تكون في جملةِ أصلٍ وأخرى فرعٍ ، وقد تكون الجملة الأصل جملة فرعية في النموذج اللغوي المراد تحليله ، ولنصل إلى دقة في وصف المعنى الدلالي ، نرى أن الجملة لها بنية رئيسة نسميها (الجملة التوليدية) ذات البعد الدلالي الأول (القريب) لها معناها ولها أطرها ، فإذا ما جرى عليها تغيير ، ويكون التغيير بأحد عناصر التحويل ، (وسنتحدث عنها بعد قليل) ، أو بأكثر من عنصر ، وكلّ تحويل لابد أن يكون له دور في المعنى ، فإن كانت الجملة التوليدية ترتبط بالبنية السطحية أو بالبُعْدِ الدلالي الأول ، وتخضع لقواعد الأطر الرئيسة في البناء الجملي ، فإنّ الجملة بعد أن يدخلها عنصر من عناصر التحويل ، تصبح جملة تحويلية وترتبط بالمعنى الدلالي الثاني الذي يود المتكلم أن يصرف بناء الجملة له . وتخضع الجملة حينئذ لقواعد التحويل ، وقواعد التحويل هذه يبرز فيها بدرجة رئيسة وصف الحركة الإعرابية ذات المعنى ، والأخرى ذات الاقتضاء طبقا للقياس اللغوي على ما جاء عن العرب ، ولا مجال فيها لحركة المحلّ أو التقدير .

فالجملة ، إذاً ، هي الحدّ الأدنى من الكلمات التي تحمل معنى يحسن السكوت عليه ، وبدلا من تفصيل القول في اختلافات النحاة في تقسيم الجملة إلى اسمية وفعلية ، وفي اختلافهم في الفرق بين الجملة والقول والكلام ، نرى أنّ الجملة التي ينطبق عليها التعريف السابق هي جملة توليدية ، ونقصد بالتوليدية تلك التي تتكوّن من عدد محدد من الكلمات التي جاءت كلماتها تمثل الأبواب النحوية الرئيسة فيها ، بغير نقص أو زيادة ، وإن كانت تحتملهما . وتخضع هذه الجملة لقواعد أيّ من الأطر الرئيسة التالية : وهي التي نسميها قواعد النحو التوليدي :

١ ـ فعل لازم + فاعل
٢ ـ فعل متعد + فاعل + مفعول به ١ ، ٢ ، ٣ .
٣ ـ فعل + مفعول به ضمير + فاعل .
٤ ـ مسند إليه معرفة + مسند نكرة .
٥ ـ مسند شبه جملة + مسند إليه نكرة .

فهذه الأطر هي أطر الجملة التوليدية ، وفيها قواعد النحو التوليدي ، وغاية الجملة التي تنطبق على أيّ منها ، أو بُعدُها الدلالي ، نقلُ الخبر من المتكلم إلى السامع أو المخاطب ليس غير ، دون توكيد ، أو نفي ، أو استفهام أو شرط ، أو نداء ، أو تحذير ، أو فخر أو تعظيم .... الخ . فإن قَصَدَ المتكلّم أن ينقل لسامعه أيّاً من هذه المعاني أو سواها ، فإنّ عليه أن يحوّل الجملة من هذا الإطار إلى إطار آخر مستخدما عنصراً أو أكثر من العناصر التالية : الترتيب ، الزيادة ، الحذف ، التنغيم ، الحركة الإعرابية . وهي التي نسميها قواعد النحو التحويلي وكلّ تحويل لابد أن يكون لغرض في المعنى أو أنّه يتصل به بسبب .

تأخذ الجملة اسمها الثابت في الإسمية أو الفعلية في حال وجودها في مرحلة الجملة التوليدية ، « والعبرة بصدر الأصل » ، فالجمل : علي مجتهد
في البيت رجل
جمل اسمية ، ولكنها توليدية ، ومعناها الأخبار المحايد ، أمّا الجمل :
حضر علي
قرأ الطالب الكتاب
أكرمني النادي الأدبي

فجملة توليدية فعلية ، توليدية لأنها مكوّنة من حدّها الأدنى في إطار من الأطر السابقة فعلية لأن صدرها فعل . وأما الجمل :
كان علي مجتهدا
أن عليا مجتهد
ليس علي مجتهدا / بمجتهد

فجمل اسمية من حيث صدر الأصل ، تحويلية ، جاءت فيها عناصر زيادة ، وكلّ زيادة في المبنى تقابلها زيادة في المعنى ، فجاءت الزيادة في الأولى للإشارة إلى الزمن

الماضي ، وفي الثانية للتوكيد ، وفي الثالثة للنفي وتوكيد الخبر المنفي . وهذا ما يجب أن يفهمه السامع ، قصده المتكلم أم خرج عليه لجهله بأساليب العربية .

فالكلمات تخرج في تركيب جملي ، معبِّرة عمّا في ذهن المتكلم ، ومطابقة له ، (أو هكذا يفترض أن تكون) ، يقول الجرجاني : « لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما ، وإنّك تتوخى الترتيب في المعاني ، وتُعمل الفكرَ هناك »[٣٢] .

وليكون تحليل الجملة تحليلا تاما ، يوصل إلى المعنى الدلالي ، لابد من أن تتحدمستويات التحليل اللغوي اتحاداً تاما ، في نظرة تحليلة متكاملة . فالمستوى الأول التحليل الصوتي Phonetics and Phonology تحدد فيه العناصر الصوتية الفونيمات المكوّنة في الجملة ، وفونيمات الصوامت والصوائت ، ليتم في المستوى الثاني تحديد المبنى الصرفي بما فيه لكسيمات (وحدات معجمية) ومورفيمات ومونيمات وحدات اشتقاقية ، فيتحدد بذلك القسم الصرفي الذي ينتمي له المبنى : اسم ، فعل ، اسم فاعل ، اسم مفعول ... ، مفرد ، مثنى ، جمع ، سالم أو تكسير ، مؤنث ، مذكر ... الخ ثم يأتي دور المستوى التركيبي ، وفيه يتمّ تحديد حاجة الكلمة الأولى إلى ما يليها من كلمات انطلاقاً من أنّ بؤرة الجملة الفعلية (الفعل) ، وبؤرة الجملة الإسمية (المبتدأ) . وبناء على ذلك فإنّ الحركة الإعرابية تحدَّد على كل كلمة في الجملة من واقع الباب النحوي الذي هي ممثّل صرفي له ؛[٣٣] فهي تجسيد محسوس لقالب ذهني أو لباب ذهني مجرّد . واعتمادا على هذا فإننا نرى أن نجمع أطر التراكيب الجملية المحوّلة في عدد من الأبواب الكبرى (أبواب المعنى) على أساس المعنى وليس على أساس العمل والعامل ، فتخرج بذلك جمل النفي في باب ، وجمل التوكيد في باب ، وجمل الشرط في باب ، وجمل الاستفهام في باب ... وهكذا في بقية الأبواب . وبذا فإننا لا نجد بابا من أبواب المعنى موزعا في عدد كبيرٍ من الأبواب ، فنجد في كتب النحو مثلا ، ليس التي تفيد النفي في باب كان ومازال وظل وأمسى وصار ، ونجد ما ، في باب ما يلحق بليس ، ونجد لا ، تارة في ما يلحق بأنّ ، وأخرى بما يلحق بليس ، ولن ، في باب ناصب المضارع مع أن وإذن وكي .... وغيرها : وما النافية في منطقة مهملة لأنها لا تترك أثراً اعرابياً على ما يليها .

فنستطيع بذلك أن نفيد من التراث النحوي ومن التراثي البلاغي ومن نتائج جهود

علماء الألسنية الحديثة ، في ضم المضمون إلى الشكل ، والمبنى إلى المعنى ، ليسيرا في خطين متوازيين يوصلان إلى نتيجة واحدة ، كما نوضحه في الرسم التالي ، وبذا فإننا نمكّن كلا من الطالب والمعلم من أن يحذو حذو العرب في كلامهم ، وأن يفهم السامع ما تنطوي عليه أساليبهم وتعبير لسانهم :

أفكار في ذهن المتكلم منطقة خارجة عن ميدان البحث اللغوي ← تتحول إلى رموز أو دوال (كلمات منطوقة) ← تنتظم في جمل طبقا للقواعد النحوية واللغوية العربية

وهذه تساوي = النحو | وهذا تساوي = قوانين النحو وقواعد اللغة | وهذه تتضمن

عناصر تحقيق سلامة المبنى	تتضمن الحركة الإعرابية + القياس اللغوي	المعنى الدلالي
عناصر تحقيق المعنى	الترتيب + الزيادة + الحركة الإعرابية + الحذف + التنغيم	

فنصرف بذلك النحو عن التعريف الذي يرتضيه له جلّ النحاة بأنه العلم الذي يبحث في حركات أواخر الكلمات ، إلى البحث في المعنى المحدّد للجملة من خلال المباني الصرفية فيها .

فالبحث النحوي في ضوء التعريف السابق يحصر الحديث عن المرحلة الأولى من مراحل تكوين الجملة ، أي عن المرحلة الذهنية ، ويصرفه عنها ، لأنّ الإنسان ـ في ما نرى ـ يفكر بمجموعة من الأبواب النحوية يستوي في ذلك العربي وغيره ، الأمي والمتعلم ، ثم يجسّد هذه الأبواب التي هي ذهنية مجردة بمبان صرفية تؤدي ثلاثة أدوار : تمثيل صرفي للباب النحوي : تمثيل معجمي لمعنى الوضع ، تمثيل سياقي . تلتحم هذه الأدوار الثلاثة ، فتأخذ الحركة الإعرابية دور المنسّق بين التمثيل الصرفي للباب النحوي ، والتمثيل السياقي ؛ لتوصل إلى المعنى الدلالي للباب اللغوي الذي تنتمي إليه الجملة . وبذا لا نقف بالنحو عند مرحلة التفكير الذهني المجرد الذي انقلب إلى رياضة عقلية ليس بالضرورة أن يكون من يعرفها قادراً على الكتابة الصحيحة فضلاً على النطق الصحيح .

قلنا : لا نقف بالنحو عند مرحلة التفكير الذهني ، ونضيف هنا فنقول : ونمرّ بهذه المرحلة في وسط التمثيل الصرفي بالتمثيل السياقي .

● ● ●

● الهوامش ●

(١) وانظر ، خليل عمايرة : في التحليل اللغوي ص ٨٧ وما بعدها .
(٢) وانظر ، سيبويه : الكتاب جـ ١ / ١٢ .
(٣) وانظر : خليل عمايرة : في نحو اللغة وتراكيبها ص ١٧٥ وما بعدها .
(٤) وانظر لمزيد من التفصيل : دي سوسير ص ٣١ ـ ٣٥ .
(٥) السابق ص ٨٧ ، ٨٩ .
(٦) وانظر عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ـ ص ٤٠ .
(٧) السابق .
(٨) دي سوسير : ص ١٥٠ ـ ١٥٥ .
(٩) السابق ص ١٢٣ .
(١٠)
Harris, Z.S., Methods in structural linguistics, Chicago Univ. Press, 1951.
Papers in structural and tranformational linguistics, 1970.
(١١) السابق .
(١٢) السابق .
(١٣) وانظر : خليل عمايرة : في التحليل اللغوي ، وفيه فصل كامل عن نظرية العامل بين مؤيديه ومعارضيه ص ٥١ ـ ١٠٣ .
(١٤) وانظر Martinet, A., A Functional view of language, Oxford, 1962.
(١٥) السابق .
(١٦) سيبويه ، الكتاب ٢٣/١ ـ ٢٤ ، ٣٦/٢ ، ٧٨ ، ١٢٦ .
السكاكي : مفتاح العلوم : ٧٦ ـ ١٠٨ .
القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ١٣ ـ ٦١ .
خليل عمايرة : في نحو اللغة وتراكيبها ص ٩٩ .
(١٧) وهناك عالم معاصر يقوم بتدريس علم اللغة في جامعة هازفرد S. Kuno يحاول أن يوجه أفكار المدرسة الوظيفية إلى وظيفة جديدة يراها تمثل رأس مدرسة جديدة تقف في وجه المدرسة التوليدية التحويلية .
(١٨) وكانت هناك مدارس أخر في أوروبا وأمريكا أبرزها مدرسة فيرت في بريطانيا ومدرستا سابير وبلومفيلد في أمريكا ـ ولا أرى المقام يتسع للحديث عن أيّ منها .
(١٩) وانظر لمزيد من التفصيل
Chomsky, N.,- Syntactic structures Mouton, 1957.
- Aspects of the theory of syntax, Cambridge, Mass 1965.
- Studies on semantics in generative grammar, Mouton, 1972.
(٢٠) وانظر لمزيد من التفصيل Chomsky, N. syntactic structure, P.P. 34-49, 92-106.
(٢١) ولمزيد من التفصيل انظر Chomsky, N. Aspects of the theory of syntax PP. 128-148.





(٢٢) خليل عمايرة ، في نحو اللغة وتراكيبها ، ص ٨٨ ـ ١٧٨ .
(٢٣) وانظر لمزيد من التفصيل .Spair, E, Language, an introduction to the study of speech, PP. 57-82
(٢٤) وانظر لمزيد من التفصيل Bloomfield, L., Language, PP. 158-170, 425-476.
(٢٥) أبو علي الفارسي : التكملة
(٢٦) الأنباري ، الإنصاف في مسائل الخلاف ، مسألة ١٤ .
(٢٧) السابق ، مسألة ١ ، ٢٨ .
(٢٨) السابق ، مسألة ٣٢ .
(٢٩) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز (خفاجي) ١١٧ .
(٣٠) وانظر : خليل عمايرة : البنية التحتية بين تشومسكي وعبد القاهر الجرجاني ، الأقلام عدد ٩ .
(٣١) وانظر : خليل عمايرة : في نحو اللغة وتراكيبها ص ٨٨ ـ ١٧٨ .
(٣٢) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ص ٤٠ .
(٣٣) خليل عمايرة : في التحليل اللغوي ص ٤٩ ، ٨٧ ـ ١٠١ .

● قائمة المراجع العربية ●

(١) الأنباري ، أبو البركات : الإنصاف في مسائل الخلاف ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٦١م .
(٢) الجرجاني ، عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٨ ، و (خفاجي) .
(٣) دي سوسير ، فردينان ، محاضرات في الألسنية العامة ، ترجمة يوسف غازي ، ومجيد النصر دار نعمان للثقافة ، ١٩٨٤م .
(٤) السكاكي ، يوسف بن أبي بكر ، مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .
(٥) سيبويه : الكتاب ، ت عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٦ ، ١٩٧٥م .
(٦) السيوطي ، جلال الدين همع الهوامع ، تحقيق عبد العال مكرم ، دار البحوث العلمية الكويت ١٩٧٥م .
(٧) خليل عمايرة : في نحو اللغة وتراكيبها ، منهج وتطبيق ، عالم المعرفة ـ جدة ـ ١٩٨٤م
ـ في التحليل اللغوي ، منهج وصفي تحليلي ، مكتبة المنار ، الأردن ١٩٨٧م
ـ البنية التحتية بين تشومسكي وعبد القاهر الجرجاني الأقلام (العراقية) عدد ٩ .
(٨) الفارسي ، أبو علي ، كتاب التكملة ، ت كاظم بحر المرجان ، ١٩٨١ ، بغداد .
(٩) القزويني : الخطيب ، الإيضاح في علوم البلاغة ، دار الجيل ـ بيروت .

● المراجع الأجنبية ●

(1) Bloomfield, L., Language, New York 1933, 1976.
(2) Chomsky, N., Syntactic structure, Mouton, 1957.
– Aspects of the theory of syntax, Canbridge, Mass 1976.
– Studies on semantics in generative grammar, Mouton, 1972.
(3) Harris, Z. S., Methods in structural Linguistics, Chicago Univ, Press, 1951.
Papers in structural and transformational Linguistics, 1970.
(4) Martinet, A., A functional view of Language, Oxford, 1962.
(5) Sapir, E, Language, Language, an introduction to the study of speach, New York 1921, 1970.
(6) Ullmann, S., Semantics, an introduction to the science of meaning, Oxford, 1962.

حياة الأدب التهامي في ظلال المتنزهات الريفية (١٢٥٤ - ١٢٦٤هـ) (١٨٣٨ - ١٨٤٧م)

د. عبد الله بن محمد أبو داهش

توطئة :

يتبين للناظر في أدب الجزيرة العربية في القرون الأخيرة الماضية أهمية ذلك الأدب . وسعة ميدانه ، وقيمة مضامينه ، إذ يكاد يتميز بأصالة معانيه وندرتها . وذلك على الرغم مما أصابه من التشتت والضياع ، فلقد مرّ على مراكز الفكر والأدب بجزيرة العرب[1] حين أضاع الناس خلاله تراثهم ، ومعظم آثار أسلافهم ، حيث لم تسلم مكتباتهم الخاصة عندئذ من آثار : الأدواء ، والإهمال ، وعدم الرّعاية ، كما أنها بيعت مقتنياتها في معظم الأحيان بأبخس الأثمان ، وأصبحت نهبا لمطامع الغربيين ، ناهيك عما أصابها من ظروف : الحروب ، والدمار ، والغرق ، والحريق ، ونحو ذلك .

والحق أن ما مرت به بلدان الجزيرة العربية من فرقة سياسية ، وظروف اجتماعية ، واختلافات مذهبية قد ساعد على إيجاد شيء من العزلة الفكرية ، وجعل الأدباء في معظم الأحيان ينكفئون على واقعهم الاجتماعي ، ويلزمون أوطانهم ، وبخاصة في حواشي الجزيرة العربية[2] ، إذ هم حينذاك يعيشون حياة محدودة ، لم تخل من التميز

الاجتماعي ، ولم تسلم من الفراغ الزمني ، حيث صرف أولئك الأدباء فكرهم نحو شيء من مظاهر مجتمعهم ، وخاصة ما تلوّن منها بظروف الحياة : السياسية ، أو الاجتماعية ، أو الريفية ، أو التجارية ، أو البحرية ، أو الصحراوية ، فلقد اشتملت معظم أقاليم الجزيرة العربية عندئذ على شيء من واقع تلك الحياة المختلفة ، واتسمت بكثير من ملامحها ، وهذا ما جعل الأدب يتفاوت في اتجاهاته ، ويختلف في معانيه ، على الرغم من وضوح الضعف في لغته ، وأساليبه .

ولعل ما يمكن الوقوف عنده في هذا المقام واقع الأدب في تهامة[٣] ، ومدى أثر المتنزهات الريفية في نهضته ونشاطه . وذلك في غضون النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري[٤] ، حين تهيأت لهذا الأدب أسباب سياسية ، وأخرى اجتماعية ساعدت على إيجاد يقظة أدبية جادة ، فلقد عرفت بلدان تهامة في هذه الفترة : المواطن الفكرية ، والأسر العلمية ، إلى جانب اليقظة الملموسة في ميدان : التعليم ، والهجرة في سبيل العلم ، بالإضافة إلى ما شهدته تهامة عندئذ من حياة سياسية مستقرة ، وما ناله الأدباء في ظلالها من الرعاية والاهتمام ، وخاصة المعنوية منها والمادية ، ولعل ولاية الشريف الحسين بن علي حيدر[٥] (١٢١٥ ـ ١٢٧٣ هـ) تعد عندئذ من أسباب انتعاش الأدب ويقظته ، فالحق أن هذا الأمير يعد من أبرز أمراء تهامة تشجيعاً للأدب وفنونه ، حيث حظي مواطنوه الأدباء برعايته وتشجيعه ، ولقد انسحب أثره الفكري والسياسي على معظم بلدان تهامة ، بما في ذلك تهامة اليمن ، إذ نشأ في رحاب دولته شيء من أدب الرحلات والمتنزهات الريفية ، ووجد الأدباء في أنفسهم الرغبة في التنزه والخروج إلى الريف من أجل الترويح عن النفس ، ودفع الملل . وكان هذا الحال يدعو إلى عقد المناظرات ، والمحاورات الشعرية ، وإنشاء المقامات ، حيث وُجِدَ الدافع النفسي عند أولئك الأدباء ، والرغبة الأكيدة في التنزه ، والخروج إلى المواطن الريفية المعهودة ، بل دعا هذا الحال بعض أدباء تهامة إلى الاستقرار خارج مدنهم ، واختطاط المنازل في أحضان الريف ، ومتنزهاته ، مثلما فعل ـ على سبيل المثال ـ إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الضمدي[٦] (١٢٢٢ ـ ٠٠٠) عندما فضل النزوح من بلدته ضمد[٧] ، واختط متنزه الخيمة[٨] شمالي تلك البلدة . وكان هذا الواقع السياسي الاجتماعي بعامة يدعو الأدباء إلى الخروج نحو المواطن الريفية من أجل الإسهام بنشاطهم الأدبي في هذا الميدان ، وهذا ما يمكن التعرض له في هذا البحث من خلال مشاركة الأدباء أنفسهم بنتاجهم الأدبي عند خروجهم إلى متنزهاتهم الريفية ، وخاصة متنزهات بلدتي : ضمد ، وزَبِيْد[٩] بجنوبي الجزيرة العربية[١٠] .

أولاً : في ضمـد :

تعد بلدة ضمد من مراكز الفكر والأدب بالمخلاف السليماني بتهامة ، إذ عرفت بعلمائها وأدبائها ، وحلقاتها العلمية ، ومؤلفات علمائها ، ومكتبتها الخاصة . وكانت في القرون الأخيرة الماضية وجهة علمية يقصدها الدارسون ، وطلبة العلم المهاجرون من بلدان تهامة نفسها ، أو من البلدان المجاورة ، مثل : عسير[١١] ، ورجال ألمع[١٢] ، وغيرهما . وضمد ـ كما قال الحسين بن أحمد عاكش[١٣] (١٢٢١ ـ ١٢٩٠ هـ) تعد حينذاك : « رحلة الطلاب ومجثم العلم والآداب »[١٤] ، وهي كما وصفها عاكش نفسه من مراكز الفكر والأدب بتهامة ، وفيها من العلماء المبرزين ما يزيد على مائة عالم :[١٥] « منهم من اتصف بكمال التحقيق ، ومنهم من اطلع على سائر العلوم تفسيراً وحديثا وفقها وكلاما وأصولاً وغير ذلك من سائر العلوم العقلية والنقلية ، وفيهم من صنف وتصانيفه موجودة ، وقد ذكر ابن أبي الرجال[١٦] في « مطالع البدور »[١٧] « أنه مما اشتهر على الألسنة أن ضمد لا يخلو من عالم محقق ، وأديب بليغ إلى زمننا هذا مع ما فيهم من الفضلاء والأولياء ، ما لا ينحصرون ، والغالب في المخلاف السليماني[١٨] أن لا يكون الحاكم والمفتي والمدرس إلا منهم »[١٩] ، وكذلك كان هذا الحال الفكري ، وتلك المنزلة العلمية يستدعيان من العلماء والأدباء التنزه ، وطلب الرحلة خارج مدينتهم ضمد ، إذ كانوا ـ في الغالب ـ يستوحون أفكارهم ، ومضامين نتاجهم الأدبي في رحاب متنزهاتهم الريفية ، مثل الحسن بن علي البهكلي[٢٠] (١٠٩٩ ـ ١١٥٥ هـ) ، صاحب : « المقامة الضمدية[٢١] في الكرمة التي وجدها في بعض تلك الرياض الندية »[٢٢] ، إذ يبدو أن وادي[٢٣] ضمد بقراه ومتنزهاته كان يستهوي الأدباء للتنزه ، وطلب الرحلة .

ولعل من أشهر متنزهات وادي ضمد في القرون الأخيرة الماضية : متنزه قرية الخيمة الذي عُرِفَ من بعد بالقُمْرِي[٢٤] . وكان هذا الموضع الريفي يسترعي اهتمام الأدباء ، ويشدهم إليه ، فقد أسهب عاكش في ذكر هذا المتنزه في مؤلفه « عقود الدرر »[٢٥] ، وقال : إن أخاه إسماعيل بن أحمد الضمدي اختط قرية الخيمة : « يماني وادي ضمد عام ستين ومائتين وألف في شهر ربيع الأول »[٢٦] ، وأنه اعتاد حينذاك الخروج إلى هذا المتنزه في صحبة نفر من أدباء تهامة من أجل : الترويح ، وتبادل القريض ، فلقد قال إنه : « اقتضى الحال بعد تمام المنازل الخروج بجماعة من أفاضل الزمان ومن العلماء

الأعيان... وتعاطوا هنالك كؤوس الآداب ، وأنشأوا قصائد عذاب »[٢٧] ، وقال في موضع آخر في معرض حديثه عن هذا المتنزه : « وقد خرجنا إلى قرية الخيمة يماني وادي ضمد مع جماعة من أعيان الوقت للنزهة . وكان الوقت وقت[٢٨] ... ثمار ، وخضرة في تلك البقاع »[٢٩] ، ويبدو أن سبب تسمية قرية الخيمة بهذا الاسم يعود إلى الخيمة التي نصبها في ذلك الموضع : الشريف حسن أبا نمي[٣٠] (٩٣٢ - ١٠١٠ هـ) في إحدى غزواته إلى تهامة[٣١] ، ويؤكد هذا القول ما ورد في علي بن عبد الرحمن البهكلي[٣٢] (١٢٠٧ - ١٢٧٤ هـ) التي يقول فيها :

قد سميت تلك البقاع بخيمة قد نصّبت فيها فعز الجانب

والأصل في ذا الاسم نجل أبي نمي حسن المسمى وهو ليث غالب

ملك له في المجد أصل ثابت ومحاسن ومكارم ومناقب

قد جاء من أم القرى بجنوده وله كضعف الجند رأي ثاقب

قد نصّ خيمته على تلك الربى يبغي الأمير وقصد ذاك يحارب

وجرن بجازان[٣٣] حروب بعدها سلب الأمير الأمر وهو السالب

ثم انثنى ذاك الشريف مشايما والدهر فيه حوادث وعجايب[٣٤]

ومهما يكن من أمر فإن هذا المتنزه قد شهد في ربوعه ومغانيه عدداً غير يسير من أدباء ضمد وغيرهم ، وأنه قد حفل في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري بشيء من نتاج أولئك الأدباء في ميداني : النثر ، والشعر ، حيث أنشئت : المقامات ، والخطب ، وأنشدت : القصائد ، والمقطوعات . وكانت حياة الأدب في رحابه عامرة يقظة . ويتحقق هذا القول في وصف عاكش لإحدى نزه هذا الموضع ، حين قال : « وقد تجاذب أدباء العصر أطراف القصائد المطولة في مدح هذه النزهة ، ودونها المترجم له [إسماعيل بن أحمد الضمدي] في مجلد »[٣٥] ، وقد وجد في بعض المجاميع المخطوطة ما يؤكد هذا القول ، ويدل عليه ، إذ ذكر عبد الله بن علي العمودي[٣٦] (١٢٩٩ - ١٣٩٨ هـ) بعد إيراده للنتاج الأدبي الذي قيل في طلال متنزه الخيمة ما يشير إلى ذلك الحال ، حيث قال : « انتهى ما وجد من قلم السيد العلامة محمد بن حيدر[٣٧] عن خط القاضي العلامة الأمجد إسماعيل بن أحمد لازال في عيش أرغد ، وهو المختط للخيمة المذكورة ، والإنشاء ، والمساجلات بسببه رحم الله الجميع وأحلهم المقام الرفيع »[٣٨] ، وهذا يؤكد أثر هذا المتنزه في استقطاب الأدباء ، ويشير إلى وفرة النتاج الأدبي في ميدانه ، ومدى الاهتمام بجمعه وتدوينه ، فالحق أن هذه الملامح الأدبية تنم عن حياة أدبية جادة في هذا الجزء المنسي من جزيرة العرب .

ومن الأنماط النثرية التي قيلت في هذا الميدان ، تلك المقامة التي أنشأها الأديب علي ابن محمد البهكلي في وصف إحدى النزه الريفية إلى قرية الخيمة شمالي وادي ضمد ، إذ قيل في صدر تلك المقامة : « الحمد لله كافي المهمات ، وبعد : لما هيأ الله وله الحمد الاجتماع بجماعة من الإخوان والعلماء الأعلام ، فمما قاله القاضي العلامة الأديب جمال الإسلام علي بن عبد الرحمن البهكلي حماه الله تعالى في ذلك الاجتماع بالخيمة : نحمدك اللهم في الإخبار والإنشاء على شامل فضلك لأنك تؤتي الفضل من تشاء ، ونصلي ونسلم على النبي الكريم : صاحب الخلق العظيم ، وعلى آله الأطهار ، وجميع أصحابه من المهاجرين والأنصار ، وبعد : فلما نظمنا سلك الاجتماع نحن وجماعة من الإخوان الأعلام الذين لكل منهم في العلم طويل الباع في نزهة القاضي العلامة الأوحد النجم الأسعد : إسماعيل بن أحمد ، خلّد الله مجده وجدده بقريته التي اختطها بالخيمة عذبة الماء طيبة الهواء التي اكتست أرضها حللاً خضراً من النبات ، نسجتها أيدي الأنواء ، وخضنا من بحر الخطاب كل عباب ، وفتحنا من مقفلات المسائل العلمية أبوابا ، وأملى كل واحد من حفظه مالا يملي من كتاب ، وهزّ أعطافنا بديع المعاني هز النسيم لقدود الغواني ، فعند ذلك رأيت أن يكون في هذه النزهة مقامة لتكون لذكر ذلك الوقت اسما وعلامة »[٣٩] ومنها قوله :

« انظر إلى الخيمة منصوبة	فوق الرياض الخضر والوادي
تهدي هنا العيش لسكانها	يانعم ذاك السفح والنادي
قد غرّد القمري على غصنه	بين رياض حسنها بادي
كأنما البلبل في شدوه	قام خطيباً فوق أعواد
لا عيب فيها غير سلوانها	للضيف عن أوطان ميلادي
فالعيش خصب والهوا طيب[٤٠]	والبشر آت والشجا غادي
قرية إسماعيل بحر الندى	طابت لوفاد وقصاد
عالمها المحمود بحر الورى	في كل إصدار وإيراد
ياليتني كنت مقيما بها	وما حوى ملكي وأولادي
استغفر الله ولكنني	أستوطن[٤١] أرض الملك الهادي[٤٢]
دار الإمارات وأربابها	أبا عريش[٤٣] قامع العادي
مغرس دست الملك من سابق	دع ملك معن[٤٤] وابن عباد[٤٥]
ذاك الحسين الملك المنتقى	خالف آباء وأجداد

فانظر لنجران[٤٦] ولم تستطع	حصر مبانيه بتعداد
زها على غُمْدان[٤٧] في حسنه	وذاك يغري قصر شداد[٤٨]
وكم قصور زخرفت حوله	تروى عن الفخر بإسناد »[٤٩]

وتأتي هذه المقامة على الرغم من ضعف أسلوبها ، واختلاف نهجها مشيرة لحياة الناس في تهامة ، ومدى ما تعودوه في بلادهم من التنزه ، وطلب الرحلة ، إلى جانب ما اشتملت عليه هذه المقامة من الشعور الذاتي الصادق ، وما تضمنته من الفوائد والإشارات التاريخية المهمة[٥٠] .

ولم يكن البهكلي وحده الذي أسهم بهذا النتاج الأدبي في ميدان النثر ، وإنما شاركه هذا العمل الأديب : الحسن بن أحمد عاكش بخطبة نثرية ، قال فيها : « الحمد لله الذي منَّ علينا بأنعمه وتفضل ، وأدر علينا سحائب مواهبه وأجزل ، أحمده على أن جعل في الأرض لنا معاشاً ، وجعلها قطعا متجاورات في الفضل كما شاء ، وأصلي وأسلم على القائل : « اطلبوا الرزق في خبايا الأرض »[٥١] ، وعلى آله وأصحابه القائمين بالمسنون والفرض ، وبعد : فإنه لما كان عام ألف ومائتين وستين في شهر ربيع الأول يسر الله تعالى لنا اختطاط منزل في الخيمة الغراء ، وهو أنزه من حلة القمري ، وأرفع قدراً ، فكانت الأرض المهيأة للعمل منها قريب ، والكل على عرف ضمد الخصيب[٥٢] ، واقتضى الحال بعد كمال المنازل الخروج بجماعة من الأفاضل ، منهم : الأخ القاضي العلامة النحرير الفهامة عز الإسلام محمد بن يحيى بن عبد الله[٥٣] ، والشريف العلامة محمد بن أبي طالب بن أحمد[٥٤] ، وانضم إلى ذلك وصول جماعة من أعيان الهجرة[٥٥] الضمدية ، وتم فيها قضاء الوطر بالنزهة ، وبلوغ الأمنية . وكان في ظلال ذلك المذاكرة دائرة ، وبحار الآداب باللطائف بين الحاضرين زاهرة .

بها ما شئت من دين ودنيا	وإخوان تساموا للمعالي »[٥٦]

ولم يمحض هؤلاء الأدباء المتنزهون رحلتهم للنثر وحسب ، وإنما أسهموا بشيء من نتاجهم الأدبي في ميدان الشعر ، إذ ربما تخلف أحدهم عن الحضور والمشاركة ، فيكون موقفه الاعتذار من إخوانه بشيء من نتاجه الشعري ، وذلك مثلما فعل : علي بن عبد الرحمن البهكلي حين تخلف عن حضور ذلك الاجتماع بمتنزه الخيمة ، إذ أرسل قصيدة إخوانية يعتذر فيها ، ويبين سبب تأخره ، وقد ورد في صدر تلك القصيدة القول الآتي : « ولم نشعر إلا بوصول مرقوم بديع موشى بالتحبير والترصيع من لدن مولانا القاضي

العلامة أديب الزمان الذي لم يختلف في فضله اثنان : علي بن عبد الرحمن البهكلي حماه الله تعالى ، وذيل ذلك بقصيدة فريدة تحت كل لفظة منها درر عديدة يعتذر من الحضور في ذلك الجمع ، ويهدي من آدابه ما عذب من النبع ، فتلقاها الحاضرون بالإكرام ، وأحلوها محل الأنام ، وقاموا لها إجلالاً وتعظيما ، وهزوا لها الرؤوس طربا وتفخيما ، وهذه براعة استهلال تلك القصيدة » :[٥٧]

« نظم تكلف فيه فخم شائب — عاقته عن جمع الكرام نوائب
قد كان يقصد أن يزاور خيمة — في سفحهاقمري[٥٨] الأرائكخاطب[٥٩]
قد لذّ لي حب الخيام ، وإنما — «للناس فيما يعشقون مذاهب»[٦٠]
صحبي[٦١] اقبلوا للعذر مني إنني — لي في قبول العذر حق واجب
لازلتمُ في نعمة وسلامة — ما أمطرت سوح الخيام سحائب[٦٢]

وفي الحقيقة أن ماحملته هذه القصيدة من أسباب الاعتذار ، وملامح الروابط الأخوية ، والمشاعر الذاتية ، ليدل على ترابط المجتمع التهامي ، ووضوح العلاقة بين أفراده ، وخاصة مجتمع الأدباء الذي أوجد هذه المشاعر ، ودعا لمثل هذه الأعمال الأدبية ، فالواقع أن أحاسيس المتنزهين ، الصادقة في ظلال متنزه الخيمة قد دعت نفراً منهم للمشاركة في دفع الحرج عن صديقهم البهكلي ، وأوضحت موقفهم نحوه ، ومدى قبولهمَ لعذره ، وعدم مشاركته لهم ، وذلك بشيءمن نتاجهم الأدبي ، إذ تعارض أولئك الأدباء القصائد ، وتبادلوا القريض ، ولعل من أبرز مَنْ أسهم في هذا الميدان الشاعر الحسن بن أحمد عاكش الذي عارض قصيدة البهكلي السابقة بقوله :

طلعت بروض الطرس منك كواكب — في طيها للسامعين عجائب
حسنت بلاغتها بلطف جزالة — لا شك أن المكرمات مواهب
قد أُعجزت ياذا النهى بفصاحة — ما عندها الصابي يرى والصاحب
أبديت فيها للزمان فوائدا — هي بين تاريخ الزمان غرائب
لا غرو أن أبدعتَ يانور الهدى — فلكم على رغم الحسود مناقب
إنا استفدنا نزهة في خيمة — كملت لنا فيها هناك مطالب
مع رفقة صاروا نجوم معارف — رفعت لهم بين الأنام مراتب
ولكم قضينا في حديث لطائف — يشتاقه من حسن ذاك الراغب
لكنّ عقد الجمع أضحى ناقصاً — إذ أنت عنّا في مكانك غائب

يومان قَضَّيْنَا[٦٣] بأنسٍ دائم والسعد يخدم والسرور مصاحب
هي خلسة في العمر لكنْ غرة في الدهر يعجز في المديح الحاسب
ختمت على خير ونرجو عودها في نعمة ما حف تلك نوائب
ثم السلام عليك ما عُدّت إلى هذي الجهات من الأنام ركائب[٦٤]

ولم يكن عاكش وحده الذي أسهم في هذا الجانب ، وإنما شارك فيه عدد من الأدباء المتنزهين ، حيث ذيل هذه القصيدة السابقة : « القاضي العلامة الفهامة محمد بن يحيى ابن عبد الله حماه الله تعالى بقوله :

أهلا بها من غادة هي كاعب وبحسنها قد حاد عنها الخاطب
وأتى[٦٥] يعدد عذره عن وصلها قد قال في شكواه : فخم شائب
قد لاح من كل الرفاق مشيم لكن ظني أن قلبك عاتب
أما النظام فقد حوت لفوائد لله درك إن فهمك ثاقب
أحرزت أسباب المسمى ياأخي ماذا أقول وكل قولك صائب
فانظر لهاتيك الخيام وسوحها والريح يخفق والحمام تجاوب
وكؤوس أنواع العلوم نديرها ما بيننا إن العلوم مراتب[٦٦]

وإذا كان الشعراء الوافدون على متنزه الخيمة قد أسهموا بشيء من شعرهم في هذا الاجتماع الريفي ، فإن إسماعيل بن أحمد الضمدي ، مختط هذا المتنزه وصاحبه ، قد شارك إخوانه المتنزهين بقصيدة مماثلة ، قال في صدرها : « وقد ذيلت نظام أولئك الفضلاء ، والأماثل الكملاء بهذا النظم اليسير من قلب كسير أتلو فيه تلو البديع ، وإن لم « يدرك الضَّالع شأو الضَّليع »[٦٧] ... »[٦٨] .

زارت على وعد لعوب كاعب قد زان منها بالعقود ترائب
طلعت كما شمس النهار بمطلع كسفت لها عند الظهور كواكب
ذات القوام وربة الحسن الذي يدريه من هو بالحسان مخاطب
بدر تجلّى من مطالع بانه ليلاً فسامره النديم الراغب
وغدا يبث غرامه من شوقه « الناس فيما يعشقون مذاهب »
فأبان عن أصل المنازل سابقاً عن خيمة فيها علت ورغائب
بفوائد التاريخ قد أظهرتها لا شك أن المكرمات مواهب
ولها على ضمد الخصيب مشارف يصبو لرؤيته العجيب الصائب
وبِحَافَةِ[٦٩] الوادي رياض جنانه يهتز من طرب لها المتحابب[٧٠]

وقد أشار إسماعيل بن أحمد الضمدي في هذه الأبيات السابقة إلى قصيدة البهكلي الأولى ، وإلى قصيدَتَيْ عاكش ، ومحمد بن يحيى مشيداً في أبياته بذلك النتاج الأدبي في ظلال هذا المتنزه الريفي ، وداعيا لتلك الأيام بالسقيا ، إذ قال :

سقيا لذياك الزمان وأهله ... وأباحهم حور الحسان تصاحب[٧١]

ولم يكتف إسماعيل الضمدي في هذا المقام بتسجيل تلك المقطوعات الشعرية وحسب ، وإنما أورد في مجموعه الخطي شيئا من المساجلات الشعرية التي دارت بين الحسن بن أحمد عاكش ، وبين الشريف محمد بن ناصر بن حسين ، إذ قال : « وهذه القصيدة » لسيدي أخي القاضي العلامة المحقق الفهامة شرف الإسلام الحسن بن أحمد ، وللشريف العلامة عز الإسلام محمد بن ناصر بن حسين[٧٢] (— ١٢٨٣ هـ) ، كل بيتين لواحد منهما : الصدر للأخ سيدي الشرفي بيتان ، وعلى هذا المنوال »[٧٣] ، إذ قال الحسن بن أحمد [عاكش] :

تجدد الأنس في الآصال والبكر ... والهم زال فنلنا غاية الظفر
إذ صار في الخيمة الغراء منزلنا ... يزهو ، وقاه إله الخلق من غير[٧٤]

فقال محمد بن ناصر :

زهت بشخص قرا في المذهبين معاً ... للضيف خصب وباغي العلم والوطر
كلاهما قد رقى بينما يؤمله ... مراقيا[٧٥] **هي عندي مطمح النظر**[٧٦]

قال عاكش :

وتم فيها لنا ما نرتجيه بها ... من كل صفو خلا عن غصة الكدر
والزهر يبدي لنا حينا تبسمه ... والطير من طرب يشدو على الشجر[٧٧]

فقال محمد بن ناصر :

قد خيما ربوة فيها عوافيها[٧٨] **... أضحى العفاة بها في الخير والحَبَرِ**
وخيم العز حيث الناس قد وطنوا ... فلا تخف في جوار القرم من خفر[٧٩]

قال عاكش :

قد جاورت ضمد المبروك لابرحت ... تغشى أعاليه هطال من المطر
حتى نرى[٨٠] **الماء يمشي في جوانبها ... فإن فيه شفاء السمع والبصر**[٨١]

فقال محمد بن ناصر :

تمسي بها بلد القاضي[٨٢] **الضيا لجحا ... بحيث يمكن سعى السُفْنِ**[٨٣] **بالقدر**

من بعد ذا مسكة سودا زبْرجدها   خضراء ياقوتة حمرا لدى الفكر[٨٤]

قال عاكش :

يتم فيها بـإذن الله مـقصده   حتى ينال الذي يهوى بلا كدر
يطيب فيها جميع الزرع عن طرف   من أبيض يققٍ[٨٥] أو أخضر نضر[٨٦]

فقال محمد بن ناصر :

يضحي بها مجمع الأعيان عن كمل   من أروع ماجد أو أروع حذر
تلقاه[٨٧] أثقل من رضوى بها وبها   سهل الخلائق ما إن فيه من وعر[٨٨]

قال عاكش :

نقص فيها ختام الأنس عن كمل   نروي[٨٩] الأحاديث عن أنسٍ[٩٠] وعن عمر
وننشر العلم والآداب[٩١] مع نفر   أخلاقهم قد روت عن نسمة السحر[٩٢]

فقال محمد بن ناصر :

ما شئت من لُطَفٍ فيها ومن تحف   ومن لطائف علم يانع الثمر
ومن خضير ومن سمن ومن لبن   واللحم سيدها في البدو والحضر[٩٣]

ولم يكتف الأدباء المتنزهون بهذا القدر من المحاورة والمساجلة ، وإنما أفاضوا بشيء من نتاجهم الشعري في هذا الميدان ، إذ يبدو أنهم قد اعتادوا الخروج إلى هذا المتنزه مرات عديدة ، فلقد أشار عاكش إلى أن الأديب خيري بن عمر[٩٤] (١٢١٤ – ١٢٥٧ هـ) قد كاتبه بقصيدة إبان خروجهما إلى ذلك المتنزه ، إذ قال : « ومن بدائعه ما كتبه إليَّ وقد خرجنا إلى قرية الخيمة يماني وادي ضمد »[٩٥] ، ومن تلك القصيدة ، قوله :

أرحني بذكر الروض مبتسم الزهر   ليشرح صدري ما شرحت من الذكر
وهات حديث الغوطة المعنى بها   يماني موجان[٩٦] الخطيب بلا فكر
وما كان في أثناء نزهتك التـي   تنزهتها من فكهة ذكرها يغري[٩٧]
إلى روضها تُزجي القلاص[٩٨] تنزها   وَيُطْلَبُ لا ما في دمشق من الزهر
وفي سوحها للأنس يعقـد مجلس   فما شعب بوان وما فيه من نهر
لعمري قد[٩٩] شرفتم البقعة التـي   نزلتم بها إذ أنتم[١٠٠] غرر الدهـر
بحور علوم قد حوى البر فيضها   ومن عجب أن يحتوي[١٠١] البر والبحر[١٠٢]

وقد أجابه عاكش بقصيدة مماثلة طالعها :

أتت تتهادى نحونا دمية العصر مقلدة غراء بالأنجم الزهر
تقاد[١٠٣] لها من حسنها إذ تبخترت «عيون المها بين الرصافة والجسر»[١٠٤]

ولم يكن عاكش وحده الذي أجاب الشاعر خيري بن عمر، وإنما «أجاب على ذلك القاضي محمد بن أحمد البهكلي[١٠٥]، وأديب العصر القاضي علي بن عبد الرحمن»[١٠٦]، إذ أسهما بشيء من شعرهما في هذا الميدان الأدبي، واستطاعا أن يوقظا في تهامة جذوة الأدب خلال هذه الفترة. فأما الأديب محمد بن أحمد البهكلي، فقد أنشأ قصيدة مماثلة، منها:

هناك ترى الآداب قد قام سوقها فهذا ينادي بالخراج وذا يشري

□■□

فما النزهة الفرا وما مربع الحما[١٠٧] وماذاك من أكناف موجان في القدر
عسى أن هنداً قد تمشت عشية وهزت هزاريها مطوقة القمري[١٠٨]

وأما الأديب علي بن عبد الرحمن البهكلي، فقد أجاب على القصائد السابقة بقصيدة طالعها:

أعز الهدى قد صرت في عصرنا تزري بحبرالورى الزهري وتَشْعُرُ[١٠٩] بالزهر[١١٠]

وكان البهكلي في قصيدته هذه كثير الإشارة إلى من سبقه من الشعراء في هذه الحلبة، وقد ختمت هذه المعارضات بقول إسماعيل بن أحمد الضمدي: «هذا آخر ما أنتجته القريحة من هؤلاء العلماء الأعلام عمر الله بوجودهم الأنام في حلة القمري ... وقد آن لي أن أعارض هؤلاء البلغاء الكرام الأماجد الأفاضل الفخام»[١١١]، حيث أورد مقطوعتين شعريتين، منهما قوله في الأولى:

بأكناف موجان الخصيب جنانه جداولها من تحت جناتها تجري
رياض عهدناها زمرد خضرة على حَافَةِ الوادي بشكل لها يغزي
تنوّع فيها الزهر من كل وجهة «وحمر شقائقها يروقك من نظر»[١١٢]
فطاب بها العيش الهني ومنزل رحيب غدا للضيف في الورد والصدر

وقوله في الثانية:

رهبي بها اليمن الميمون في كمل في غوره جامعاً للقصد بالوطر
وفي زبيد وفي صنعا تداولها رواتها في مجاميع من السمر
أشدتموا الخيمة الفيحاء من درر مدائحا هي عندي مطمح النظر

تاهت بمخلافها المشهور عن كمل   بذي الجهات بذات الشط من نهر

□■□

ولا يزال بها القمريُّ في نعـم   «من أبيض يقق أو أخضر نضر»(١١٣)

ولقد اتسع ميدان الأدب في ظلال تلك المتنزهات الريفية ، حيث حرص المؤرخون ، ومن سلك منهجهم على جمع الآثار الأدبية التي قيلت في رحاب تلك المتنزهات ، ولعل من أبرز أولئك المؤرخين : عبد الله بن علي العمودي (١٢٩٩ - ١٣٩٨ هـ) الذي ضمّن بعض مجاميعه التاريخية شيئاً من أخبار تلك النزه ، وحاول أن يبسط الحديث حولها ، فلقد قال : « وقد أحببت أن أنقل هنا ما وجد بخط القاضي العلامة ضياء المعالي إسماعيل بن أحمد أخي القاضي العلامة الحجة شرف الإسلام الحسن بن أحمد عبد الله الشهير بعاكش رحمهم الله تعالى ما صورته في النزهة الكائنة بأرض القمري من أعمال وادي ضمد ، قال : بسم الله الرحمن الرحيم للوالد القاضي العلامة الفهامة الأديب جمال الإسلام علي بن عبد الرحمن حماه الله تعالى : نحمد الله حق حمده ، وصلاته وسلامه على رسوله وعبده محمد وآله من بعده ، ورضي عن أصحابه القافين سبل رشده ، وبعد : فلما دعانا سيدي القاضي الأوحد ضياء المعالي : إسماعيل بن أحمد إلى نزهته الكائنة بأرض القمري من أعمال وادي ضمد ، نحن وجماعة من الإخوان والأفاضل والأعيان ، وتمشي بنا على سفح ...(١١٤) فيه جنات وعيون وزروع ومقام كريم . فيالها من نزهة دونها روضة حاتم وبقعة سيدة البقاع ، لما حوته من الفخر اللازم ، وقال هذه الأبيات :

أما خضار الزرع فهـو زبرجـد   وطعامهـا المحمـر فهـو المسجـد

لما حوى القمريْ جزيل فضائـل   في ذي الجهات فمثله لا يوجد

استغفر الله العظيم سوى بـلا(١١٥)   د قد أقام بها المليـك الأمجد

أعني بـذاك أبـا عـريش إنـه   دار الخلافـة لا تطـاولها يـد

«وإذا نظرت إلى البقاع وجدتها   تشقى كما تشقى الرجال وتسعد»(١١٦)

فحين رأت محاسن ذلك السفح النواظر ابتهجت الأنفاس ، وانتعشت الخواطر ، فقلت على جهة الارتجال مقطوعتين ، وذيلها الحاضرون والأدباء المجيدون كل واحد بيتين ، فأنشدت مستفتحا ، وقلت مضمنا :

بعثن لأنفاسي رياح الهوى العذري   «عيون المها بين الرَّصافة والجسر»

ومستمعي الأصوات من صادح القمري «جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري»[١١٧]

وقد اختتم العمودي تدوينه لذلك القول بالعبارات الآتية : « هذا ما حرره الوالد القاضي العلامة النحرير الفهامة أديب الزمان جمال الإسلام علي بن عبد الرحمن البهكلي حماه الله تعالى »[١١٨] ، ويبدو أن المتنزهين من الأدباء قد أسهموا بشيء من نتاجهم الأدبي في هذا الجانب ، إذ قيل : « وقال الأخ القاضي الفهامة عز الإسلام محمد بن يحيى بن عبد الله حماه الله تعالى :

ومنّت بصافي الوصل من بعد أن رنت بألحاظها فهي التي بالمها تزري
فياحبذا تلك الليالي ووصلها وسقيا لأيامٍ هي العز في العمر»[١١٩]

ولم تنحصر هذه المساجلة الشعرية بين هذين الشاعرين وحسب ، وإنما أسهم معهما الشاعر محمد بن أحمد البهكلي الذي قيل عنه في هذا المجموع : وقال الوالد القاضي العلامة عز الإسلام محمد بن أحمد البهكلي حماه الله تعالى :

على أهل ذاك السفح من ساكني القمري شآبيب صافي المزن في ليلة القدر
فكم خطرت في السوح بيض كواعب وجرَت ذيولاً بالفصاحة والستر »[١٢٠]

ولم يكن الحسن بن أحمد عاكش يهمل هذه المحاورة دون الإسهام فيها بشيء من نتاجه الشعري ، وإنما سلك نهج زميليه السابقين حيث قيل عنه : « وقال سيدي أخي القاضي العلامة المحقق الفهامة شرف الإسلام الحسن بن أحمد عبد الله حماه الله تعالى :

ليالي[١٢١] وصل قد زها روض أنسها فأوقاتها بالحسن باسمة الثغر
وغنّى على زهر السرور حمائم فأنهارها من تحت جناتها تجري»[١٢٢]

ومما تقدم عرضه ودراسته ، يمكن القول بأن حياة الأدب التهامي في المخلاف السليماني قد ازدهرت في ظلال تلك المتنزهات الريفية ، وخاصة في متنزه الخيمة خلال هذا العهد المتأخر من تاريخ الأدب بتهامة . في غضون النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري .

ثانياً : في زبيد :

ليست منزلة مدينة زبيد العلمية بقليلة ، إذ تعد تلك المدينة من المراكز الفكرية الشهيرة بجزيرة العرب ، ومن حواضرها العلمية الشهيرة ، وليس المقام هنا بمسعف للحديث عنها ، إذ يحتاج ذلك إلى دراسة علمية موسعة ، فالحق أن شهرتها العلمية غير خافية على الباحثين المنصفين ، ولعل هجرة طلاب العلم إليها قد ساعد على إظهار سمعتها

العلمية ، فلقد عُرِفَتْ بأسرها العلمية ، وحلقاتها التعليمية ، وأربطتها المعروفة ، ومكتباتها الشهيرة ، ناهيك عن شيوع مؤلفات علمائها ، واتساع دائرة المذهب الشافعي فيها ، وما أحيط به من اتجاهات مذهبية مختلفة ، وخاصة الصوفية التي وَجَدَتْ في رحاب الشافعية الهدوء والانتعاش ،[١٢٣] وهذا ما ساعد على يقظة الفكر ونهضته بتلك الأنحاء .

وإذا كان المد السياسي لأشراف تهامة قد انبسط حينذاك على بعض بلدان تهامة اليمن ، فإن ذلك الحال قد زاد في يقظة الأدب ونشاطه ، على الرغم من اتساع المد السياسي العثماني الذي كان يراوح تهامة ويغاديها ، ولقد كانت صلة أولئك الأشراف بزبيد وما حولها وثيقة وطيدة ، وخاصة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري ، حيث صاحب هذا الاتصال السياسي شيء من يقظة الأدب ونهضته ، إذ لم تكن تهامة عندئذ فقيرة في علمائها وأدبائها ، وإنما هي تسعد بهدوء ساستها واستقرارهم ، وذلك ما جعل ولاة الأمر المحليين حينذاك يفضِّلون الرحلة ويطلبونها خارج مواطنهم الأصلية ، مثلما فعل الشريف الحسين بن علي بن حيدر في خروجه إلى متنزهات مدينة زبيد ، وما أحاط بتلك الرحلة من المظاهر الأدبية ذات الملامح المحلية ، إذ صحبة الأدباء ، والأعيان ، وسار في ركابه النبلاء من أهل تهامة ، مما أوجد آثاراً أدبية غير محدودة ولا قليلة . وذلك ما دعا الأدباء ومؤرخي الأدب والمهتمين بجمع التراث إلى تدوين ما جرى في تلك الرحلة ، وإلى رصد الآثار الأدبية التي قيلت عندئذ في ظلال تلك المتنزهات الريفية . مثلما فعل القاضي الأديب محمد بن علي العمراني[١٢٤] (١١٩٤ - ١٢٦٤ هـ) في مجموعيه : « تقريظ عقد الجمان »[١٢٥] ، « ولهجة المستكن بالوطن بأخبار من رحل في طلب المعالي وظعن »[١٢٦] . إذ جمع العمراني فيهما نتاج الأدباء المتنزهين في هذه الرحلة ، وما قيل حول ذلك النتاج من تقريظات أدبية ، وذلك ما حفلت به تلك الرحلة المقصودة لبعض متنزهات زبيد ، مثل : المغرس[١٢٧] ، والنخيل[١٢٨] . ومما قال العمراني في شأن رحلة الشريف الحسين بن علي بن حيدر إلى زبيد ومتنزهاته : « فزحَفَ راسخ وقادها بجماعَتِهِ إلى نُزْهة المَغْرَس ، وحلَّ شامخُ بَدْرِها بين هالتِهِ في ذلك الوجه الأرْغَس ، وجُلِيَتْ غادات الزهور على منصَّات الحُبُور في أشرف مجلس ، وألطف مأْنس ، وجُلِيَت إلى أشواق الإنفراح ، ما يحس أشواق الارتياح إلى بذل النفيس في اقتناص الأنفس ، وتمَّت فيه حصة اخْتُلِسَت من عابس الدّهر ، ونمت ما بعثَ الأفراح بما نفخه في صُور البشر ، ونفثَ في وجه الأتراح حتى شدخه

بصادم الفِهر ، وتناقلت صوالج الذَّكاء كُرَةً من الآداب لا ينالها غير مسامر الزهر ،
وتناولت أيدي الافتتان بتلك الخرائد من طريق من سلك طريقا في المعالي عزّت على
غيره ، وقطع الأيام والليالي فيما ساد به مَنْ جَدَّ في سيره ، وتحلَى إلى شرف محتده
بكل طريف ... »[١٢٩] .

وإذا كان الشريف الحسين بن علي قد استقر في متنزه المغرس خارج مدينة زبيد
فإنه لم يلبث حتى فضّل الانتقال إلى متنزه النَّخيل ، حيث قيل في تلك الرحلة : « ...
فلم يلبث أن إنْتَهى سيره إلى النّخيل فتلقتهم الحدائق ، ورقّتهم إلى الحقائق بوجه جميل ،
ومُدَّ إذ ذاك بساط السَّمر ، وَهُيِّءَ ما يحتاج إليه في حصول السُّرور ، ويتم به نشاط
السَّهر ، وأُطْلعت الشموس من أصناف الأَضواء ، وصُرِفت أوجه العبوس ، وطابت
الأهواء ومكى مجلس اللَيل موقف النهار ... »[١٣٠] ، ومن الواضح أن هذا الشريف قد
لبث أياماً في متنزه النخيل ، إذ قيل عن مقامه : « ودام هذا أيام السُّرور ، وهي
قليلة »[١٣١] ، حيث فضل الرحيل ، والعودة إلى زبيد ، إذ قال العمراني : « ورام بعد
ذلك الأَسد الهصُور أن يراجع غِيْله ، فأزمع على قصد مدينة زبيْد ، وقد تزود كل
من ذلك الرَّعيل ما يُنشِّطُهُ تَذَكُّرُهُ إلى معاودة تلك البيد ، فلا زالتْ تكرر أيام مسرته
بما يفوت الإحصاء ، ونالت أفياء دوحة دولته الأدمي والأقصى »[١٣٢] .

والحق أن تلك المشاركة الأدبية في ميدان النثر التي أسهم بها أولئك الأدباء ، قد
نالت إعجاب كثير من معاصريهم الأدباء إذ أخذوا في تقريظهم والثناء على نتاجهم الأدبي
سواء أكان ذلك تعارضا بينهم ، أم كان من غيرهم ، ولعل من أبرز من تناول هذه
الآثار الأدبية بالتقريظ الأديب محمد بن علي العمراني ، وعلي بن عبد الرحمن البهكلي ،
ومحمد بن المساوي الأهدل . أما العمراني فقد قال : « وقفت على هذا المؤلف وقوف
شحيح ، لما عكفت بين من تخلف عن الانتظام في سلك ذلك الجمع الصحيح ، وقنعت
قنوع الكسعي بالأثر ، ونقعت غليل الظمآن بالتفكير في تلك الدرر ، ذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء ، ونلت من وابل تلك المقامات رشاش من ركب إليها ومشى وأقعدني
ضعف الحواس ، وأبعدني ما فرّغني إلى إصفاء تلك الحواس ، فالتقطت من تلك الجمان
ما أنست به في الغربة ، وانتقلت إلى خزانة الجنان ما أدفع به الكربة ... »[١٤٨] ، وأما
البهكلي ، فقال : « ... اطلعت على نُسْخَةٍ وصلت من اليمن الميمون ، أودعت من بدائع
الآداب السر المكنون ، اهتزت لها الأعطاف طربا ، وابتهجت بها النفوس ، ومشت
لخدمتها الأقلام على الرؤوس . وقال الناظر لها لا عطر بعد عروس ، اشتملت على قصائد

ومقامات ، صارت على تقدم قائلها في الأدب من أوضح الأدلة ، وأقوى الدلالات ... وقد جعلت هذه اللفيظة تقريظا لما حوته تلك النسخة الظريفة ، ورقمتها في ورقة مستقلة عن أوراق النُّسخة ، لتكون قائمة بخدمتها في حكم الوصيفة »[١٤٩] .

وفي الحقيقة أن تلك النزهة قد دعت كثيراً من الأدباء إلى المشاركة في ميدانها بشيء من نتاجهم الأدبي ، ومن أولئك الأدباء : الحسن بن أحمد عاكش الذي : « تفنّن في التعبير عما احتوت عليه هذه النُّزهة ، وتلاعب بأساليب الكلام نظماً ونثراً ، عما وقع في هذه البرهة .. فطابق تلك الحدائق بحدائق ذات بهجة ، وسلك من رشيق الطرائق ما أعيا غيره أن يؤم نهجه ، فحدث به الركبان ، وتناقلته الرواة بكل مكان »[١٣٣] ، فلقد أنشأ هذا الأديب في هذه الرحلة مقامة أدبية قال عنها محمد بن علي العمراني : « هذه المقامة البديعة من إنشاء القاضي العلامة المحقق الفهامة شرف الإسلام سيدي حسن بن أحمد عبد الله أطال الله بقاءه ، جعلها لما خرج مولانا ــ إمام العصر ودرّة تاج الفخر أمير المؤمنين الشريف الحسين بن علي بن حيدر حفظه الله ، وأمتع به المسلمين وأهله ــ مِن مدينة زبيد للتّنزة إلى المغرس والنخيل والتفكه بظلهما الظليل »[١٣٤] . ولم يكن عاكش وحده الذي شارك في هذه النزهة ، وإنما أسهم معه الأديب عبد الرحمن ابن محمد العمراني[١٣٥] بمقامة أدبية ، قال فيها : « لقد اختص بصروف مخبره ، ومطابقة الواقع لمخبره ، فإنه وصف مجلساً هبَّ فيه نسيم الرَّوح ، وضربت خيام الأنس بذلك السَّوح ، وتمايلت أفنان أشجاره وتفننت مطربات أطياره ، ودارت به كؤوس الآداب ، وأدار كوكب المحاضر كلما يستغرب ، تشرف ذلك المجلس ، وصار بالسعادة أهلا ... وافتخر على أبناء الجنس بحضور بدر الهالة وواسطة عقد سلاسلة الرسالة البحر الزّخار لمبتغي العلوم والغيث المدرار ... »[١٣٦] .

وبما أن هذه الرحلة الريفية قد طار ذكرها ، وعلا شأنها ، فإن عدداً غير يسير من أدباء تهامة قد أسهموا في ميدانها بشيء من نتاجهم الأدبي ، ولعل مَن أبرز أولئك المشاركين الأديب محمد المساوي الأهدل[١٣٧] الذي أسهم عندئذ بمقامة أدبية ، منها : « فلهذا زين النزهة في الرّبيع إلى النخيل لأنه الربيع إلى النخيل لأنه الربيع المناسب لخلقه الجميل ، فاختاره واقتصر عليه ، وشبه الشيء منجذب إليه ، فلما ألقى عصا التعيار مولانا في المغرس الآهل ، طفق الجنوب يباهي الشمال ويباهل ، ويناشده عند تنسمات رويحات الأصائل بقول القائل[١٣٨] :

أتفهم ما تقول لك الجنوب — وليس لسانها إلا الهُبوب

تقول أنا الرسول إليك سِرًّا بما قد كان شافهني الحبيبُ
أتيت ومنه في بردي حديث له أرج على عطفي وطيب
فملت ، وقلت من طربي وسكري : أتيت بما تسر به القلوبُ

فأوما[١٣٩] له الشمال برغبة إلى وادي الشعبة بما أغراه بالتبكير قبل التهجير :

أقول إذا تذكّره فؤادي هوى حيث الأراكة والكثيب

فحدا إليه مطى العزم مولانا المشار إليه ، فوثق بالله وتوكل عليه ، فكان الرهط كلما حجم جواد أحدهم على معهد مر عليه دارس يناشده خليفتنا الشرفي الفارس بما يقتضي به الليث العابس :

ليس الوقوف بنافع في دمنةٍ سنحت[١٤٠] به بعد الدما الآرام
قد كان ذلك منّة لأولى الهوى فمحت بشاشة وجهها الأيام

إلى أن استقر به النّوى ، واستولى على كثبان الشعْبة واستوى ، أنال المتنزهين من طرف النخيل ما ملأ العيون ، ودرى بذلك في نحر من شكر في تقصيره ، وظن به الظنون لأنه قد أخذ من عبد مناف مصاصة ، ومن هاشم الزبّدة والخلاصة ، وقفا في الإيثار آثار من ﴿ **يُؤْثِرونَ على أنفُسِهِم ولَو كَانَ بِهِم خَصَاصَة** ﴾[١٤١]، ثم إن حريري زمانه رمز إلى أن ذلك البدر عاد إلى منزله بالحُصيب ،[١٤٢] بعد أن كان هو نفسه فاكهة لفواكه الأهواب[١٤٣] والهويب[١٤٤] منشداً حاديه في ناديه

لله أيام الحصيب ولا خلت تلك المعاهد عن صبا وتصابي
لا عيش إلا ما أحاط بسوحه شط الهويب وشاطئ الأهواب[١٤٥]

لازال مقيماً للثناء مشوقا[١٤٦] ولأهل العرفان والعوارف معشوقا ما غردت ساجعة البواكِر والأصائل ... »[١٤٧] .

وأما الأهدل فقد ، قال : « ... أما بعد فإني وقفت على مقامة قامت قيامة حاسدها ، وقد أقامت في سوق البضائع نافقها على كاسدها ، كأنها دمية من مرمر أو صورة من عاج أو غادة لطرفها سيرة الحجاج تحقر ، ترصيع الألمعي المفيد ، ولا تبقى في قوس البلاغة منزعاً لعبد الحميد[١٥٠] ، طامسة لحظ خط : الفاضل[١٥١] . وابن العميد[١٥٢] ، ومن ادّعى اتقان الأدب من أزال[١٥٣] ، وزبيد ... »[١٥٤] .

ولم يقتصر هذا النتاج الأدبي كذلك على النثر وحسب ، وإنما شمل الشعر ، إذ يبدو أن الشعراء حينما أدركوا هذا النشاط النثري سعوا في مماثلته بشعرهم ، إذ يبدو أنهم

شاركوا في هذا الجانب ، وخاصة بعيد انقضاء تلك الرحلة ، إذ نظم أحدهم[١٥٥] قصيدة : « ضمنها من أنواع البديع بالعجب ، وأتى بكل معنى لطيف مستعذب ، وأسكن أبياتها المشيدة من أنواع البديع كل خريدة ، فاطلع عليها السيد العلامة الأديب الأجل الأمثل محمد المساوي بن عبد القادر الأهدل فعارضها بقصيدة عامرة المغاني بمستجاد المعاني ، يقول لسان حالها : كم ترك الأول ، وشجّر في أوائل كل بيت اسم الممدوح »[١٥٦] ، ولما اطلع عليها القاضي المولى الحسن[١٥٧] عارضها بقصيدة ألقى إليها البلاغة كل ذهن الرسنِ ، وتجمعت فيها من البلاغة أفنان ... عن مدح ما حوته من لطائف ما حوته من لطائف المعاني ، والبدائع اللسان مع التزام التشجير[١٥٨] ، وبلغت سبعاً وثمانين بلا نكير ، فلما اطلع السيد محمد طرب والكريم طروب وجعل قصيدة أخرى على بحر المديد ، وجعل في أول الصدر وأول العجز مشجراً باسم الممدوح[١٥٩] ، ثم إن القاضي الحسن[١٦٠] عارضها بقصيدة تستوقف المستوفز عن مجاوزة رياضها مع التزام ما التزمه السيد[١٦١] ، ثم جعل قصيدة في بحر الطويل ، اخترع فيها ما لم يسبق إليه ، ولا يلحق فيه ، ولا يقاويه عليه أيد ، وهو أنه سيخرج الناظر من أوائلها بيتاً من الشعر من بحر الخفيف .

ومن أوائل الشطر الآخر بيتا كذلك[١٦٢] »[١٦٣] ، وقد دعا هذا العمل الفني في ميدان الشعر إلى جمع ذلك النتاج الأدبي في مجموع ، قال عنه العمراني : « ثم تاقت النفوس إلى ضم تلك القصائد إلى بعض لتكون نزهة للأحداق ، ورياضا في صفات الأوراق »[١٦٤] ، ومن تلك القصائد التي قيلت – على سبيل المثال – في هذا الشأن قصيدة الحسن بن أحمد عاكش التي يقول فيها :

فَسِرْ من زبيْدٍ غير وانٍ مشمِّراً ... ولا تتوقَّفْ في المسير مع الرَّكْبِ
وعَرِّجْ على سفح الحديدة ناشِراً ... سلامي على حاوي العلا المفْرد النَّدْبِ

□ ■ □

وشُدّ إلى نحو اللحيّـة مسْرِعـاً ... ففيها الشريف القرم منقطع التّرب
وبكّر بها حتى تبيت على أبي ... عَرِيْشٍ محطٌ العزّ قطعا بلا كذب
وصفْ مضمر الأشواق والوصف منعة ... لمضمره لكن ظاهره ينبي[١٦٥]

وقد عارض هذه القصيدة الشاعر محمد بن المساوي الأهدل بقوله :

أعد لي حديث البان والمنزل العذب ... ولا تَحْسَبَنْ ذكراهما منتهى حسبي

لأن لبانـــاتي كـــثير عديدُهــــا أقسِّمها في كل يوم على رَكْب
حنين إلى الجَرْعَا[١٦٦] وشوق إلى الحِمَا ووجد بذي الشطين من أيمنِ الشعب
سُلوِيْ[١٦٧] بعيد بعدما شطَّ مربعي وبرق الغَضَا في قلبه منيةُ القرب
يؤرقنـي ذيّـالك اللاّمـع الـذي له شرف من فوق راجمة الشهب
بعيشك حدث عن ثنية ثَهْمد[١٦٨] ووادي زرودٍ[١٦٩] والنقا[١٧٠] وعن الكثب
لك الثّغر يابرق الغوير[١٧١] وبارق وللمزن ما خص العذيب من العذب

□■□

دعا فأجابته الحمامات عن يـد وناخ فأهداه النّحيب إلى النّحب
رعى الله أياما تقضَّت بحَاجِرٍ[١٧٢] وما بيننا غير الرسائل والكتب
أتيه بها في كل نادٍ على الورى وأفخر بالمولى الحسين على القُطْب[١٧٣]

ولقد تعارض هذان الشاعران القريض ، وبدلا في ميزان نظمهما ، حيث أسهما بما يشير إلى الفراغ الذي كانا عليه حين تعارضا هذا الشعر ، ويبدو أن هذا النتاج الشعري قد أعجب نفراً من شعراء تهامة ، ودعا إلى معارضتهما ، إذا قيل في هذا الجانب : « وهذه القصيدة للأخ العلامة الأديب : عبد الرحمن بن محمد بن علي العمراني عافاه الله تعالى عارض بها القصائد البائيات المتقدمات »[١٧٤] ، ومن الواضح أن الإعجاب بهذا الحال الأدبي قد زاد في تقريظ هذا النتاج الأدبي بوجه عام ، وجعل الأدباء بعامة يسهبون في الثناء عليه ، ويطنبون في الحديث عنه ، وعلى رأس أولئك الأدباء : محمد ابن علي العمراني نفسه الذي يقول في صدر مجموعه السابق : « فأمّا الشريف السوادي ، فقد خلّف البياضي وراءه ، وأتى بالمرتضي من القريض ، فلا تجد إلا الرضا بما نحاه . وأما الشريف الأمير فقد حكى أبا فراس في إجادة الشعر وقيادة النّفير ، وشتان بين من جدّه ربيعة ، ومن جده البشير النذير ، وأما القاضي البهكلي فقد أتى بما عليه ونضح مما إناء به ملي ، وأتى من لطف المسلك بما يروق الناظر ، ويفوق في تربية السرور ، وترويح الخاطر ، فما أخف روحه ، وما أعف سوحه ، وأما وأما[١٧٥] فقد أجاد كل لمّا ، وأحسن فيما قصد ... »[١٧٦] ، ولقد أسهب هذا الأديب في معرض حديثه عن هذه النزهة ، ومَنْ شارك فيها من الأدباء المحليين بتهامة ، وهذا العمل يؤكد أثر المتنزهات الريفية في حياة الأدب ، ويدل على مقدرة الأدباء ، ومحبتهم لمثل هذه الظواهر الاجتماعية المحلية ، فالحق أن هذا الواقع الأدبي يزيد في يقظة الأدب وفي نشاطه ، ويشير إلى حال تهامة الفكري في هذه الحقبة المتأخرة من تاريخ الأدب العربي .

الخلاصة :

يتبين من هذه الملامح الأدبية السابقة وضوح أثر المتنزهات الريفية في يقظة الأدب ونهضته في هذا الجزء المنسي من جزيرة العرب ، فلقد مر زمن على معظم الدارسين المحدثين ، وهم يجهلون واقع الأدب التهامي في قرونه المتأخرة الماضية ، إذ هم عندئذ يصفونه بالضحالة والضعف ، وذلك ما وسم دراساتهم بالمبالغة والتعميم ، ولعل ما يمكن عمله في هذا الجانب العلمي المهم السعي في توجيه الدارسين إلى الدراسة العلمية الميدانية ، وصرفهم عن الدراسات المكروورة المعروفة ، ولن يتسنى هذا الأمر إلا بتوفيق من الله تعالى ، ثم بتشجيع من المؤسسات العلمية الجادة ، شريطة وجود الباحث المخلص لعلمه وفنه .

ومهما يكن من أمر فإن الناظر في تلك النصوص السابقة يلمس مدى ما ناله الأدباء حينذاك من الرعاية والتشجيع ، ويدرك عندئذ قوة الترابط الاجتماعي بين أولئك الأدباء ، وحرصهم على إنعاش الأدب بما يجري في منتدياتهم الريفية ، وذاك مظهر حضاري مناسب ، كذلك يلمح الناظر في هذه النصوص أهميتها التاريخية ، وما اشتملت عليه من إشارات وفوائد مختلفة ، إذ هي لم تخل من الفوائد العلمية المهمة ، كما يلمس الباحث في ميدان هذه الآثار المخطوطة وضوح ملامح البيئة التهامية ومعالمها ، ومدى أثرها في حركة الأدب خلال تلك الفترة ، فلقد تلون نتاج الأدباء في تهامة حينذاك بشيء من آثار البيئة المحلية ذات الملامح الريفية المميزة ، بالإضافة إلى أن هذه الدراسات الأدبية الميدانية قد تسد شيئاً من النقص الواضح في تاريخ الأدب العربي الحديث الذي يعوزه التقصي والتحقيق ، وخاصة في البيئات الأدبية المهملة في العهود المتأخرة ، إذ يمكن لتلك الدراسات الميدانية أن تسهم في إثراء ذلك التاريخ الأدبي .

وفي الحقيقة أن هذه الملامح المختصرة لم تكن خالية من آثار الضعف الأسلوبي ، ولا من ملامح التقليد والاتباع ، وإنما هي تمثل مستوى الحياة الأدبية في تهامة من حيث المنزلة الأدبية ، وخاصة مستوى الأسلوب والأداء الفني ، على الرغم من وضوح ملامح الجدة في مضامين ذلك النتاج الأدبي ، فلقد اعتاد أولئك الأدباء ارتياد مثل تلك الأماكن الريفية ، حيث أسهموا بشيءمن نتاجهم الأدبي في ذلك الميدان ، وهذا ما جعل هذا العمل الأدبي يعد من أسباب إنعاش الأدب ويقظته ، وربما يدرك الناظر في هذا التراث مشقة البحث في ميدانه ، سواء أكان ذلك في أسباب الحصول

عليه ، أم في تقويمه ودراسته ، فهو لم يسلم من إهمال النساخ وعدم رعايتهم له ، وهذا ما ساعد على وقوع الأخطاء اللغوية والإملائية والعروضية فيه ، مما يعكس مستوى التدوين وسبله ، والله المستعان ، وهو السميع العليم .

□ ■ □

الهوامش والتعليقات :

(١) مثل : الأحساء ، والقطيف ، ونجد [الدّرعية] ، الحجاز [الحرمين الشريفين] ، عسير [جبال السراة] ، تهامة [رجال ألمع ، المخلاف السليماني ، تهامة اليمن] ، اليمن [صنعاء وما حولها من المناطق الزيدية] .

(٢) يراد بهذا القول أطراف الجزيرة العربية ، وخاصة جنوبها .

(٣) يراد بتهامة في هذا المقام : بلدان المخلاف السليماني [جازان ، وضمد ، وصبيا ، وأبو عريش] ، وبلدان تهامة اليمن [زبيد ، وبيت الفقيه ، والمراوعة ، وما حولها] .

(٤) وخاصة فترة إمارة الشريف الحسين بن علي بن حيدر (١٢٥٤ ـ ١٢٦٤ هـ) .

(٥) الشريف الحسين بن علي بن حيدر بن محمد بن أحمد بن محمد بن خيرات بن شبير بن بشير بن أبي نمي الصغير ، ولد سنة ١٢١٥ هـ/١٨٠٠ م ، نشأ محباً للعلم والمعالي . تولى الإمارة بعد وفاة أبيه في الخامس عشر من شهر جمادى الثانية ١٢٥٤ هـ/١٨٣٨ م حتى عام ١٢٦٤ هـ/١٨٤٧ م ، قال عنه عاكش : « تولى القطر التهامي من حدود : المخا إلى حدود بيش مدة من الزمان ، وشيد أركان الإسلام ، وهدم طواغيت الطغام ، وانتشر العدل في أيامه ، وتفيأت الناس ظلال الأمن في كل مكان من بلد ولايته ، ونصب القضاة العدول في كل بلد ، ونفذت أمور الشريعة على الرفيع والوضيع ، وعمرت في زمانه مدارس العلم » ، « عقود الدرر » ٤٥ ، عرف بمحبته للأدب والأدباء ، كما اشتهر بشغفه لجمع الكتب واقتنائها ، قال عنه العقيلي : « كان مشجعا للأدب مقرباً لذويه ، فانتشر ذكره في البلاد المجاورة ، فقدم إليه بالمدائح غير واحد من : الحجاز ، واليمن الأعلى » ، « تاريخ المخلاف السليماني » ٥٢٢/١ ، أُقصي عن إمارة بلاده في شهر محرم سنة سبع وستين بعد المائتين والألف ، حيث ارتحل إلى استانبول ، وقد خير في الإقامة فيها أو في غيرها ، فاختار مكة المكرمة ، حيث مات بها في يوم السبت السابع عشر من شهر المحرم سنة اثنتين وسبعين بعد المائتين والألف من الهجرة . انظر ترجمته في : « الديباج الخسرواني » ٢٠٧ ، « والذهب المسبوك » ، و « عقود الدرر » ٤٥ ، و « حدائق الزهر » لعاكش ، « وتاريخ المخلاف السليماني ٥١١/١ ، وأضواء على الأدب والأدباء في منطقة جازان ٤٢/١ للعقيلي ، « ونيل الوطر » ٣٨٩/١ لزبارة .

(٦) إسماعيل بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز الضمدي ، ولد سنة ١٢٢٢ هـ/١٨٠٧ م تلقى العلم على يد نفر من علماء بلده ، من أمثال : الشريف بشير بن شبير الحسني ، والحسن بن أحمد بن عبد الله الضمدي [عاكش] ، والقاضي محمد بن علي العمراني ، قال عنه أخوه عاكش في « عقود الدرر » : « هو الأخ الشقيق والسالك في حياته أحسن طريق لما قدم والدي رحمه الله من المدينة المنورة ، وقد ألمّ به المرض فحمل إليه وهو في أربعين يوماً ، فقال ما سميتموه ، فقالوا سميناه : [علياً] ، فقال : بل اسمه إسماعيل ، ثم تلى قوله تعالى : ﴿ الحَمدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ ... ﴾ [من آية ٣٩ سورة إبراهيم] ، فقيل له إن شاء الله تعالى يقع لك غيره من الأولاد ، قال : هذا آخرهم ،

وكان الأمر كما قال ، فإنه توفي بعد ذلك ، ونشأ المترجم له على الطهارة والعفاف ، قرأ القرآن وأختمه ، وهو دون التكليف ، واشتغل بطلب العلم فأخذ بعض المختصرات النحوية على علماء البلد ... » ٣٣ ، اختط قرية الخيمة عام ١٢٦٠ هـ/١٨٤٤ م ، وله محبة في الأدب واشتغال به ، ولم أقف على تاريخ وفاته ، فيما بين يدي من مؤلفات ، انظر أخباره في : « نيل الوطر » لزبارة ٢٥٧/١ .

(٧) من بلدان تهامة الشهيرة ، ومن مراكز الفكر المعروفة بالمخلاف السليماني في القرون المتأخرة ، قال عنها أحمد بن حسن عاكش في رسالته : « منحة الضمد في الميسور من حديث ضمد » : « وضمد ، قال صفي الدين عبد الرحمن بن عبد الحق البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩ هـ في كتابه « مراصد الاطلاع عن أسماء الأمكنة والبقاع » : إن ضمد بالتحريك من قرى عثر من جهة الجبل ، وبالفتح والسكون موضع بناحية اليمن ، بين اليمن ، ومكة عن طريق تهامة ، والضَّمْد موضع من جيزان ... وقال نجم الدين عمارة اليمني : عثر وحلي ، والشرجة ، من أعمال زبيد في شمالها ، وتعرف بأعمال ابن طرف ... وقال جدنا شيخ الإسلام حسن بن أحمد عاكش بالديباج الخسرواني ... ضمد واد باليمن تسكنه خزاعة انتهى ، ثم قال : ولا شك أنه الوادي المعروف بين وادي صبيا ، وجازان ، وهو وادٍ مبارك مشهور بالخير والبركة ، وفي شرح الخمر طاشية على قول :

واها لقوم غالهم صرف الردى ... والتحقوا بضمد وبصدا

ضمد وصدا هما قبيلتان من مذحج إلى أن قال : وضمد بن يزيد بن الحارث بن خالد بن مذحج ، ولا يبعد أن يسمي الوادي باسم ساكنه ... » انتهى ورقة ٢ ، قلت : وهو من مدن جازان اليوم ، ومن أوديته الكبيرة ، وفي هذا المصدر السابق ورد القول الآتي : « ... ثم إن التاريخ يبرهن لنا أن ضمد قديما وحديثا حسيب العنصر في مرتبع الشرف ، إذ يتكون منه غالبا صالح المخلاف السليماني بنشر العلوم ، وحسم خلاف الفشل والاعوجاج ، ودرس منظره الطبيعي يمليك إعجاب النعمة شكر لوسع مساحة حدائقه عن جنبتيه من الشمال والجنوب مسترسلاً بنظراتك آكام الختاور إلى غربي العشور ، فالبحر ، ويطربك تلاعب أثيلاته طَولاً وطُولا ، إذا حركتها نسيمات صباها ، وهبوب شتاها ، سيما زمن تدفق السحب ، وزينة زهوها بجميل حلل الزرع في ضياء تهامة ... ولله العلامة القاسم بن قنبر رحمه الله حيث ، يقول :

ما ضمد ياصاح إلا جنة ... فهل تساوي جنة جهنم
نسيمها وتربها من عنبر ... وماؤها الكوثر عذب شبم
إذا تغنى سحراً [قمر] بها ... [أيقظ] فيا من رجال نغم
وإن تلى الأسحار في مسجدها ... قال بها عنك يزول السقم

إلى أن قال :

لا يهتكون حرمة الجار ولا ... يعرف عيب منهم [وفيهم]

... ويقول محمد بن المساوي الأهدل من قصيدة له مثبتة « بنيل الوطر » :

ألا إن السواري والغوادي ... قرى للحاضرات والبوادي
سقى ضمد الخصيب ملث وبل ... بها وسقت هنالك كل وادي
مساحب كل منتهم دلوف ... وملعب كل منسجم العهاد

وفي مكاتبة لجدنا حسن بن أحمد عاكش إلى أخيه يقول أيام إقامة له بزبيد :

تألق ساري البرق الشمالي ... على « مَحْبُوبَةٍ » جنح الليالي

فهيجني إلى تلك النواحي ... وجلّى من همومي واشتغالي
بلاد جنة لمن ارتضاها ... ولم يسمع لحسّاد وقالي
لها ضمد الخصيب أجل واد ... يسقّيها فتنبت كل غال
بلاد قد حماها آل يحيى ... بأسياف وأطراف العوالي
لهم فضل مضى في الناس طرا ... وجود مثل سحاب هطال

هذا ولا ريب أنه يشخص لك مركزها ما في العمران العربي أثر حصن الحمى ، وقلعة الشقيري ، وحصن ضمد ، المسمى بزهوان ، كما يقابلها من الجانب الآخر قلعة محبوبة ، وحصن مختارة عنوانا حيويا في التاريخ ، وذات ملاحم في العصر القديم » ورقة ٤ ، ٥ . انظر حديثا عن ضمد في : « صفة جزيرة العرب » للهمداني ، و « الديباج الخسرواني ، وعقود الدرر » لعاكش ، و « المعجم الجغرافي » للعقيلي ، و « النهاية » لابن الأثير ، و « المقامة الضمدية » للبهكلي ، و « معجم البلدان » لياقوت الحموي .

(٨) قال العقيلي في « معجمه الجغرافي لمنطقة جازان » : بأن « القمري » القرية الواقعة على عدوة وادي ضمد الجنوبية كانت تسمى الخيمة ٣٤٩ .

(٩) قال البكري : « زَبِيْد بزيادة ياء بين الباء والدال ، وضبط حروفهما : بلد معروف باليمن » « معجم ما استعجم » ٦٩٤/٢ ، وقال عنها الديبع : « بلاد العلم والعلماء والفقه والدين والصلاح والخير والفلاح » ، « بغية المستفيد » ٣٣ ، وأضاف إلى ذلك قوله : إن « أول من اختط المدينة محمد بن عبد الله بن زياد الأموي بأمر سلطانه عبد الله المأمون بن هارون الرشيد في يوم الاثنين الرابع من شهر شعبان سنة أربع ومائتين ، وأول من أدار عليها سوراً الحسين بن سلامة وزير ولد أبي الجيش » ، « بغية المستفيد » ٣٥ ، وقال عنها الزمخشري بأنها : « أرض عك » ، « الجبال والأمكنة والمياه » ١٦٥ ، ووصفها ابن بطوطة بأنها : « مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا ، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ، ولا أغنى من أهلها . واسعة البساتين ، كثيرة المياه والفواكه والموز وغيره ، وهي برية لا شطية ، إحدى قواعد بلاد اليمن ، مدينة كبيرة العمارة ، بها النخل ، والبساتين ، والمياه ، أملح بلاد اليمن وأجملها ، ولأهلها لطافة الشمائل ، وحسن الأخلاق ، وجمال الصور ... » ، « رحلته » ١٦٥ . وانظر : « معجم البلدان » لياقوت ١٣١/٣ .

(١٠) يراد بجنوبي الجزيرة العربية في هذا المقام : عسير ، وتهامة ، واليمن .

(١١) يراد بعسير : القبائل المنتشرة في جبال السراة ، والممتدة من زهران في الشمال ، حتى ظهران في الجنوب : انظر : « تاريخ عسير » للنعمي ، « وفي بلاد عسير » لفؤاد حمزة ، و « ملامح الحياة الفكرية و الأدبية في عسير » للباحث .

(١٢) تقع بلدة رِجَال ألمع في غرب مدينة أبها من عسير ، وهي أزدية النسب ، عرفت في القرون المتأخرة الماضية بحركتها العلمية ، وخاصة عند علمائها من آل بكري العجيليين ، ومنهم آل الحفظي ، وتتكون هذه البلدة في وقتنا الحاضر من عشر قبائل يمثلون : رجال ألمع الشام ، ورجال ألمع اليمن .
انظر : « رجال ألمع من مراكز الفكر والأدب » للباحث ، مجلة الفيصل ، ع ١٠٩ ، س ١٠ (رجب ١٤٠٦ هـ) ص ١٠٩ . و « في ربوع عسير » لمحمد عمر رفيع ٦٩ . و « بلاد عسير » لفؤاد حمزة ١٥١ .

(١٣) « الحسن بن أحمد بن عبد الله ، المعروف بعاكش : مؤرخ يماني ، من أهل ضمد في تهامة اليمن ، ولد ونشأ فيها ، وانتقل إلى زبيد فصنعاء ، وتوفى بمدينة أبي عريش » ، « الأعلام » للزركلي ١٨٢/٢ . وفي

« معجم المؤلفين » لعمر رضا كحالة ، قيل : « ... الحسن بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن الحسن بن الحسين بن محمد بن يحيى بن محمد بن علي بن عمر بن محمد بن يوسف الضمدي التهامي المعروف بعاكش ، محدث ، حافظ ، مؤرخ ، ناثر ، ناظم ، مشارك في أنواع من العلوم ، ولد في آخر سنة ١٢٢١ هـ . من مؤلفاته العديدة روض الأذهان ، شرح نظم المدخل في المعاني ، والبيان ، نزهة الأبصار من السيل الجرار ، الديباج الخسرواني في ذكر أعيان المخلاف السليماني ، عقود الدرر في تراجم رجال القرن الثالث عشر ، وحدائق الزهر في ذكر الأشياخ أعيان العصر والدهر » ٢٠١/٣ . قال عنه العقيلي : « ثم رحل إلى مكة المكرمة ، ودرس على علمائها ، ومن مشايخه بها العلامة محمد بن ياسين ، كما رحل إلى بيت الفقيه وزبيد ، وصنعاء وغيرها ، ثم عاد إلى وطنه في عهد الأمير علي بن حيدر الخيراتي الذي أصبحت حالة المخلاف في عهده تأخذ سبيلها إلى الهدوء والاستقرار ... وكان للأمير علي بن حيدر ابن في نضوج الشباب من مواليد ١٢١٥ هـ محباً للأدب شغفا بالمديح ... فكان العالم محلاً لعطف ورعاية الأمير والأمير موضع تقدير وحب وإعجاب بالعالم» أضواء على الأدب والأدباء بمنطقة جازان » ٤١ ، توفى عام ١٢٩٠ هـ/١٨٧٣ م انظر : « نيل الوطر » لزبارة ٣١٤/١ .

(١٤) قبل هذا : « قال جدنا حسن بن أحمد عاكش في بعض فوائده التاريخية عن ضمد » ، انظر « منحة الضمد » لأحمد بن حسن عاكش ٤ .

(١٥) قال عاكش : « وفي هذا الوادي من العلماء عدد واسع لاسيما قرية ضمد والشقيري ، ففيهم العلماء النحارير والأدباء المصافيع ، وقد تتبعت بحسب ما اطلعت عليه من علمائهم قديماً وحديثاً فأنافوا على مائة عالم ... » « منحة الضمد » ٣ .

(١٦) هو : أحمد بن صالح بن أبي الرجال ، ولد في سنة ١٠٢٩ هـ/١٦١٩ م في جهات الأهنوم باليمن ، تلقى العلم على جملة من علماء وطنه ، ألف كتابه المشهور : « مطالع البدور ومجمع البحور » في تراجم علماء الزيدية ، توفى عام ١٠٩٢ هـ/١٦٨١ م ، انظر ترجمته في : « البدر الطالع » للشوكاني ٥٩/١ .

(١٧) مخطوط لم يطبع ، قال عنه عبد الله محمد الحبشي في كتابه : « مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن » : « مطالع البدور ومجمع البحور في تراجم علماء الزيدية مرتب على الحروف خ ١١٤٦ بمكتبة المؤرخ زبارة ، أخرى رضا رامبور ٢٢٤ مصورة بمعهد المخطوطات » ٤٤٠ . وتوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة العقيلي بجازان تحت رقم ٥ ، انظر « فهرس المخطوطات بالمكتبة العقيلية الخاصة بجازان » ، ٥ .

(١٨) البقعة الممتدة من الشريعة حتى علي بن يعقوب ، والمخلاف الأرض أو البقعة ، والسليماني نسبة إلى سليمان بن طرف الحكمي الذي حكم تهامة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

(١٩) أحمد بن حسن عاكش ، « منحة الضمد في الميسور عن حديث ضمد » مخطوط ، ٣ بدون رقم .

(٢٠) ولد سنة ١٠٩٩ هـ/١٦٨٧ م ، وتلقى تعليمه الأولي على يد خاله علي بن عبد الرحمن بن حسن البهكلي (١٠٧٣ ـ ١١١٤ هـ) ، هاجر في سبيل العلم إلى صنعاء ، ومكة المكرمة ، وكحلان ، وتولى القضاء بمدينتي : جازان ، وأبي عريش ، له شئ من المؤلفات المحدودة في ميداني : التاريخ ، والأدب ، وله شعر محدود ، توفى سنة ١١٥٥ هـ/١٧٤٢ م . انظر ترجمته في كتاب : « خلاصة المسجد » لعبد الرحمن ابن الحسن البهكلي ٦ ، وفي مقدمة « المقامة الضمدية » تحقيق الباحث .

(٢١) في الأصل : « الظمدية » ، وقد حققها عبد الله أبو داهش ، وَطُبِعَتْ مرتين .

(٢٢) عبد الرحمن بن الحسن البهكلي ، « خلاصة المسجد في دولة الشريف محمد بن أحمد » ، مخطوط ، ورقة ١٦ .

(٢٣) إذ يعد من أودية منطقة جازان الشهيرة ، ومن أبرز قراه حينذاك : ضمده ، والشقيري .

(٢٤) قال عنه العقيلي في « معجمه الجغرافي » : « على اسم الطائر الغرد ، قرية على عدوة وادي ضمد الجنوبية » ٣٤٩ ، وقال عنها المعمّر إبراهيم بن محمد يحيى مصلح بأنها تعرف من قبل بالخيمة ، وإنها عرفت فيما بعد بالقمري ، لما كان فيها من الطيور البرية المعروفة بتلك الأنحاء ، وواحدها قمري ، وأضاف إلى ذلك قوله : إنها تتبع اليوم لمدينة ضمد ، وإنها تتكون من الأسر الآتية : المصالحة ، الزكارية ، الشوافعة ، الزرابية ، البوارية ، المعالمة (أبو شهادة) ، العوامرة ، المناقرة ، آل سلطان ، الطوالبة الأشراف ، آل جرادي الشقرة ، الرفاعية ، الشبالية ، وقد عدد هذا المعمر نفراً من علماء هذه البلدة ، منهم : أحمد بن إسماعيل الزكري ، وحسن بن محمد زكري وغيرهم من أسرة آل زكري ، نقل لي هذا القول مدونا : علي بن أحمد بن علي حمود ، من أهالي ضمد ، وذلك عن المعمّر السابق ذكره في ٥ ربيع الأول ١٤٠٧ هـ ، وقال عنها حجاب بن يحيى الحازمي في رسالة بعث بها إليّ في ٥ ربيع الأول ١٤٠٧ هـ : « ... والخيمة هي المعروفة لدينا حالياً بقرية القمري ، وقد شملتها النهضة العمرانية التي تعيشها بلادنا فزادت رقعتها ، وترتبط بخط مسفلت مع مدينة ضمد ، ونظراً لقرب عهد تأسيسها ، فلا توجد بها آثار ، ولم يطرأ عليها سوى اندثار المنازل المبنية من القش ، وزحف طوفان الأسمنت عليها شأن سائر مدن وقرى وهجر المملكة الناهضة ...

[و] سترى قرية كبيرة آهلة بالسكان تستقبلك في مدخلها : المعارض ، والمتنزهات ، والورش ، وكأنك تستقبل مدينة من المدن الحديثة » انتهى ، وبالرغم مما قيل حول تسمية الخيمة بالقمري ، وأنها لم تعرف بهذا الاسم إلا في وقت متأخر ، فقد عرف هذا المسمى في عهد عاكش ، إذ قال في عقود الدرر : « والموضع الذي فيه القرية المذكورة [يسمى] القمري » ٤٤ ، وإذا زعمنا بأنه من أثر النساخ ، فقد وجد مثله في نسخة أخرى لهذا المخطوط ، ولكن ربما كان هذا الاسم قد عرف بعيد تشييد هذه القرية بوقت محدود ، وخاصة إذا أدركنا زمن تأليف : « عقود الدرر » .

قال حمد الجاسر في مقدمة المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية : « القمري بكسر القاف وإسكان الميم ، وكسر الراء بعدها ياء النسبة من قرى ضمد بمنطقة جازان » ، القسم الثاني ١٠١٩ ، قلت : ولا أدري كيف كُسرت القاف هنا في لفظ القمري ، إذ يبدو أنه يخالف الواقع اللفظي لهذا الموضع .

(٢٥) مخطوط . وتوجد منه نسختان : نسخة جامعة الملك سعود (١٣٣٤) ، ونسخة زبارة باليمن .

(٢٦) ورقة ٣٣ ، انظر : « نيل الوطر » لزبارة ٢٥٨/١ .

(٢٧) المصدر نفسه ، ورقة ٣٣ .

(٢٨) الكلمة غير مقروءة في الأصل .

(٢٩) المصدر نفسه ، ورقة ٤٤ .

(٣٠) لعله : « حسن بن أبي نمي محمد بن بركات بن محمد الحسنى الهاشمي [٩٣٢ - ١٠١٠ هـ] : من أشراف مكة ، شارك أباه في إمارتها ، ثم انفرد بها بعد وفاته سنة ٩٩٢ هـ ، واستمر ضابطاً لشؤونها إلى أن توفي بها . وكان جواداً شجاعاً أثنى عليه بعض المؤرخين » ، « الأعلام » للزركلي ٢١٨/٢ .

(٣١) قال عاكش في : « الديباج الخسرواني » : « ثم ولي بعده الغرة الشادخة ، والذروة الشامخة الحسن أبي نمي ، ولم يبلغ أحد من آبائه مبلغه ، وتوفي سنة عشر وألف ، وسعايته وسعاية والده رحمهما الله تعالى . وكان الحلالة لأهل وادي ضمد ، وسبب ذلك أنه كان بينه وبين والدنا القاضي العلامة إمام المحققين

في عصره عز الإسلام محمد بن علي بن عمر بن محمد بن يوسف الضمدي تغمده الله برضوانه مودة أكيدة ... » ١١ ، ١٢ .

(٣٢) ترجم له عاكش في : « عقود الدرر » ، فقال : « ... أديب العصر ، وخاتمة العلماء ، ولد في سنة سبع بعد المائتين والألف ، ونشأ في حجر والده ... وتأدب بآدابه ، وارتحل إلى زبيد ، واشتغل بعلم النحو فأدرك فيه إدراكاً تاماً . وكان له غاية في الذكاء ، فشارف على كثير من العلوم في مدة يسيرة ، وعانى الأدب ، وبرع فيه ، وكاتب وكوتب به ، وهو في صباه ، ولازم ابن عمه شيخنا عبد الرحمن ابن أحمد بن الحسن في بيت الفقيه ابن عجيل واستفاد منه كثيرا ، وبعد رجوعه إلى مدينة أبي عريش تولى الخطابة بجامعها ... وبعد وفاة أخيه القاضي إسماعيل ... أقيم بدله في وظيفة القضاء ، ثم صرف عنه ، وبقي بعد ذلك مدة معتزلاً في بيته ... حتى وافاه الحمام على [أربعة] وسبعين بعد المائتين والألف » ٧٠/٧١ .

(٣٣) قال الهمداني في : « صفة جزيرة العرب » : « فباحة جازان إلى عَثّر » ٦٨ ، « ثم الهجر قرية ضمد وجازان » ٧٦ ، « ثم وادي خلب ووادي جازان ووادي ضمد » ١٢٦ ، « ... ووادي شابة وضمد وجازان وصبيا » ٢٥٩ ، وأورد الهمداني قول أبي الحياش الحجري :

« سقيت برهة قرى حُلَبٍ منـ ـها فجازان تلك فالصبياء » ٣٨

وفي : « المعجم الجغرافي لمقاطعة جازان » قال العقيلي : « اسم يطلق على وجه العموم على الوادي المعروف من أعلاه إلى مصبه ، وما على عدوتيه من قرى » ٩٥ ، وفي : « معجم البلدان » لياقوت : « موضع في طريق حاج صنعاء » ٩٤/٢ .

(٣٤) عبد الله بن علي العمودي ، « مجموعة المخطوط » ٦ .

(٣٥) « عقـود الـدرر » ٣٤ .

(٣٦) ترجم له زبارة في : « نزهة النظر » ، فقال : « القاضي العلامة عبد الله بن علي بن عبد الله باسند العمودي ، مولده بمدينة أبي عريش من تهامة سنة ١٢٩٩ هـ ، حفظ بها القرآن ، ثم رحل سنة ١٣١٥ هـ إلى بندر الحديدة ... وقد ترجم له مؤلف « نشر الثناء الحسن ، فقال : كانت إقامته بالمراوعة ثلاث سنين ، ثم عاد إلى أبي عريش في سنة ١٣٢٠ هـ ، ثم خرج إلى ميدي ... ولاه الإدريسي القضاء بميدي ، والخطابة بالجامع » ٣٧٧/٢ ، وقد ذكر ابنه إبراهيم إن ولادته كانت في عام ١٢٧٨ هـ ، انظر : « النبذة الوجيزة في ترجمة العمودي » .

(٣٧) محمد بن حيدر بن ناصر بن هادي القبي النعمي ، ولد بقرية الملحا بوادي بيش ، نشأ في حجر والده ، وأخذ عن جملة من علماء وطنه ، ثم رحل في سبيل العلم إلى : صعدة وضحيان ، ولي القضاء في عهد الإدريسي له مؤلف في أنساب الأشراف ، توفي عام ١٣٥١ هـ/١٩٣٢ م ، انظر : « نزهة النظر » لزبارة ٥٦/١ .

(٣٨) « مجموعه السابق » ورقة ٨ ، وانظر « عقود الدرر » لعاكش ٣٣ ، وقد جرت عليها معارضة هذه النصوص .

(٣٩) المصـدر نفسـه ٧ ، ٨ .

(٤٠) في المصدرين السابقين : « الهوى » ، والصواب ما أثبت ، وقد سهلت الهمزة ليستقيم الوزن .

(٤١) في المصدرين السابقين « استوطنت » ، وبه ينكسر البيت .

(٤٢) أراد الشريف الحسين بن علي بن حيدر . وفي عجز البيت كسر عروضي .

(٤٣) « أبو عريش » : بفتح العين المهملة ، وكسر الراء ، وسكون الياء المثناة التحتية وآخره شين : مدينة

من أشهر مدن منطقة جازان تبعد ٣٢ كيلاً عن مدينة جازان » . « معجم مقاطعة جازان للعقيلي »
٥٨ ، انظر حديثاً عنها في « صفة جزيرة العرب » للهمداني ، إذ وردت في هذا المصدر بأسم
« عرش » ، وانظر : « الحياة الفكرية » ، « وأثر الدعوة » للباحث ، و « تاريخ الخلاف السليماني »
للعقيلي ، و « نفح العود » للبهكلي .

(٤٤) معن بن زائدة (... ـ ١٥١ هـ) ، انظر « الأعلام للزركلي » ٢٧٣/٧ .

(٤٥) المعتمد بن عباد (٤٣١ ـ ٤٨٨ هـ) ، انظر المصدر السابق ١٨١/٦ .

(٤٦) قال العقيلي في معجمه : نجران : « بلدة كانت بناحية ضمد » ٤٠٨ ، قلت لعله أراد القصر الذي
بناه الحسين بن علي في ١٨ رمضان ١٢٥٧ هـ/١٨٤١ م ، وفيه يقول العقيلي في معجمه السابق :
« اسم قصر كان بناه أمير المنطقة : الحسين بن علي بن حيدر في شمال غربي أبي عريش ، قد دثر قبل
عهدنا الحاضر ، ولم يبق منه إلا أثر موضعه » ٤٠٨ ، وفي « عقد الجمان » للعمراني ، قال عاكش :
« سقى تربة نجران فيها مبكر من المزن يسقى سوحها نافع السحب » ورقة ١٥

(٤٧) قال الحجري في : « مجموع بلدان اليمن وقبائلها » : « غُمْدان قصر مشهور كان بصنعاء خرب في زمن
عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقد ذكر في صنعاء » ٦٢٦/٢ ، انظر : « المفيد » لعمارة اليمني ٥٨ ،
و « معجم البلدان » لياقوت ٢١٠/٤ ، و « الإكليل » ١٢/١٠ ، و « صفة جزيرة العرب » ٣٥٢ ،
و « تاريخ صنعاء » للرازي ، و « هذه هي اليمن » لعبد الله ثور ٢٠٣ ، و « غاية الأماني » ليحيى بن
الحسين ٨٩/١ .

(٤٨) شداد بن عاد ، وقد أورد له العمودي في مجموعه : « نبذ في الأنساب » قصة طريفة ، ورقة ١٥ .

(٤٩) انظر « مجموع عبد الله العمودي » ورقة ٧ ، ٨ « وعقود الدرر » لعاكش ورقة ٣٣ ، ٣٤ .

(٥٠) انظر : « الحياة الفكرية والأدبية بجنوبي البلاد السعودية » للباحث ١٦٤/١٦٥ .

(٥١) قال ابن الجوزي : « لا أصل له » ، انظر : « أسنى المطالب » للحوت ٥٩ ، وفي « كشف الخفاء »
للعجلوني ، رواه أبو يعلى والطبراني بسند ضعيف عن عائشة رضي الله عنها .

(٥٢) يوصف ضمد بالخِصْب في شعر تهامة . ومن ذلك قول محمد بن المساوي الأهدل :
ألا إن السواري والغـــــوادي قـــرى للحـــاضرات وللبـــوادي
سقى ضمد الخصيب ملث وبل بها وسقت هنالك كل وادي » « نيل الوطر » لزبارة ٢٥٨/١ .

(٥٣) انظر ترجمته في : « عقود الدرر لعاكش » ورقة ٩٥ ، و « نيل الوطر » لزبارة ٣٤١/٢ .

(٥٤) انظر ترجمته في « عقود الدرر » لعاكش ، ورقة ١٠٦ .

(٥٥) الهجرة في لغة حمير : « القرية الكبيرة » ، « صفة جزيرة العرب » للهمداني هامش ٧٦ .

(٥٦) عبد الله بن علي العمودي ، « مجموعة السابق » ورقة ٦ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ورقة ٦ .

(٥٨) تختلس الحركة هنا ، ليستقيم الوزن .

(٥٩) لو قال : « قمري الأراك يخاطب » لاستقام الوزن أيضا .

(٦٠) هذا تضمين معهود ، انظر : « وفيات الأعيان » لابن خلكان ٤٦٦/٥ .

(٦١) تختلس الحركة هنا ، ولا تتحقق ليستقيم الوزن .

(٦٢) عبد الله بن علي العمودي ، « مجموعه السابق » ورقة ٦ .

(٦٣) لكي يستقيم الوزن تشدد الضاد في « قضّينا » ويمكن أن يقرأ البيت : « يومين » بالنصب أو يقرأ :
« يوم قضيناه » برفع يوم ، مع جواز النصب : « يوماً قضيناه » ، وفي هذا لا حاجة لتشديد الضاد .

(٦٤) عبد الله بن علي العمودي ، « مجموعة السابق » ، ورقة ٦ .
(٦٥) في الأصل : « وأتا » ، ولعل الصواب ما أثبت .
(٦٦) عبد الله بن علي العمودي ، « مجموعه السابق » ، ورقة ٦ .
(٦٧) مَثَّل ، وقد ورد في : « المعجم الوسيط » : « وفي المثل » ، ثم أورده ، وزاد فيه : « ظالع يقود كسيرا » ٥٨٢/٢ .
(٦٨) عبد الله بن علي العمودي ، « مجموعه السابق » ، ورقة ٧ .
(٦٩) تخفف الفاء من أجل استقامة الوزن .
(٧٠) عبد الله بن علي العمودي ، مجموعه السابق ، ورقة ٦ .
(٧١) المصـــدر نفسه ، ورقة ٧ .
(٧٢) انظر ترجمته في : « نيل الوطر » لزبارة ٣٢٢/٢ .
(٧٣) عبد الله بن علي العمودي ، « مجموعه السابق » ، ورقة ٧ .
(٧٤) المصـــدر نفسه ، ورقة ٧ .
(٧٥) كذا في الأصل ليستقيم الوزن .
(٧٦) المصـــدر نفسه ، ورقة ٧ .
(٧٧) المصـــدر نفسه ، ورقة ٧ .
(٧٨) كذا ورد هذا الشطر في الأصل ، والأفضل أن يُقرأ آخره هكذا : « فيها عواقِبُها » ، أي : ما يعقب من فضل وخير .
(٧٩) المصـــدر نفسه ، ورقة ٧ .
(٨٠) تختلس الحركة هنا ليستقيم الوزن .
(٨١) المصـــدر نفسه ، ورقة ٧ .
(٨٢) إسماعيل بن أحمد الضمدي ، وهنا تختلس الحركة ليستقيم الوزن .
(٨٣) تسكن الفاء ، ليستقيم الوزن .
(٨٤) المصـــدر نفسه ، ورقة ٧ .
(٨٥) يقق : « أبيض يقق : أي شديد البياض ناصعة ، وكسر القاف الأولى لغة » « مختار الصحاح » للرازي ٧٤٣ ، والأصل فتح القاف الأولى ، وكسرها لغة فيها كما قيل .
(٨٦) في الأصل : « نظر » ، يقول الرازي : « وأخضر ناضر ، مثل : أصفر فاقع ، وأبيض ناصع » ، « مختار الصحاح » ٦٦٥ .
(٨٧) في الأصل : « وتلقى » ، وبه ينكسر البيت ، ولكي يستقيم الوزن يمكن أن يقال : « لقيت ثقل » ، وبه لا يستقيم المعنى ، أو يقال : « تلقاه أثقل » كما أثبت ، والضمير في تلقاه يرجع إلى مجمع الأعيان في البيت السابق وبه يستقيم المعنى والوزن .
(٨٨) عبد الله بن علي العمودي ، « مجموعه السابق » ، ورقة ٧ .
(٨٩) تختلس الحركة من أجل الوزن .
(٩٠) لكي يستقيم الوزن تسكن النون . وذلك لتسلم التفعيلة « مستفعلن » .
(٩١) تسكن العين ليستقيم الوزن ، وهي ضرورة شعرية .
(٩٢) عبد الله بن علي العمودي ، « مجموعه السابق » ورقة ٧ .
(٩٣) المصـــدر نفسه ، ورقة ٧ .

(٩٤) انظر ترجمته في « عقود الدرر » لعاكش ، ورقة ٤٤ ، ٤٥ .
(٩٥) الحسن بن أحمد عاكش ، « عقود الدرر » ورقة ٤٤ ، انظر : « مجموع العمودي السابق » ورقة ٣ .
(٩٦) موجـان : ضمـد .
(٩٧) في هذا الشطر كسر عروضي .
(٩٨) كذا في : « مجموع العمودي » ، وفي : « عقود الدرر » [نسخة زبارة] : « القلائص » ، وبها ينكسر الوزن .
(٩٩) كذا في : « عقود الدرر » ، وفي : « مجموع العمودي » : « لقد » ، وقد يستقيم الوزن عند إيراد لفظ « لقد » أو سكنت الياء .
(١٠٠) تشبع حركة الميم ليستقيم الوزن .
(١٠١) تسكن الياء هنا ليستقيم الوزن .
(١٠٢) الحسن بن أحمد عاكش ، « عقود الدرر » ورقة ٤٤ الرياض ، ١٥٣ زبارة ، وانظر « مجموع العمودي » ورقة ٣ .
(١٠٣) كذا في : « عقود الدرر » ، وفي : « مجموع العمودي » : « يغازلها » .
(١٠٤) انظر المصدرين السابقين ، وهذا الشطر لعلي بن الجهم ، وهو صدر أحد أبياته المشهورة من قصيدته في المتوكل العباسي ، والعجز : « جَلَبْنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري » انظر ديوانه ١٤١ .
(١٠٥) انظر ترجمته في : « عقود الدرر » لعاكش ، ورقة ١٠٠ ، و : « نيل الوطر » لزبارة ٢/٢١٧ .
(١٠٦) الحسن بن أحمد عاكش ، « عقود الدرر » ، ورقة ٤٤ .
(١٠٧) « قرية شرقي قرية الشقيري » المعجم الجغرافي لمقاطعة جازان » للعقيلي ١٥٥ ، وقد قال فيها عاكش في : « مجموعته الشعرية » :

« هذا الحمى ومسارح الغزلان ومرابع الأحباب من نعمان »

(١٠٨) عبد الله العمودي ، « مجموعة السابق » ، ورقة ٤ .
(١٠٩) في الأصل : « وشعري » ، وبه ينكسر الوزن .
(١١٠) المصدر نفسه ، ورقة ٥ ، وفي الشطر الثاني من هذا البيت كسر عروضي إذا قرئ « بحبر الورى الزهري وشعري بالزهري » ، ويمكن أن يقرأ كما أثبت ليستقيم الوزن .
(١١١) المصـدر نفسه ، ورقة ٥ .
(١١٢) هذا الشطر مكسـور الوزن .
(١١٣) المصدر نفسه ، ورقة ٥ ، وهذا الشطر تضمين مقتبس من بيتي عاكش السابقين .
(١١٤) الكلمة غير مقروءة في الأصل .
(١١٥) كذا ليستقيم الوزن ، إذا رسمت الدال في الأصل في الشطر الأول .
(١١٦) البيت مقتبس ، وهو مشهور معهود .
(١١٧) عبد الله بن علي العمودي ، « مجموعه السابق » ورقة ٣ .
(١١٨) المصـدر نفسه ، ورقة ٣ .
(١١٩) المصدر نفسه ، ورقة ٣ ، ويلحظ إشباع الحركات في بعض أحرف الشطر الثاني لاستقامة الوزن .
(١٢٠) المصدر نفسه ، ورقة ٣ ، ولكي يستقيم الوزن في البيت الأول لابد من اختلاس الحركة في آخر كلمة صافي .
(١٢١) تخفف الحركة هنا ليستقيم الوزن .

(١٢٢) عبد الله بن علي العمودي ، « مجموعه السابق » ، ورقة ٣ .
(١٢٣) عبد الله بن محمد الحبشي ، « الصوفية والفقهاء في اليمن » ٣٨ .
(١٢٤) انظر ترجمته في : « البدر الطالع » للشوكاني ٢/٢٠ ، و « عقود الدرر » ٨٦ ، و « حدائق الزهر » ٢٨ لعاكش ، « ونيل الوطر » لزبارة .
(١٢٥) مخطوط ، يوجد نسخة منه في المكتبة العقيلية بجازان ، تحت رقم ٢٧ .
(١٢٦) لعله المخطوط السابق نفسه بمسمى آخر .
(١٢٧) انظر : « قرة العيون » للديبع ٢/١١٠ ، وقد قال محقق هذا الكتاب : « ... ونخل المغرس غربي زبيد » هامش ١١٠ .
(١٢٨) كذا في الأصل ، ولعله أراد نخيل المغرس ، وغيرها بزبيد ، وقد ورد ذكر للنخل في مواضع كثيرة من « تاريخ أحمد بن أحمد النعمي » وعلى سبيل المثال ما ورد في ورقة : ١٧١ ، ١٨٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ .
(١٢٩) « تقريظ عقد الجمان » ورقة ٢ ، ٣ .
(١٣٠) المصدر نفسه ، ورقة ٥ .
(١٣١) المصدر نفسه ، ورقة ٥ .
(١٣٢) المصدر نفسه ، ورقة ٥ ، ٦ .
(١٣٣) المصدر نفسه ، ورقة ٦ .
(١٣٤) المصدر نفسه ، ورقة ٢٦ ، انظر : « أضواء على الأدب والأدباء في منطقة جازان » ، و « تاريخ المخلاف السليماني » ١/٥٢٢ للعقيلي .
(١٣٥) انظر ترجمته في : « عقود الدرر » لعاكش .
(١٣٦) محمد بن علي العمراني ، كتابه السابق ، ورقة ٢٧ .
(١٣٧) انظر ترجمته في : « عقود الدرر » لعاكش ، ورقة ٨٩ ، و « نيل الوطر » لزبارة ٢/٣١٧ .
(١٣٨) زاد : « شعراً » ، وقد سلك مثل ذلك في اقتباسه للأبيات .
(١٣٩) كذا في الأصل ، وهي مخففة من : « أومأ » .
(١٤٠) لعل الصواب « بها » لأن الضمير يعود إلى الدمنة .
(١٤١) من آية ٩ سورة الحشر .
(١٤٢) الخُصَيْبُ : زبيد ، انظر أخبارها في كتاب « المفيد » لعمارة اليمني ، تحقيق الأكوع ٣٢٤ ، وانظر « معجم البلدان » لياقوت ٢/٢٦٦ ، وانظر : « مجموع بلدان اليمن وقبائلها » مج ١/٢٦٢ .
(١٤٣) من شواطى وادي زبيد ، انظر : « أضواء على الأدب والأدباء في منطقة جازان » للعقيلي ٦٦ ، و « المفيد » لمارة ٧٧ .
(١٤٤) من شواطئ وادي زبيد ، انظر المصدرين السابقين ٦٦ ، ٢٠٨ .
(١٤٥) قال العقيلي : البيتان للملك جياش النجاحي ، انظر كتابه السابق ٦٦ .
(١٤٦) في الأصل : « شوقا » ، ولعل الصواب « مَشُوقا » ليستقيم السجع .
(١٤٧) محمد بن علي العمراني ، « كتابه السابق » ، ورقة ٣١ ، ٣٢ .
(١٤٨) المصدر نفسه ، ورقة ٢ .
(١٤٩) المصدر نفسه ، ورقة ٨ ، ٩ .

(١٥٠) عبد الحميد الكاتب ، وهو : عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب القرشي ، توفي عام ١٣٢هـ ، انظر : « الفهرست » لابن النديم ١٧٠ ، و « وفيات الأعيان » لابن خلكان ٣/٢٢٨ ، و « الأعلام » للزركلي ٣/٢٨٩ ، و « الفن ومذاهبه في النثر العربي » لشوقي ضيف ١١٣ .

(١٥١) القاضي الفاضل ، وهو عبد الرحمن بن علي البيساني (٥٢٩ ـ ٥٩٦ هـ) انظر المصادر السابقة ، « تطور الأساليب النثرية » للمقدسي ٢٨٧ .

(١٥٢) هو : أبو الفضل محمد بن الحسين فارسي من مدينة قم ، توفي عام ٣٦٠ هـ ، انظر المصادر السابقة ، و « يتيمة الدهر » للثعالبي ٣/١٥٤ .

(١٥٣) أزال : صنعاء ، انظر أخبارها في كتاب : « تاريخ مدينة صنعاء » للرازي .

(١٥٤) محمد بن علي العمراني ، « كتابه السابق » ، ورقة ٢٨ .

(١٥٥) هو أبو بكر الزرعة أحد علماء مكة المكرمة .

(١٥٦) طالع هذه القصيدة :

« أعد لي حديث البان والمنزل العذْب ولا تحسبن ذكراهما منتهى حسبي »

(١٥٧) الحسن بن أحمد عاكش .

(١٥٨) طالع هذه القصيدة :

« ألامع برق لاح من خلل السحب بلى ؟ وجه [سلمى] ضاع من خلل السحب »

(١٥٩) الحسين بن علي بن حيدر ، وطالع القصيدة :

« أحْسَنَتْ حسناء بالكلم لمعنّى دائم الألـم »

(١٦٠) الحسن بن أحمد عاكش .

(١٦١) محمد بن المساوي الأهدل ، وطالع القصيدة :

« أسباه ثغر مبتسم ليلة بالبان والعلم »

(١٦٢) قيل في المخطوط : « انتهت ، البيت الذي من أوائل القصيدة هذا :

الشريف الحسين خير إمام قد غلا قدره على الناس طرا

والبيت الذي يتخذ من أوائل الشطر الثاني ، هذا :

« مجد قد سما على كل سامٍ أعجز القائلين نظما ونثرا » انتهى ٢٥ .

(١٦٣) محمد بن علي العمراني ، « كتابه السابق » ورقة ١٠ .

(١٦٤) المصدر نفسه ١٠ ، قال عاكش في : « الديباج الخسرواني » : « وقد عارض ذلك جماعة من علماء الوقت ، وتجاربنا نحن وهم في حلبة الأدب ، وأنتج ذلك جملة قصائد بديعة عذاب ، واتفق مع ذلك مقامات في الخروج للتنزه إلى نخل زبيد في موكب خليفة العصر لازال ظافراً بالنصر والتأييد ، ودُوِّنَتْ الجميع في كتاب وسمى ذلك المجلد : « عقد الجمان » ٢٨ .

(١٦٥) محمد بن علي العمراني : « كتابه السابق » ، ورقة ١٧ .

(١٦٦) انظر : « معجم البلدان » لياقوت الحموي ٢/١٢٧ .

(١٦٧) كذا ليستقيم الوزن .

(١٦٨) انظر : « معجم البلدان » لياقوت الحموي ٢/٨٩ .

(١٦٩) انظر : المصدر نفسه ٣/١٣٩ .

(١٧٠) انظر : « صفة جزيرة العرب » للهمداني ٢٩٨ .

(١٧١) أراد تهامـة .

(١٧٢) انظر : « معجم البلدان » لياقوت الحموي ٢/٢٠٤ .
(١٧٣) محمد بن علي العمراني ، كتابه السابق ، ورقة ١٨ ، ١٩ .
(١٧٤) المصدر نفسه ، ورقة ١٨ ، ١٩ .
(١٧٥) انظر : « أضواء على الأدب والأدباء في منطقة جازان » للعقيلي ٥٢ ، ٥٣ ففيه ذكر لمن أسهم من الأدباء في هذه الحلبة .
(١٧٦) محمد بن علي العمراني ، « كتابه السابق » ، ورقة ٣ .

● المصـادر والمراجـع ●

أولاً : المخطوطـات :

(١) البهكلي ، عبد الرحمن بن الحسن . « خلاصة المسجد في دولة الشريف محمد بن أحمد » ، نسخة مخطوطة مصورة ، توجد في قسم المخطوطات بجامعة الملك سعود ، الرياض ، تحت رقم ١/٥٩٦ ، م. ص .

(٢) عاكش ، أحمد بن حسن . « منحة الضمد في الميسور عن حديث ضمد » ، نسخة خطية ، توجد في مكتبة عاكش الخاصة بضمد ، بدون رقم ، ٩ ورقات .

(٣) عاكش ، الحسن بن أحمد . « حدائق الزهر في ذكر الأشياخ أعيان الدهر » ، نسخة خطية ، توجد في المكتبة العقيلية الخاصة بجازان ، رقم ٣٨ ، ٦٥ ورقة .

(٤) عاكش ، الحسن بن أحمد . « الديباج الخسرواني بذكر ملوك المخلاف السليماني » ، نسخة مخطوطة مصورة ، توجد في مكتبة حجاب الحازمي الخاصة بضمد ، بدون رقم .

(٥) عاكش ، الحسن بن أحمد . « الذهب المسبوك في ذكر من ظهر في المخلاف السليماني من الملوك » ، نسخة مخطوطة ، توجد في المكتبة العقيلية الخاصة بجازان ، تحت رقم ٥١ ، تاريخ النسخ ١٣٥١ هـ/١٩٣٢ م .

(٦) عاكش ، الحسن بن أحمد . « عقود الدرر في تراجم علماء القرن الثالث عشر » ، توجد منه نسختان مخطوطتان :

(أ) نسخة جامعة الملك سعود ، قسم المخطوطات ، المكتبة المركزية ، الرياض تحت رقم ١٣٣٤ ، مخطوط أصلي ، تاريخ النسخ ١٣٤٦ هـ/١٩٢٧ م .

(ب) نسخة مكتبة المؤرخ زبارة الخاصة بصنعاء باليمن ، بدون رقم .

(٧) عاكش ، الحسن بن أحمد . « مجموعة من أشعار عالم المخلاف السليماني في القرن الثالث عشر : الحسن ابن أحمد عاكش (١٢٢١ ـ ١٢٩٠ هـ) » ، نسخة مخطوطة ، توجد في المكتبة العقيلية الخاصة بجازان ، تحت رقم ٢٨ .

(٨) العمراني ، محمد بن علي . « تقريظ عقد الجمان المتضمن لمدح زينة العصر مولانا مليك الزمان حامي بيضة الإسلام الأسد الضرغام الحسين بن علي بن حيدر الحسني » ، نسخة مخطوطة ، توجد بالمكتبة العقيلية الخاصة بجازان ، تحت رقم ٢٧ ، بدون تاريخ .

(٩) العمودي ، عبد الله بن علي . « مجموع يضم نماذج شعرية مختلفة » ، نسخة مخطوطة ، بدون رقم ، ٨ ورقات .

(١٠) العمودي ، عبد الله بن علي . « نبذ في الأنساب لمن سكن بحضرموت ، وفي أنساب عدنان وقحطان » ، نسخة مخطوطة ، توجد لدى إبراهيم العمودي ، بأبي عريش ، بدون رقم .

(١١) النعمي ، أحمد بن أحمد . « تاريخ النعمي » ، نسخة خطية مصورة ، توجد لدى محمد عبد الله الزلفة ،

بدون رقم .

ثانيا : المطبوعات :

(١) القـرآن الكـريم .
(٢) الحديث النبوي الشريف .
(٣) ابن الأثير ، أبو السعادات المبارك بن محمد بن الجزري . « النهاية في غريب الحديث والأثر » ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود محمد الطناحي ، دار إحياء الكتب العربية .
(٤) ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله . « تحفة النظار في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار » ، ط دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠ م ، وطبعة الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، بدون معلومات أخرى للنشر .
(٥) البكري ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز . « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » ، تحقيق مصطفى السقا ، ج ١ ، ط ٣ ، منشورات عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م .
(٦) البهكلي ، الحسن بن علي البهكلي . « المقامة الضمدية » ، تحقيق عبد الله أبوداهش ، ط ٢ ، مطبعة الجنوب ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م .
(٧) البهكلي ، عبد الرحمن بن أحمد . « نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود » ، تحقيق محمد بن أحمد العقيلي ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٢٢) ، مطبعة دار الهلال للأوفست ، الرياض ، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م .
(٨) الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل . « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » ، منشورات دار الكتب العلمية ، بدون معلومات أخرى للنشر .
(٩) الثور ، عبد الله أحمد محمد . « هذه هي اليمن » ، ط ٢ ، دار العودة ، بيروت ١٤٠٠ هـ/١٩٧٩ م .
(١٠) الجاسر ، حمد . « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » ، نشر دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، مطبعة نهضة مصر ، بدون تاريخ .
(١١) ابن الجهم ، علي . « ديوانه » ، تحقيق خليل مردم بك ، ط ٢ ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م .
(١٢) الحبشي ، عبد الله بن محمد . « الصوفية والفقهاء في اليمن » ، مطبعة دار نشر الثقافة ، مصر . توزيع مكتبة الجيل الجديد ، صنعاء ، ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م .
(١٣) الحبشي، عبد الله بن محمد . « مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن » ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، دار العودة ، بيروت ، بدون تاريخ .
(١٤) ابن الحسين ، يحيى . « غاية الأماني في أخبار القطر اليماني » ، تحقيق سيد عبد الفتاح عاشور ، ومراجعة محمد مصطفى زيادة ، منشورات دار الكتاب العربي للطباعة ، والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م .
(١٥) حمزة ، فؤاد . « في بلاد عسير » ، ط ٢ ، منشورات مكتبة النصر الحديثة ، الرياض ، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م .
(١٦) الحموي ، ياقوت . « معجم البلدان » ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م .
(١٧) الحوت ، محمد درويش . « أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب » ، تعليق خليل الميس ، ط ٢ نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٢ م .

(١٨) ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر . « وفيات الأعيان . وأنباء أبناء الزمان » ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .
(١٩) أبوداهش ، عبد الله بن محمد بن حسين . « أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية » ، مطبعة الشريف ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م .
(٢٠) أبوداهش ، عبد الله بن محمد بن حسين . « الحياة الفكرية والأدبية بجنوبي البلاد السعودية » ، ط ٢ ، مطبعة الجنوب ، نشر نادي أبها الأدبي ، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م .
(٢١) أبوداهش ، عبد الله بن محمد بن حسين . « ملامح الحياة الفكرية والأدبية في عسير ١٢١٥ - ١٣٥١ هـ » ، ط ١ ، مطبعة الشريف ، الرياض ، بدون تاريخ .
(٢٢) الديبع ، عبد الرحمن بن علي بن محمد . « بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد » ، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، نشر مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، بدون تاريخ .
(٢٣) الديبع ، عبد الرحمن بن علي . « قرة العيون بأخبار اليمن الميمون » ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، المطبعة السلفية ، مصر ، بدون تاريخ .
(٢٤) الرازي ، أحمد بن عبد الله . « تاريخ مدينة صنعاء » ، تحقيق حسين عبد الله العمري ، وعبد الجبار زكار ، ط ١ ، ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م ، بدون معلومات للنشر .
(٢٥) الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر . « مختار الصحاح » ، ط ١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م .
(٢٦) رفيع ، محمد عمر . « في ربوع عسير » ، دار العهد الجديد للطباعة ، القاهرة ، ١٣٧٣ هـ/١٩٥٤ م .
(٢٧) ابن زبارة ، محمد محمد . « نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر الهجري » ، ط ١ ، نشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ، صنعاء ١٤٠٠ هـ/١٩٧٩ م .
(٢٨) ابن زبارة ، محمد محمد . « نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر » ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ/١٩٢٩ م .
(٢٩) الزركلي ، خير الدين . « الأعلام » ، ط ٦ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٤ م .
(٣٠) الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر . « الجبال والأمكنة والمياه » ، مطبعة ليدن ، ١٢٧٢ هـ/١٨٥٥ م .
(٣١) الشوكاني ، محمد بن علي . « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، وهي مصورة عن المطبعة السلفية سنة ١٣٤٨ هـ/١٩٢٩ م .
(٣٢) ضيف ، شوقي . « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ، ط ٧ ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ .
(٣٣) العجلوني ، إسماعيل بن محمد . « كشف الخفاء ، ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » ، نشر دار صادر ، بيروت ، طبعة مصورة عن نسخة مصرية ١٣٥٢ هـ/١٩٣٣ م .
(٣٤) العقيلي ، محمد بن أحمد . « أضواء على الأدب والأدباء في منطقة جازان » ، دار مكة للطباعة والنشر ، نشر نادي مكة الثقافة ، بدون تاريخ .
(٣٥) العقيلي ، محمد بن أحمد . « تاريخ المخلاف السليماني » ، ط ٢ ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م .
(٣٦) العقيلي ، محمد بن أحمد . « المعجم الجغرافي ، مقاطعة جازان » ، ط ٢ ، نشر دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م .

(٣٧) الفيروزآبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب . « القاموس المحيط » ، توزيع مكتبة النوري ، دمشق ، بدون معلومات للنشر .
(٣٨) كحالة ، عمر رضا . « معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية » ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، توزيع مكتبة المتنبي ، لبنان ، بدون تاريخ .
(٣٩) مصطفى ، إبراهيم ، وآخرون . « المعجم الوسيط » ، نشر مجمع اللغة العربية ، المكتبة العلمية ، طهران . بدون تاريخ .
(٤٠) المقدسي ، أنيس . « تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي » ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م .
(٤١) ابن النديم . « الفهرست » ، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت بدون تاريخ .
(٤٢) النعمي ، هاشم سعيد . « تاريخ عسير في الماضي والحاضر » ، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر ، بدون تاريخ .
(٤٣) الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب . « الإكليل » ح ١٠ ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ/١٩٤٨ م .
(٤٤) الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب . « صفة جزيرة العرب » ، نشر دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م .
(٤٥) اليمني ، نجم الدين عمارة بن علي . « تاريخ اليمن ، المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها » ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، ط ٣ ، مطبعة العلم ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م .

ثالثاً : الدوريـات :

(١) أبو داهش ، عبد الله بن محمد بن حسين . « رجال ألمع من مراكز الفكر والأدب بجزيرة العرب في القرون المتأخرة الماضية » ، مجلة الفيصل ، ع ١٠٩ ، س ١٠ ، (رجب ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م) ص ١٠٩ ـ ١١٤ .

رابعاً : فهـارس المكتبـات :

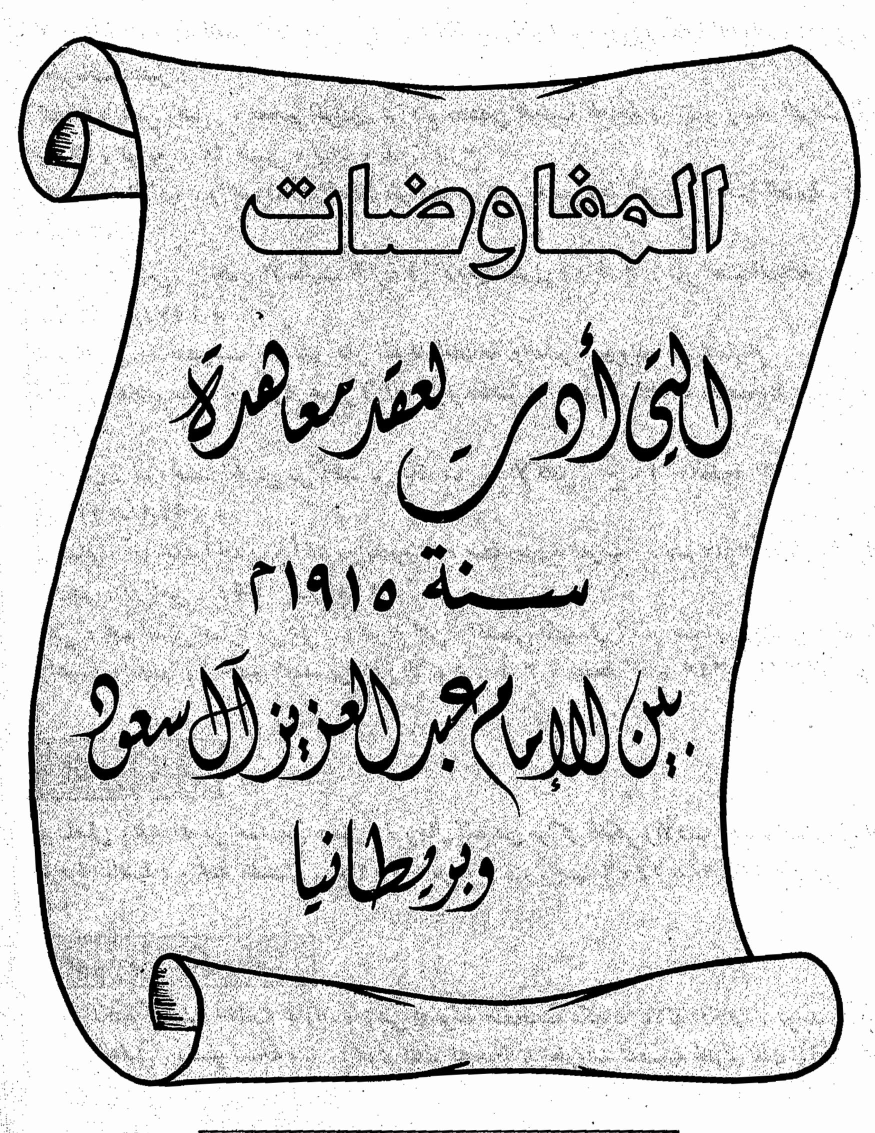
(١) فهرس المكتبة العقيلية الخاصة بجازان ، وهي مجموعة صفحات مكتوبة بالآلة الكاتبة ، توجد لدى محمد ابن أحمد العقيلي ، ولدتي نسخة منها ، وتحوي تلك الصفحات معلومات تفصيلية لمحتوى تلك المكتبة الخاصة .

خامساً : المقابلات الشخصية :

(١) مصلح ، إبراهيم بن محمد بن يحيى . من أهالي ضمد بجازان ، أجرى المقابلة معه أحمد بن علي حمود في يوم الجمعة الموافق ٥ ربيع الأول ١٤٠٧ هـ بقرية ضمد بتهامة .

سادساً : مراجع ثانويـة أخـرى :

(١) الحازمي ، حجاب بن يحيى . « رسالة خطية إخوانية منه إلى الباحث » ، تضمنت معلومات مناسبة عن قرية الخيمة جنوب ضمد مرسلة في ٥ ربيع الأول ١٤٠٧ هـ ، توجد لدى الباحث .
(٢) العمودي ، إبراهيم بن عبد الله . « نبذة يسيرة موجزة في ترجمة والده » ، مكتوبة بالآلة الكاتبة ، توجد لدى الباحث .



د. خالد حمود السعدون

لقد كتب الكثير عن معاهدة سنة ١٩١٥م بين الإمام عبد العزيز آل سعود وبريطانيا . فعرفت دوافعها ، وحللت بنودها ، وحصرت الآثار التي ترتبت عليها . ولكن أمراً متصلاً بتلك المعاهدة لم يحظ باهتمام كبير . وهو توضيح المراحل التي قطعتها

المفاوضات بين الجانبين ، منذ سطرت مسودتها الأولى إلى أن صيغت بشكلها النهائي ـ ولذلك سأركز هنا على هذا الجانب لما له من أهمية كبيرة في التعريف بطموحات كل طرف من طرفي المعاهدة ، وما استطاع تحقيقه في الواقع من تلك الطموحات ، بما يتناسب مع القوة الفعلية التي يستند إليها .

ويحسن قبل الولوج في صميم الموضوع القول إن الإمام عبد العزيز أدرك منذ استعادته الرياض سنة ١٩٠٢ أن الخطر الأكبر الذي يهدد دولته يتمثل في الدولة العثمانية لعوامل عديدة ليس هنا مجال بحثها . « ولكون بريطانيا تعتبر المنافس الكبير للدولة العثمانية في منطقة الخليج رأى الإمام عبد العزيز أنه من الأفضل الاتصال بالإنجليز ومحاولة الحصول على تأييدهم له » .[١] ومما عزز اتجاهه في هذا السبيل ـ بلا ريب ـ ما شهده بنفسه من عجز الدولة العثمانية عن إلحاق الأذى بالشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت نتيجة لوقوف بريطانيا خلفه . ذلك الوقوف الذي تجسد في اتفاقية الحماية لسنة ١٨٩٩ م التي عقدت بين الطرفين . ولذلك كله قام الإمام عبد العزيز بعدة اتصالات مع السلطات البريطانية بين سنتي ١٩٠٣ و ١٩١٤ م محاولاً إقناعها بالوقوف إلى جانبه . ولكن السلطات البريطانية لم تتجاوب مع تلك الاتصالات .[٢]

ولكن الموقف البريطاني غير المتجاوب سرعان ما تغير حين نشبت الحرب العالمية الأولى في أوروبا ، وازداد احتمال ارتماء الدولة العثمانية فيها إلى جانب ألمانيا وحليفاتها . فأخذت بريطانيا تعد لمواجهة ذلك الاحتمال قبل وقوعه . وإحدى سبل الإعداد كانت محاولة كسب الإمام عبد العزيز إلى الجانب البريطاني . وكانت الخطوة الأولى في هذا السبيل رسالتين وصلتا للإمام من الشيخ مبارك الصباح ومن المقيم السياسي البريطاني في الخليج تخبرانه باحتمال نشوب الحرب بين الدولة العثمانية وبريطانيا ، وتعرضان رغبة الأخيرة بالحصول على مساعدته من أجل الحفاظ على السلم في بلاد العرب . وكانت الخطوة الثانية رسالة مؤرخة في الثالث من نوفمبر ١٩١٤ م وصلت للإمام من المقيم السياسي البريطاني في الخليج تعلمه بقيام الحرب مع الدولة العثمانية ، وتطلب منه الانضمام إلى شيخي الكويت والمحمرة في معاونة البريطانيين للسيطرة على البصرة . ووعدته بريطانيا مقابل ذلك بالاعتراف به حاكماً مستقلاً لنجد والاحساء ، وحمايته من أي هجوم يشن عليه عن طريق البحر ، والدخول معه في علاقات تعاهدية[٣] ، أما الخطوة الثالثة فكانت قرار إيفاد الكابتن شكسبير Shakespear إلى نجد كي يقيم اتصالاً

شخصياً مع الإمام ، وبما يؤدي إلى تحقيق الهدف البريطاني المشار إليه أعلاه .[٤]

وهكذا تغيرت الأدوار ، فأصبحت بريطانيا هي الحريصة على كسب ود الإمام عبد العزيز ، مما جعله في موقف تفاوضي أقوى تجاهها ، وقد أدرك الإمام بموهبته السياسية ذلك الواقع فأراد استغلاله لتحقيق شروط أفضل من الجانب البريطاني ، ولذلك نجده لم يبد حماسة للتعهدات البريطانية التي وصلته ولم يرفضها ، ويبدو هذا الموقف المتحفظ واضحاً في رسالة بعثها الإمام إلى الكابتن شكسبير بتاريخ التاسع من محرم ١٣٣٣ هـ/ الثاني والعشرين من نوفمبر ١٩١٤ م ، رداً على رسالة كان الكابتن قد بعثها للإمام قبل ذلك بثمانية أيام ، وقد حدد الإمام في رسالته خط سير تحركاته المقبلة في الصحراء لتمكين شكسبير من اختيار الطريق المؤدي إلى مخيمه ، ثم أضاف : « وآمالي قوية في الله ثم في الحكومة البريطانية البهية بأن الأمر سيرتب على الوجه المطلوب لحماية الدين والشرف . وحينما سيتم الاجتماع إن شاء الله فإن أهداف الجانبين الحقيقية سوف تظهر ، ونحن إن شاء الله كما تعهدوننا بالنسبة للآخرين (الترك) »[٥] .

وقد لاحظ شكسبير ذلك التحفظ الواضح في رسالة الإمام ، وأشار إلى أنه ربما كان نتيجة تأثير السيد طالب النقيب الذي كان قد التحق بالإمام حينذاك ،[٦] حيث يحتمل أن يكون الإمام قد ناقش معه التعهدات البريطانية . وأضاف شكسبير بعد ذلك قوله : « إنني ميّال للاعتقاد بأن النتيجة المحتملة لذلك ستكون محاولة من جانب ابن سعود للحصول منا على توسيع أكبر لنطاق تلك التعهدات . والموضوع لا يتطلب مني ـ على أية حال ـ مناقشته قبل أن ألتقي بالزعيم وأتأكد بالضبط مما إذا كانت أهدافه ورغباته قد تأثرت بالحرب » .[٧]

كما يتضح تحفظ الإمام عبد العزيز أيضاً في رسالة بعثها في اليوم نفسه إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي رداً على رسالة كانت قد وصلته منه في تاريخ سابق وحوت ما كانت السلطات البريطانية تتوقع من الإمام القيام به من مجهود حربي ضد الدولة العثمانية .

ويُظْهِر التدقيق في تلك الرسالة أن الإمام عبد العزيز اكتفى بإبداء عواطف لفظية تجاه بريطانيا دون أن يلزم نفسه بشيء حيال الطلبات التي قدمتها له ، ودون أن يعلق سلباً أو إيجاباً على التعهدات التي عرضتها عليه ، مكتفياً بالقول إنه متجه للقاء شكسبير والتباحث معه بشأنها . ورغم كل ذلك التحفظ اعتبر وكيل المقيم السياسي البريطاني

في الخليج مضمون رسالة الإمام مُرْضياً .(٨)

وقد حدد الإمام عبد العزيز المبادىء العامة التي سيستهديها في مباحثاته القادمة . وجاء ذلك التحديد في رسالة مؤرخة في ١٧ محرم ١٣٣٣ هـ/٥ ديسمبر ١٩١٤ م وجهها إلى برسي كوكس P. Cox رئيس الضباط السياسيين المرافقين للحملة البريطانية الغازية للعراق . ومما جاء في تلك الرسالة : « استلمت رسالة من صديقي الكابتن شكسبير يطلب فيها رؤيتي ، وقد كتبت له رداً حددت له فيه مكان اجتماعنا ، وسأشرح له في اجتماعنا الأمور التي سيوافيكم بتقرير عنها دون شك ، وهي تتصل بمصالح الجنس العربي ، وبتأكيد العلاقات القديمة بيننا وبين الحكومة البريطانية العلية . إننا محافظون على علاقاتنا القديمة ، وليس هناك شيء يؤدي إلى تغيير موقفنا إلا الأمور التي يمكن أن تضر بديننا والجنس العربي . إنك أفضل الناس فيما يتعلق بهذا الأمر ونأمل فيك كل خير ... »(٩) .

وقد لاحظ كوكس أن الإمام عبد العزيز أكد في رسالته السالفة على اهتمامه بالناحية الدينية ، فأراد أن يبدد أيَّ شكوك تجول في خاطره حول نوايا بريطانيا بهذا الخصوص . فكتب له رسالة جوابية مؤرخة في ٢٩ محرم ١٣٣٣ هـ/١٧ ديسمبر ١٩١٤ م ، جاء فيها : « غير خاف عليكم أن الحكومة البريطانية لم تكن راغبة في الحرب مع تركيا ، ولكن أعمالها العدائية [تركيا] الناجمة عن مكائد ألمانيا وتحريضاتها كانت لا تطاق لدرجة لم يعد معها خيار آخر لدينا ، ولكننا كما بينا لسكان البصرة والقرنة إننا في حرب مع حكومة تركيا لوحدها ، وليس لنا قصد ضد سكان القطر والعرب عموماً ، بل نحن على العكس نرغب في أن نصبح أصدقاءهم ومعاونيهم ، ونأمل بأنهم تحت ظل العلم البريطاني سوف يتمتعون بأقصى الحرية والعدالة في شؤونهم الدينية والدنيوية معاً . وفيما يتعلق بالشؤون الدينية خاصة فلست بحاجة لأن تكون تحت تأثير أي نوع من الخشية . فغير خاف عليك بأن للحكومة البريطانية رعايا مسلمين أكثر من أية حكومة أخرى ، وسترى في الإعلان الذي أرفق لك نسخة خطية منه أننا تعهدنا باحترام أماكن الحج المقدسة والمحافظة عليها في الحجاز والعراق معاً .(١٠)

« وفيما يتعلق بك فإنني آمل أن أحوالك ستزدهر أكثر مما سبق نتيجة لما حدث ، لأن أراضيك ستكون بعيدة عن المضايقات والتدخلات من جانب الترك ، التي كنت تعاني منها حتى الآن ... وآمل أن يكون صديقنا الكابتن شكسبير معك عند وصول هذه الرسالة ، وسينقل لي ما يدور بينكما [من مباحثات] يمكنك أن تثق بأنها ستعامل

من قبلي ومن قبل الحكومة البريطانية بكل تفهم ... »[11].

وبعد تلك المراسلات التمهيدية ، جاء دور المباحثات المباشرة بين الإمام والمبعوث البريطاني الكابتن شكسبير الذي وصل إلى مخيم الإمام في « الخفى »[12] في الحادي والثلاثين من ديسمبر ١٩١٤ م . وبعد محادثات استمرت أربعة أيام رفع شكسبير تقريراً مطولاً لحكومته استعرض في بدايته طبيعة العلاقات بين الإمام وبريطانيا خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى ثم انتقل إلى تحليل موقف الإمام بعد اندلاع تلك الحرب ، فقال : « كان الموقف بهذه الصورة : انعزال سياسي كامل عن الحكومة البريطانية وتهرب عن الحكومة التركية ، حين استلم ابن سعود في حوالي العشرين من أكتوبر المعلومات التي تفيد بأن الكابتن شكسبير قد أرسل إليه . وفي الوقت نفسه استلم رسائل وبرقيات ووعوداً لا تحصى من الباب العالي ، ولكنه ، أملاً في أن إيفادي لم يعن أن الحكومة البريطانية قد عادت ثانية للتفكير في التماسه القديم أن تضعه تحت حمايتها ، ظل يتهرب من الترك ، واستلم تالياً ... رسالة تعهدات وكيل المقيم المؤرخة في ١٤ ذي الحجة ١٣٣٢ هـ/٣نوفمبر ١٩١٤ م . وقد طلب منه في هذه الوثيقة الأخيرة أن يورط نفسه في حرب مكشوفة مع تركيا ، وبالمقابل فإن الحكومة البريطانية :

١ ـ تحميه من انتقام الترك .

٢ ـ تحميه من هجوم عن طريق البحر .

٣ ـ وتخبره بأن وضعه الواقعي defacto في نجد والاحساء سوف يعترف به ، وأنها تستعد للدخول في علاقات تعاهدية معه .

« إن عبد العزيز المفعم بالعاطفة الوطنية تجاه بلده ، العميق الالتزام بدينه ، وذا الرغبة المكرسة لبذل جهده من أجل مواطنيه بتوفير سلم وأمن دائمين لهم ، وجد نفسه الآن في موقف صعب . فهو يثق بالحكومة البريطانية أكثر من أية حكومة أخرى ، ويرغب في إقامة علاقات أمتن معها ، ودليلاً على إخلاصه لها ظل يتهرب من الترك مع ما في ذلك من بعض المخاطرة عليه ، ولكن دون أن يلتزم بأهدافها [بريطانيا] . ويطلب منه الآن توريط نفسه في حرب مكشوفة مع ألد أعدائه وأكثرهم قوة (الترك) ، ومن قبل الدولة التي أخبرته قبل ستة أشهر بأنها لا تستطيع التدخل لصالحه ، والتي تركته حراً في التوصل إلى اتفاق مع الترك .[13] حقيقة أنه استلم تعهدات من الجانب البريطاني ، ولكنها جاءت في وثيقة ليست إلا رسالة مبهمة لم تحدد إن كانت تلك التعهدات تقتصر على زمن الحرب الحاضرة فقط أو أنها تشمل المستقبل أيضاً ، ولا

تلمح إلى ما إذا كانت شروط أخرى ستطلب منه فيما بعد ، ولا يمكن اعتبارها صكاً ملزماً للجانبين في المستقبل . وفوق ذلك فإن بلده كان محوطاً من الغرب والشمال بذينك التابعين التركيين ،(١٤) وإذا ما كان كيد الترك وعونهم سيوجد في المستقبل اتحاداً أقوى بكثير من أن يستطيع مواجهته لوحده ، فإلى أي مدىً كانت تلك التعهدات ستطبق عملياً ؟ وبالنظر لهذه الشكوك فإن خطر وضع نفسه وبلده عرضة للعداء الدائم من قبل الحكومة العثمانية وكذا تابعيها الذين يستطيعون التحرك ضده كان أكبر من أن يلتزم به بخفة ، ولكن ، دليلاً على رغبته المخلصة في معاونة الحكومة البريطانية دون تعريض نفسه للريبة دون جدوى ، فإنه أبقى ابن رشيد عاجزاً عن التحرك ، وأغرى العالم العربي من خلال النصح والإرشاد بالتحول عن موقف ربما كان معادياً بصورة فعالة إلى آخر متعاطف بوضوح مع بريطانيا العظمى »(١٥) .

ولابد من قطع استطراد شكسبير هنا للقول إن تحليله لتحفظات الإمام عبد العزيز كان مصيباً تماماً . ولكن لا يبدو كذلك تحديده لدافع تحرك الإمام ضد خصمه ابن رشيد في هذه الفترة وتصويره وكأنه الرغبة في منع ابن رشيد في الانضمام إلى الترك ضد بريطانيا . إذ تدل كل الشواهد على أنه كان استمراراً للصراع التقليدي بين الرجلين ، خاصة وأن ابن رشيد كان قد أخل قبيل ذلك باتفاقية السلام المعقودة بين الجانبين . أما الرغبة في إعاقة ابن رشيد عن القيام بأي تحرك ضد بريطانيا فكانت نتيجة للمعاهدة بين الإمام عبد العزيز وبريطانيا وليست سابقة لها . كما لا يفوتني أن أتحفظ هنا أيضاً على ما أورده شكسبير عن تأثير الإمام في تحويل موقف العالم العربي من معادٍ لبريطانيا إلى متعاطف . إذ لم يحدد شكسبير أو غيره الجهود التي بذلت عملياً في هذا السبيل . كذلك لم يحدد المقصود بـ « العالم العربي » ، وهل يقتصر على شبه جزيرة العرب أم العالم العربي بأكمله ؟

ونعود إلى رسالة شكسبير لنتعرف على كيفية إزالته لتحفظات الإمام عبد العزيز ، إذ يقول : « بذلت غاية جهدي لإزالة عوامل سوء الفهم المشار إليها أعلاه ، ولكنني وجدت لا شيء سيرضيه أقل من معاهدة ذات فقرات توضح بصورة صريحة التزامات كل من الجانبين ، ومن أجل بلورة ما في ذهنه اقترحت عليه تسهيلاً للأمور إرسال مسودة أولية تتضمن ما هو مستعد لقبوله وما هو راغب فيه ، فوافق على هذا ، ولي الشرف أن أرفق هنا نسخة عربية وترجمة تقريبية للمسودة . لقد فهم ابن سعود تماماً أن هذه المسودة هي مجرد محاولة لإيجاد شيء محدد بعض الشيء ليتم العمل عليه ، ويرجح

أنها ستخضع لتعديلات كبيرة فتحذف بعض شروطها ويستبدل بعضها الآخر . وكيفما رغبت حكومة جلالته بتغيير الشروط فيجب أن يؤخذ في الاعتبار أن ابن سعود ليست لديه نية التخلي عن موقفه المحايد وحريته في إجراء ترتيباته الخاصة مع الترك (وهو واثق من أنه سيحصل على شيء منهم لدرجة حديثه « عن البديل ذي الأفضلية التالية » إلى أن يحصل على معاهدة موقعه ومختومة مع الحكومة البريطانية ، وهو لن يتحرك خطوة أخرى نحو جعل الأمور أكثر سهولة لنا أو أكثر صعوبة للترك ، بقدر ما يتعلق الأمر بالحرب الراهنة ، إلى أن ينال من تلك المعاهدة بعض الضمانات المثبتة جداً لوضعه مع بريطانيا العظمى باعتبارها عملياً الدولة المسيطرة على شؤونه الخارجية suzerain . وإذا ما منح ذلك فيمكن الاعتماد عليه في استخدام موارده كلها ونفوذه الهائل في بلاد العرب إلى جانبنا ، ليس في الحرب الحاضرة فقط بل وفي المستقبل أيضاً ، وفي الاستمرار بعد عقد المعاهدة بعدم التعامل مع أية دولة أجنبية أخرى دون التشاور معنا أولاً . إنه يلتمس اتخاذ قرار في أقرب فرصة ممكنة ، لأن موقفه المحايد الآن يربكه مع الترك بصورة كبيرة . وفي حالة الإخفاق في الوصول إلى اتفاق شامل سريع جداً معنا يجب عليه ـ دفاعاً عن النفس وتجنباً لأعمال الانتقام ـ أن يقدم دليلاً عملياً على نواياه للوقوف بجانب الترك . وليس في هذا القول تهديد ضمني لنا ، لأن العداء المر للترك هو تقريباً هاجس عبد العزيز ، ولكنه يعترف بأنه إذا أخفق في الحصول على الحماية البريطانية فيجب عليه أن يعقد سلاماً مع عدوه وأن يظهر له نفسه في الحال باعتباره صديقاً . فليس هنالك موقف وسط بالنسبة له »[16] .

ويستدل من إصرار الإمام عبد العزيز على توقيع معاهدة واضحة محددة مع بريطانيا على ما كان يتصف به من مهارة وفهم عصري للعلاقات السياسية بين الدول ، وقد قارن أحد الباحثين موقف الإمام هذا بمواقف بقية الزعماء العرب المعاصرين ، فقال : « ولعل في هذا ما يدل على أن ابن سعود كان أكثر زعماء العرب وقتها وعياً سياسياً ، إذ اكتفى جميعهم مضطرين وغير مضطرين بقبول خطابات البريطانيين واعتبارها وثائق في حكم الاتفاق ، وبرهنت الأيام بعدها على كذب الوعود البريطانية .[17] كما تتجلى مهارة الإمام عبد العزيز التفاوضية من إدراكه لقوة موقفه نتيجة تلهف بريطانيا لكسبه إلى جانبها من ناحية ، ولوجود البديل التركي من ناحية أخرى ، وقد استمر هذا الوضع للحيلولة دون قيام بريطانيا بالمماطلة فطالب بعقد المعاهدة في أسرع وقت ، وإلا فإنه سيلجأ إلى البديل الجاهز ، أي الدولة العثمانية .

وقد دافع شكسبير في تقريره المذكور آنفاً دفاعاً حاراً عن عقد المعاهدة مع الإمام عبد العزيز على ضوء ما سطره في مسودته ، وبين المزايا الكثيرة التي ستنالها بريطانيا من تلك المعاهدة ، دون تبعات جدية في الواقع ، أما مسودة المعاهدة التي أعدها الإمام عبد العزيز فكانت **تتضمن ما يلي** :

١ ـ إن الحكومة البريطانية ستعلن وتعترف بأن نجد والأحساء والقطيف وملحقاتها والموانئ الخاصة بها على ساحل الخليج تابعة لي ، وهي أراضي آبائي وأجدادي ، وبأنني حاكم مستقل لها وكذلك أولادي من بعدي وورثتهم ، وأن الأراضي المذكورة أعلاه أراضٍ مستقلة ليس لأية دولة أجنبية أي حق بالتدخل فيها .

٢ ـ إن الحكومة البريطانية ستعلن حدود تلك الأراضي شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، براً وبحراً ، وأنه فيما يتعلق بالبدو الذين يترحلون بين المدن المجاورة التي هي إما تحت الحماية البريطانية أو تحت الحكم البريطاني المباشر ، إذا نشبت خلافات بيني وبين زعماء المدن المذكورة وظهرت دعاوى حول هذه الأمور فيجب أن تحل طبقاً لملكية الآباء والأجداد .

٣ ـ إن كل التقاضي في أراضٍ جميعها سوف يظل طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية السمحة حسب مذهب أحمد بن حنبل السلفي ، وسيخضع كل من يقيم هنا لذلك في جميع القضايا ، أو سيخضع للعرف السائد في المدينة التي يكون بها ، سواء أكانت رعاياي أو رعايا الدول المجاورة لأراضيّ ، إذ أن الفرائض الشرعية هي عمادنا ولا غنى لنا عنها .

٤ ـ لن يسمح لأي أجنبي بنيل قدر شبر من أراضٍ داخل الحدود التي ستعين حتى لو عن طريق المبادلة إلا بعد الرجوع إليّ والحصول على إذني .

٥ ـ بعد إقرار البنود الواردة أعلاه فإن بريطانيا العظمى ستتعهد بتوفير الحماية لأراضيّ ومنع كل تجاوز أو عدوان يقع عليها براً أو بحراً ومن أية قوة كان .

٦ ـ إن بريطانيا العظمى ستعد بعدم السماح أو التشجيع أو توفير الملجأ للأشخاص المتهمين أو الهاربين من أراضي سواء كانوا حضراً أو بدواً .

٧ ـ ستحترم بريطانيا رعاياي وتصون حقوقهم وتعاملهم معاملة رعاياها حين يكونون مقيمين في أراضيها أو البلدان التابعة لها .

٨ ـ إذا قبلت بريطانيا العظمى البنود السابقة وأقرتها ، فإنني عندها أقبل وأقر بالانقطاع عن التعامل مع أية دولة أخرى في كل ما يتصل بالامتيازات

والتدخلات والاتصالات التي ستقتصر على حكومة بريطانيا العظمى .

٩ ـ سألتزم بحماية التجارة داخل أراضي من كل اعتداء ، وسأعامل رعايا بريطانيا العظمى طبقاً للمعاملة التي يلقاها رعاياي في كل الأمور الحكومية والتجارية في أقطار بريطانيا العظمى وفي البلدان التابعة لها .

١٠ ـ ألزم نفسي بتوفير الحماية من كل اعتداء لرعايا الحكومة البريطانية ولأولئك الخاضعين لحمايتها في السواحل والموانئ الخاضعة لحكمي .

١١ ـ سأمنع التجارة بالسلاح والذخيرة سواء تمت من قبل حكومة أو تجار في كل الموانئ الخاضعة لحكمي بشرط أنني إذا احتجت أي شيء من السلاح والذخيرة فسأرجع للحكومة البريطانية من أجل توفير احتياجاتي .[١٨]

درس كوكس مسودة المعاهدة كما اقترحها الإمام عبد العزيز ، فرفعها مشفوعة بملاحظاته إلى حكومة الهند في السابع عشر من يناير ١٩١٥ م . ومما جاء في تلك الملاحظات : « النقطة الوحيدة التي تبدو جديرة بتعليق خاص هي قضية الحماية من أي عدوان خارجي بري ، فحينما دعونا ابن سعود للتحرك نحو البصرة تعهدنا بحمايته من انتقام الترك ، ولهذا وبقدر تعلق الأمر بالأخيرين فإن ما يطلب ابن سعود الحصول عليه الآن لا يعد شيئاً كثيراً جداً . وبإبعاد الترك جانباً فإن بلاد العرب الداخلية يتعذر دخولها عملياً على أية دولة سوانا ، وأتجرأ على الاعتقاد بأننا سنتحمل مخاطرة قليلة بإعطاء التعهد المرغوب فيه من قبل ابن سعود مع التحفظ بالقول أن العدوان يجب أن يكون دون استفزاز .

ومضى كوكس معدداً النقاط الإضافية التي يجب أن تضمن في المعاهدة المنتظرة ، متوقعاً ألا يثير الإمام عبد العزيز إشكالاً حول أي منها عدا ما يتصل بمكتب البرق . **وتلك النقاط هي :**

يجب أن يتعهد ابن سعود بما يلي :

١ ـ استقبال ممثل للحكومة البريطانية إما في عاصمته أو في أي ميناء بحري تابع له أو فيهما معاً إذا كان ذلك أمراً مرغوباً فيه .

٢ ـ الموافقة على استثناء رعايانا غير المسلمين من الخضوع لقوانين بلده .

٣ ـ الامتناع عن كل تدخل في الساحل المتهادن وقطر .

٤ ـ الامتناع عن شن حرب عن طريق البحر دون موافقتنا ، والتعاون معنا في قمع

القرصنة .

٥ ـ حماية حركة الحجيج المارة عبر أراضيه .

٦ ـ جباية رسوم جمركية بالمعدلات التي نرى أنها معقولة مقارنة بالمعدلات السائدة في البحرين والكويت .

٧ ـ السماح للسفن التجارية البريطانية بزيارة موانئه .

٨ ـ الموافقة على إقامة مكتب بريد ـ وربما مكتب برق أيضاً ـ في مينائه عندما يحين الوقت .

« لم أضمن أي بند حول تجارة الرقيق لأنها ليست مشكلة عويصة في هذه الأيام ، ولم تسبب لنا إشكالاً في الكويت ... هل من الممكن تفويضي وضع مسودة معاهدة على أساس الخطوط الواردة أعلاه ليتم التفاوض عليها عن طريق شكسبير ؟ إذ أن الفرصة ليست متاحة لي الآن للاجتماع شخصياً بابن سعود » .

« إنني مضطر لإرسال رد لابن سعود مع رسوله الذي أمر بالرجوع حالاً . كما أني مرسل لشكسبير فحوى النقاط الإضافية الواردة أعلاه ، وسائله أن يناقشها مع ابن سعود حسبما ينسب . وإني مجيب ابن سعود بأن معاهدة تصون وضعه بما يرضيه يمكن التوصل إليها على أساس الخطوط المشار إليها تقريباً ، وإني أبرقت إلى الحكومة حول الموضوع ، ولكن صياغة المعاهدة من الضروري أن تستغرق بعض الوقت ـ وأنه في الوقت نفسه يجب أن يأخذ في اعتباره أن الترك تقهقروا في كل المواقع وهم في وضع ضعيف جداً ، ولذلك فليس هناك حاجة إطلاقاً لتوريط نفسه الآن بأي تحرك إلى جانبهم يمكن أن يضر بمركزه في نظر حكومة جلالته ، وأن الضرورة المسلمة لمصالحه المستقبلية تحتم عليه ألا يفعل ذلك »[١٩] .

ويلحظ هنا إضافة لحماسة كوكس لتوقيع المعاهدة ، رغبته في تضمين تلك المعاهدة بنوداً أخرى تمثل قيوداً على سياسة الإمام عبد العزيز الداخلية . مثل استثناء الرعايا غير المسلمين من الخضوع لأحكام الشريعة ، وتحديد الرسوم الجمركية ، وممارسة الخدمات البريدية من خلال مكتب بريد بريطاني . كما أنه أراد أن يضيف قيوداً أخرى على سياسة الإمام الخارجية فوق تلك التي وردت في المسودة ، مثل وجوب استقبال الممثل البريطاني ، وعدم التدخل في شؤون الإمارات المجاورة ، وعدم شن حرب بحرية دون موافقة بريطانيا . ويلحظ أيضاً أن كوكس أدرك محاولة الإمام تحسين مركزه التفاوضي

بالتلويح بالانضمام إلى تركيا . ولذلك كتب له منبهاً إلى أن الترك يخسرون الآن في كل المواقع فلا فائدة من التلويح بالانضمام إليهم ، وأنه سيكون خاسراً بالفعل لو كان جاداً في ذلك التلويح .

لم تشارك حكومة الهند كوكس في حماسته لإعداد المعاهدة على ضوء ما جاء في مسودة الإمام ، ورأت في تلك المسودة صعوبات كبيرة مثل البنود المختصة بتحديد الحدود وإيواء اللاجئين وتطبيق الشريعة وتجارة السلاح[٢٠] وأبرقت لكوكس في الحادي والعشرين من يناير تقترح إدخال تعديلات على المسودة تتضمن اشتراط أن ينال خليفة الإمام موافقة الحكومة البريطانية قبل تنصيبه ، واستثناء الرعايا البريطانيين من تطبيق الشريعة ، وقد رد كوكس بعد يومين معبراً عن اعتقاده في أن الإمام سوف يقبل التعديلات . أما إذا رفض فإن رفضه سوف ينصب على موضوع اختيار خليفته . ولمواجهة مثل ذلك الاحتمال اقترح كوكس أن يكون الشرط المطلوب توفره في الخليفة هو موافقة قبائل البلاد والبريطانيين معاً على تنصيبه . وحول استثناء الرعايا البريطانيين من الخضوع لأحكام الشريعة عبر عن قناعته باستعداد الإمام للموافقة على ذلك ، لأن ما كان يدور في ذهنه عند وضع هذا البند في مسودته هو رعايا الإمارات الخليجية الخاضعة للحماية البريطانية .[٢١]

وبعد تلك المشاورات والمراسلات بلورت حكومة الهند موقفها ، فأبرقت إلى وزارة الهند في لندن بتاريخ التاسع والعشرين من يناير ١٩١٥ م مقترحة أن يتم إعداد مسودة المعاهدة المزمعة على ضوء الأسس العامة **التالية** :

١ ـ تعترف الحكومة البريطانية بابن سعود حاكماً مستقلاً لنجد والأحساء والقطيف وتضمن الحكم الوراثي في عائلته شريطة أن تقبل القبائل بالحاكم الجديد وتصادق عليه حكومة جلالة الملك .

٢ ـ تساعد الحكومة البريطانية ابن سعود إلى الحد وبالطريقة التي يستدعيها الموقف في حالة تعرض أراضيه لاعتداء من جانب أية قوة أجنبية بدون مبرر أو إثارة .

٣ ـ ومقابل ذلك يتعهد ابن سعود بألا يتعامل مع أية دولة أجنبية أو يمنح أي امتيازات لرعاية أية دولة أجنبية إلا بنصيحة الحكومة البريطانية ، وفي هذه الحالة يجب عليه أن يتبع هذه النصيحة بدون أي تحفظ .

٤ ـ يوافق الطرفان على عقد معاهدة تفصيلية بمجرد أن تتم الموافقة على هذه الخطوط العريضة حيث تشمل التفصيلات المسائل الأخرى التي تمس مصالحهما » .

وقد وافقت وزارة الهند على اقتراح حكومة الهند في الحادي والثلاثين من يناير . كما أقرته وزارة الخارجية في الثاني من فبراير ١٩١٥[٢٢] .

وفي حين كانت السلطات البريطانية المختلفة تتداول فيما بينها أمر المعاهدة وتخول برسي كوكس صلاحية إعداد مسودة لها على ضوء الخطوط التي أقرت ، كان المبعوث البريطاني الكابتن شكسبير يلاقي مصيره المحتوم . إذ قتل أثناء معركة « جراب » التي جرت بين ابن سعود وابن رشيد في يناير ١٩١٥ . وقد طلب ابن سعود في فبراير إيفاد بديل لشكسبير لمواصلة المفاوضات حول المعاهدة أو أن يتم تبادل الآراء حولها عن طريق المراسلة ، وتعليقاً على هذا الطلب كتب كوكس إلى حكومة الهند طالباً تخويله إرسال مسودة المعاهدة التي انتهى من صياغتها إلى الإمام عبد العزيز ـ وأضاف أنه سينصحه بالتوقيع على تلك المسودة دون إبطاء ، لأنه بمجرد توقيعه عليها يمكن أن يوفد له ضابط آخر لمناقشة تفاصيل المعاهدة الثانية المقترحة ـ وأعرب كوكس عن اعتقاده في أنه حتى لو لم يوقع الإمام تلك المسودة دون مناقشة ، فإن الجانب البريطاني سوف يفيد من ذلك بالتعرف على مكامن اعتراضات الإمام قبل إيفاد ضابط آخر .[٢٣] وقد أقرت حكومة الهند اقتراح كوكس هذا ، وخولته العمل بموجبه .[٢٤]

أرسل كوكس مسودة المعاهدة التي أعدها ، وفي الرابع والعشرين من أبريل ١٩١٥ م أعاد ابن سعود المعاهدة موقعة ، ولكن بعد أن أدخل عليها بعض التعديلات . وقد برر الإمام إدخاله تلك التعديلات على المسودة بقوله : « إن تعديلات غير مهمة وجدت ضرورية لأسباب قوية حتمتها الأوضاع المحلية والحاجة لتطمين السكان والهيمنة على الأسرة السعودية » .[٢٥] أما نص المسودة التي أعادها الإمام معدلة فقد كانت كما يلي ، علماً بأنني سأضع تحت التعديلات خطاً لتمييزها :

« إن الحكومة البريطانية السامية من جانبها ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن **بن** فيصل آل سعود حاكم نجد والأحساء والقطيف **وجبيل والبلدان والموانئ التابعة لها** باسمه واسم ورثته وخلفائه ورجال قبائله ، لكونهما راغبين في تأكيد وتقوية العلاقات الودية القائمة بين الجانبين منذ **زمن طويل** ، وبقصد تعزيز مصالح كل منهما فقد سمت الحكومة وعينت المقدم السير برسي **كوكس** ، ... ، المقيم البريطاني في الخليج الفارسي باعتباره مبعوثاً مطلق الصلاحية لعقد معاهدة لهذا الغرض مع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود .

إن المذكورين المقدم السير برسي كوكس وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود الذي سيعرف فيما يلي بـ « ابن سعود » قد اتفقا على البنود التالية وأبرماها

١ ـ إن الحكومة البريطانية تعلن وتعترف بأن نجد والأحساء والقطيف والجبيل وملحقاتها وأراضيها التي ستناقش وتحدد فيما بعد وأراضيها وموانيها على ساحل الخليج هي بلدان ابن سعود وآبائه من قبله ، وبموجب هذا تعترف بابن سعود المذكور باعتباره حاكماً مستقلاً وزعيماً مطلقاً لقبائلها وبأبنائه وأعقابه بالوراثة من بعده حيث سيتم تنصيب الخليفة (من قبل الحاكم القائم) أو بالدعوة لتصويت الرعايا القاطنين في تلك البلدان .

٢ ـ في حالة حدوث عدوان من قبل أية دولة أجنبية على أراضي البلدان التابعة لابن سعود وأعقابه ستعاون الحكومة البريطانية ابن سعود في كل الظروف وفي أي مكان .

٣ ـ يوافق ابن سعود بموجبه ويعد بالامتناع عن الدخول في أية مراسلة أو اتفاقية أو معاهدة مع أية أمة أو دولة أجنبية ، وعلاوة على ذلك تقديم إشعار فوري للسلطات السياسية للحكومة البريطانية عن أية محاولة من جانب أية دولة أخرى للتدخل في الأراضي المذكورة أعلاه .

٤ ـ يتعهد ابن سعود بموجبه بأنه لن يتخلى عن أو يرهن ، أو بطريقة أخرى يهب الأراضي المذكورة أعلاه أو أي جزء منها ، أو (يمنح) امتيازات ضمن تلك الأراضي لأية دولة أجنبية أو لرعايا أية دولة أجنبية دون موافقة الحكومة البريطانية التي يستتبع نصيحتها دون تحفظ ، حين تتطلب مصالحه ذلك .

٥ ـ يعد ابن سعود بموجبه بإبقاء الطرق المارة عبر أراضيه إلى المزارات المقدسة مفتوحة وبحماية الحجاج أثناء عودتهم من الأماكن المقدسة .

٦ ـ يتعهد ابن سعود كما تعهد آباؤه من قبله بالامتناع عن كل عدوان أو تدخل في أراضي الكويت والبحرين وشيوخ قطر وساحل عمان الذين هم تحت حماية الحكومة العلية ولهم علاقات تعاهدية معها ، والذين ستحدد حدود أراضيهم فيما بعد .

٧ ـ إن الحكومة البريطانية وابن سعود يوافقان على عقد معاهدة أخرى مفصلة تتعلق بأمور تهم الطرفين بصورة مشتركة »[٢٦] .

نقل كوكس في السادس والعشرين من يونية إلى حكومته أمر التعديلات التي أدخلها

الإمام عبد العزيز على المسودة البريطانية ، ونقلت حكومة الهند الأمر بدورها إلى لندن . وفي السادس عشر من أغسطس ١٩١٥ م أبرق وزير الدولة لشؤون الهند إلى نائب الملك البرقية التالية : « المادة الأولى من المعاهدة : يجب على كوكس ، بعد شرح مناسب ، الإصرار على إعادة الكلمات الأصلية التي تعلق حكومة خادم جلالته أهمية كبيرة . لا يبدو أن هناك اعتراضاً على انتخاب في حالة عدم وجود تسمية [من قبل الحاكم القائم لخلفه] شرط أن تكون طريقة الانتخاب عملية ومعترفاً بها من قبل كل القبائل المعنية على أنها مشروعة طبقاً للعرف العربي ، وإلا فإننا ربما سنصبح متورطين في نزاعات قبلية داخلية . المادة الثانية : « غير مستفز » يجب أن تستعاد ، ولا ترغب حكومة جلالته ترك غموض فيما يتعلق بمساعدتها ، وإذا لم يوافق ابن سعود على الكلمات الأصلية فإنها تفضل « إلى الحد وبالطريقة التي تعتبرها الحكومة البريطانية بعد التشاور مع ابن سعود فعالة للغاية لحماية مصالحه. » . المادة الرابعة : يجب على كوكس الحصول على حذف ما أضافه ابن سعود إذا كان ذلك ممكناً ، وإن لم يمكن فيستبدلها باقتراح من عنده . فيما يتعلق بالتعديلات الأخرى يجب أن يمارس كوكس حريته بالتصرف »[٢٧] .

وفي السادس والعشرين من أغسطس ١٩١٥ م أرسل نائب الملك في الهند رسالة إلى الإمام عبد العزيز أخبره فيها أن كوكس قد خول توقيع المعاهدة معه ، وقد رد الإمام على الرسالة في السادس عشر من أكتوبر معلناً أنه لازال في انتظار الموعد الذي يحدده كوكس للقاء وإتمام المباحثات حول المعاهدة .[٢٨] ويلفت النظر هنا التباطؤ البريطاني في إتمام أمر المعاهدة بعد الحماسة التي وسمت محاولات البريطانيين في البداية ، وأعتقد أن السبب الكافي خلف ذلك هو المماطلة بهدف إجبار ابن سعود على قبول وجهة النظر البريطانية ، خاصة وأن موقفه التفاوضي قد ضعف نتيجة لتمرد العجمان عليه ،[٢٩] واضطراره لطلب المساعدة البريطانية . يرجع ذلك الاعتقاد أن حكومة الهند أيدت في السابع من أكتوبر ١٩١٥ م اقتراح كوكس تقديم ألف بندقية ومائتي ألف طلقة وقرض بدون فائدة بمبلغ عشرين ألف جنيه يدفع للإمام على أقساط ملائمة . وأن يرفق الإشعار الذي يرسل له بالاستعداد لدفع القسط الأول من القرض مع نسخة منقحة من المعاهدة المقترحة مع شروحات مفصلة ورجائه توقيع تلك النسخة[٣٠] . وقد أقر وزير الدولة لشؤون الهند ذلك الاقتراح وفوض حكومة الهند تطبيقه .[٣١]

ولا يبدو أن الضغط الاقتصادي البريطاني قد نجح في دفع الإمام عبد العزيز لقبول

المسودة البريطانية دون مناقشة . ولذلك استمرت السلطات البريطانية في المماطلة في تحديد موعد المباحثات النهائية لعقد المعاهدة . وقد أحس الإمام بميل الجانب البريطاني إلى المماطلة لذلك أرسل رسالة إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين في أوائل ديسمبر ١٩١٥ م ، طلب منه فيها الإبراق إلى كوكس من أجل التعجيل بإجراء المباحثات النهائية . وعلل طلبه بسببين ، أولهما علمه بمكائد تجرى الآن بين الترك وزعماء عرب معينين ، وثانيهما أنه الآن على مسيرة ستة أيام شمال الأحساء ، ولكنه سوف يغير قريباً مكان إقامته وينتقل إلى مكان آخر يصعب عليه منه إجراء المباحثات شخصياً .(٣٢)

وأخيراً توجه برسي كوكس إلى جزيرة دارين للقاء الإمام عبد العزيز وإجراء المباحثات الختامية معه من أجل توقيع المعاهدة . وكان الجانب البريطاني يحمل مسودته الأصلية المقترحة ، بينما كان الإمام يحمل المسودة المعدلة وسأورد هنا نص المسودة البريطانية الأصلية والصياغة النهائية للمعاهدة ، مقارناً بينها بنداً بنداً ، مورداً تعليقات كوكس على ما جرى من حوار بينه وبين الإمام حول كل بند قبل صياغته النهائية .(٣٣)

التمهيد في المسودة البريطانية

إن الحكومة البريطانية من جانبها ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود حاكم نجد والأحساء والقطيف باسمه واسم ورثته وخلفائه ورجال قبائله ، لكونهما راغبين في تأكيد وتقوية العلاقات الودية القائمة **لأجيال** بين الجانبين وبقصد تعزيز مصالح كل منهما فقد سمت الحكومة البريطانية وعينت المقدم السير برسي كوكس ،... ، المقيم البريطاني في الخليج باعتباره مبعوثاً مطلق الصلاحية لعقد معاهدة لهذا الغرض مع عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود .

التمهيد في النص النهائي

إن الحكومة البريطانية السامية من جانبها ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ، حاكم نجد والأحساء والقطيف **والجبيل والبلدان والموانئ التابعة** لها باسمه واسم ورثته وخلفائه ورجال قبائله ، لكونهما راغبين في تأكيد وتقوية العلاقات الودية القائمة بين الجانبين **منذ زمن طويل** وبقصد تعزيز مصالح كل منهما ، فقد سمت الحكومة البريطانية وعينت المقدم السير برسي كوكس ،... ، المقيم البريطاني في الخليج باعتباره مبعوثاً مطلق الصلاحية لعقد معاهدة لهذا الغرض مع عبد العزيز بن

عبد الرحمن بن فيصل آل سعود .

إن المذكورين المقدم السير برسي كوكس وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود الذي سيعرف فيما يلي بـ « ابن سعود » قد اتفقا على البنود التالية وأبرماها :

إن المذكورين المقدم السير برسي كوكس وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ، الذي سيعرف فيما يلي بـ « ابن سعود » قد اتفقا على البنود التالية وإبرماها :

وبالمقارنة بين النصين يظهر أن الإمام نجح في تثبيت التعديل الذي أدخله على التمهيد الذي ورد في المسودة البريطانية ، وذكر كوكس أنه حاجج الإمام على عدم ضرورة ذكر جبيل باعتبار أن الحكومة البريطانية كانت قد اعترفت مسبقاً بوقوع جبيل ضمن لواء (سنجق) الأحساء ، ولكن الإمام رد بأن إضافة تلك الكلمات ناشئة من ضرورة إقليمية حيث إن حدود بلاده على ساحل الخليج تلامس الحدود التي تدعي بها الكويت ، ولهذا فإنه يريد ذكرها تحديداً على أنها ضمن أراضيه ، وذكر كوكس أنه قبل طلب الإمام ولم يجد ما يعترض به عليه ، لأن الجبيل تقع تماماً خارج الحدود التي اعترف الجانب البريطاني بأنها تمثل حدود الكويت في المفاوضات البريطانية ـ العثمانية(٣٤) وعن وضع عبارة « منذ زمن طويل » بدل « لأجيال » ذكر كوكس أن ذلك تم بطلب من الإمام ، وأنه قبل الطلب دون تعليق .

<u>المادة الأولى</u> : **المسودة البريطانية :**

أن الحكومة البريطانية تعلن وتعترف بأن نجد والأحساء والقطيف وأراضيها وموانيها الواقعة على ساحل الخليج هي أراضي ابن سعود وأراضي آبائه من قبله ، وبموجب هذا تعترف بابن سعود المذكور باعتباره حاكماً مستقلاً عن هذا الطريق وبأبنائه وأعقابه بالوراثة من بعده ، ولكن اختيار الخليفة سيكون متوقفاً على موافقة من الحكومة البريطانية بعد تشاور سري معها .

<u>المادة الأولى</u> : **في النص النهائي (٣٥)**

إن الحكومة البريطانية تعلن وتعترف بأن نجد والأحساء والقطيف والجبيل وملحقاتها وأراضيها التي ستناقش وتعين فيما بعد وموانيها على ساحل الخليج هي بلدان ابن سعود وآبائه من قبله ، وبموجب هذا تعترف بابن سعود المذكور باعتباره حاكماً مستقلاً عن هذا الطريق وزعيماً مطلقاً لقبائلها ، وبأبنائه وأعقابه بالوراثة من بعده ، وسيتم اختيار الخليفة طبقاً لتعيين سلفه (أي من الحاكم القائم) ولكن بشرط

ألا يكون شخصاً معادياً للحكومة البريطانية بأي وجه ، مثل كونه معادياً للشروط الواردة في هذه المعاهدة .

وتظهر المقارنة بين النصين الكثير من الفروق ، أولها إضافة عبارة « والجبيل ... التي ستناقش وتعين فيما بعد » .. وذكر كوكس أنه وافق على هذه الإضافة للأسباب نفسها التي قبل بها إضافتها إلى التمهيد . ويلحظ أيضاً أن موضوع تحديد تلك الأراضي لم يكن قد ذكر في المسودة البريطانية ، ولكن الإمام نجح في إضافته توقعاً منه لمشكلات قد تثور بينه وبين الكويت حول الحدود . وذلك ما حدث بالفعل بعد عدة سنوات ، ولم تحل المشكلة إلا بالتدخل البريطاني وتوقيع اتفاقية العقير سنة ١٩٢٢ م . ويبدو النص على التحديد هنا مقصوراً على أراضي الجبيل بينما كان الإمام يريد من بريطانيا في المسودة الأولية التي قدمها لشكسبير المساعدة في تحديد حدود كافة أراضيه من الشمال والجنوب والشرق والغرب براً وبحراً .

والفرق الثاني بين النصين هو وضع كلمة « بلدان » في النص النهائي بدل كلمة « أراضي » في المسودة البريطانية ، وذكر كوكس أن ذلك الاستبدال تم بناء على رغبة الإمام ولعدم وجود اعتراض على ذلك لدى الجانب البريطاني . والفرق الثالث بين النصين هو إضافة عبارة « وزعيماً مطلقاً لقبائلها » . وذكر كوكس أن الإمام كان مصراً على ادخال هذه العبارة ، وأضاف أنها مسألة يصعب النقاش فيها ، ولذلك لم يصر على حذفها . ويأتي بعد ذلك الفرق الرابع بين النصين وهو المتعلق بكيفية تعيين خليفة الحاكم . وقد ذكر كوكس أن كلمة designation الواردة في المسودة البريطانية قابلتها كلمة « تنصيب » في المسودة المعدلة من قبل الإمام ، وهي كلمة ذات معنًى ملتبس ولذا أقنع الإمام باستبدالها بكلمة « تعيين » التي لا لبس فيها . وأضاف أنه ناقش مع الإمام ما جاء في المسودة المعدلة عن « دعوة الرعايا للتصويت » ، وعن إمكانية تطبيق ذلك عملياً ، وعما إذا كانت تلك الطريقة مألوفة . وقد انتهى النقاش باتفاق الطرفين على أن ذلك الاقتراح لا يمكن تطبيقه عملياً وأن من الأفضل تركه .

وانتقل كوكس بعد ذلك لبيان ما دار حول شرط الموافقة البريطانية على الخليفة المعين ، فذكر أنه أخفق في إقناع الإمام بقبول النص الذي جاء في المسودة البريطانية . وبرر كوكس للإمام إصرار الجانب البريطاني على ذلك الشرط بقوله إن خلو المعاهدة

من مثل هذا النص قد يورط الجانب البريطاني بمساندة خليفة غير صالح عين في منصبه لأنه المفضل لدى أبيه فحسب ، مع أنه قد يكون غير مقبول لدى القبائل أو معادٍ في مشاعره للبريطانيين . فرد الإمام على هذا التبرير بقوله إن ذلك الاحتمال غير قائم عملياً ، لأن الحاكم لا يعين خليفته ، والخليفة لا ينجح في خلافته ، ما لم يتمتع بثقة القبائل ويكون متمكنا من السيطرة عليها . ثم توصل الجانبان إلى حل وسط حسبما ورد في الصياغة النهائية . وبرر كوكس قبوله بتلك الصيغة بقوله : « في الحقيقة لن يكون هناك طرف ثالث في هذه المعاهدة التي سيكون تفسيرها متروكاً لنا ، ولا يجب علينا عملياً منح الاعتراف لأي أحد لا نرضاه ، ولا هو سيكون قادراً على الاستمرار دون اعترافنا به . إنني أثق بأن الشرط الذي أدرج سيعتبر كافياً لحماية مصالحنا » . ولا حاجة بي للتعليق هنا على النية البريطانية المبيتة في تفسير نصوص المعاهدة حسبما يشاؤون أو تشاء مصالحهم اعتماداً على « حق القوة » .

المادة الثانية ـ المسودة البريطانية

في حالة حدوث عدوان غير مستفز من قبل أية دولة أجنبية على أراضي ابن سعود المذكور وأعقابه فإن الحكومة البريطانية ستعاون ابن سعود إلى الحد وبالطريقة التي يبدو لها أن الموقف يتطلبها .

المادة الثانية ـ النص النهائي

إذا اعتدت أية دولة أجنبية على أراضي بلدان ابن سعود المذكور وأعقابه دون الرجوع إلى الحكومة البريطانية ودون إعطائها فرصة تبادل الرأي مع ابن سعود وتسوية الأمر ، فإن الحكومة البريطانية ستعاون ابن سعود إلى الحد وبالطريقة التي تعتقد الحكومة البريطانية بعد التشاور مع ابن سعود أنه أكثر فعالية لحماية مصالحه وأراضيه .

اختلفت الصياغة النهائية لهذه المادة اختلافاً بيناً في المسودة المعدلة التي كان الإمام يحملها وعن المسودة البريطانية الأصلية ، ولقد كانت تلك الصياغة حلاً وسطاً بين وجهتي نظر الطرفين . وعن كيفية الوصول إلى ذلك الحل الوسط ذكر كوكس أن الإمام اعترض على اشتراط أن يكون العدوان « غير مستفز » ، وبرر رفضه بالقول إن مجرد ذكر كلمة « عدوان » تعني عدم وجود الاستفزاز . ولذلك لا مبرر لإدراج تلك العبارة ، لأن البريطانيين ـ على حد قوله ـ سيكونون قادرين على الاختباء خلفها من

أجل عدم تقديم المساعدة له ، حين يكون تقديمها غير ملائم لهم في أي وقت . وأضاف الإمام قوله بأن من المؤكد ألا يكون هناك عدوان متعمد من جانبه على أية دولة أجنبية ، وإزاء ذلك لم يجد كوكس بداً من صياغة عبارة بديلة وصفها بأنها عادلة .

وجاء الخلاف الثاني بين الطرفين بشأن هذه المادة حول مدى المعاونة البريطانية للإمام عند وقوع العدوان . إذ اعترف الإمام على ما جاء في المسودة البريطانية ووصفه لصياغتها بأنها وحيدة الجانب ومتميزة جداً لصالح بريطانيا ، فاقترح كوكس عندها التعديل الذي ورد في الصياغة النهائية ، وهو الأمر الذي قبله الإمام على الفور ، وذكر كوكس أن الإمام أصر على إضافة كلمة « أراضيه » في آخر المادة ، وهو إصرار لم يجد اعتراضاً من الجانب البريطاني ، لأن الأراضي حسب رأي كوكس كانت مشمولة بكلمة « مصالحة » وهي المصلحة الرئيسة للإمام في الواقع .

المادة الثالثة ـ المسودة البريطانية

يوافق ابن سعود بموجبه ويتعهد بالامتناع عن الدخول في أية مراسلة أو اتفاقية أو معاهدة مع أية أمة أو دولة أجنبية ، وعلاوة على ذلك تقديم إشعار فوري للسلطات السياسية في الحكومة البريطانية عن أية محاولة من جانب أية دولة أخرى للتدخل في الأراضي المذكورة أعلاه .

المادة الثالثة ـ النص النهائي

يوافق ابن سعود بموجبه ويتعهد بالامتناع عن الدخول في أية مراسلة أو اتفاقية أو معاهدة مع أية أمة أو دولة أجنبية ، وعلاوة على ذلك يتعهد بتقديم إشعار فوري للسلطات السياسية في الحكومة البريطانية عن أية محاولة من جانب أية دولة أخرى للتدخل في الأراضي المذكورة أعلاه .

لا اختلاف هنا بين الصياغتين ، ولم يذكر كوكس أن أي نقاش قد جرى حولها أثناء المباحثات بينه وبين الإمام عبد العزيز .

المادة الرابعة ـ المسودة البريطانية

يتعهد ابن سعود بموجبه وللأبد بأنه لن يتخلى عن ولا يبيع ولا يرهن ولا يؤجر ، أو بطريقة أخرى يهب الأراضي المذكورة أعلاه أو أي جزء منها أو يمنح

المادة الرابعة ـ النص النهائي

يتعهد ابن سعود بموجبه على نحو جازم بأنه لن يتخلى عن ولا يبيع ولا يرهن ولا يؤجر ، أو بطريقة أخرى

امتيازات ضمن تلك الأراضي لدولة أجنبية أو لرعايا دولة ، أية دولة أجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية التي ستتبع نصيحتها دون تحفظ .

يهب الأراضي المذكورة أعلاه أو أي جزء منها ، أو يمنح امتيازات ضمن تلك الأراضي لأية دولة أجنبية أو لرعايا أية دولة أجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية ـ وأنه سيتبع نصيحتها بدون تحفظ شريطة ألا تكون ضارة بمصالحه .

هناك اختلافان في صياغتي هذه المادة ، أولهما وضع عبارة « على نحو جازم » مكان كلمة « للأبد » . ولم يتطرق كوكس في تعليقاته إلى هذا الاختلاف ، ولم يبين سببه . ولذلك فإنني أستنتج أن الإمام عبد العزيز هو الذي طالب بإدخال هذا التغيير لأنه لصالحه بشكل واضح . وثانيها حول مدى التزام الإمام بالنصيحة البريطانية ، وهو ناشئ كما ذكر كوكس عن اعتراض الإمام على النص البريطاني المطلق . وبرر كوكس قبوله بإدخال التعديل بقوله : « فيما يتعلق بهذه المادة أود تقديم الملاحظات التالية ، في المسودة البريطانية كانت « النصيحة » المشار إليها تبدو وكأنها تعني فقط النصيحة حول التخلي عن الأراضي ، وهو الأمر الذي تعالجه تلك المادة . ولكن تلك النصيحة كما وردت في الترجمة العربية جاءت بما اعتبر معه ابن سعود التعهد بقبولها تعهداً عاماً . ليس هناك بالطبع علامات وقف في اللغة العربية ،[٣٦] ولذا فإن التعهد يكون قابلاً لأي من التفسيرين . ولذلك اقترحت بأننا في النسخة الإنجليزية ، التي طلب ابن سعود نسخة منها ، يجب أن تكون لدينا نقطة وجملة جديدة بعد كلمتي « الحكومة البريطانية » . إن هذا التنقيط يجعل تعهد ابن سعود بعدم عن الأراضي تعهداً مطلقاً ، كما اعتقد بأن ابن سعود يعني أنه سيكون كذلك . وبالإضافة إلى هذا فإن ذلك يعطينا تعهداً عاماً منه باتباع نصيحتنا دون تحفظ حينما نجد من الضروري تقديمها له ، طالما أنها ليست ضارة بمصالحه » .

<u>المادة الخامسة</u> ـ المسودة البريطانية

يتعهد ابن سعود بموجبه بإبقاء الطرق المؤدية عبر الأراضي المذكورة أعلاه إلى الأماكن المقدسة مفتوحة وبحماية الحجاج في طريقهم إلى الأماكن المذكورة ومنها .

<u>المادة الخامسة</u> ـ النص النهائي

يتعهد ابن سعود بموجبه بإبقاء الطرق الواقعة ضمن أراضيه المؤدية إلى الأماكن المقدسة مفتوحة وبحماية الحجاج أثناء مرورهم إلى الأماكن المقدسة وعودتهم منها .

لا اختلافات جوهرية بين الصياغتين ، عدا تحوط الإمام بطلبه إدخال عبارة « ضمن أراضيه » كي يكون تعهده مقصوراً على الأراضي التي يمارس فيها سلطة فعلية ، وتحوطه بوضع كلمة « مرورهم » ليضمن أن وجود الحجاج في أراضيه عابر لا مستمر ـ وقد ذكر كوكس أن معنى المادة بقي كما كان رغم ذلك .

المادة السادسة ـ المسودة البريطانية

يتعهد ابن سعود كما فعل آباؤه من قبله بالامتناع عن كل عدوان على أو تدخل في أراضي الكويت والبحرين وقطر وساحل عمان أو غيرها من قبائل وزعماء تحت الحماية البريطانية ، والتي حدودها فيما بعد .

المادة السادسة ـ النص النهائي

يتعهد ابن سعود كما تعهد آباؤه من قبله بالامتناع عن كل عدوان على أو تدخل في أراضي الكويت والبحرين وشيوخ قطر وساحل عمان الذين هم تحت حماية الحكومة البريطانية والذين لهم علاقات تعاهدية مع الحكومة المذكورة والذين ستعين حدود أراضيهم فيما بعد .

ذكر كوكس أن الإمام أصر على حذف عبارة « أو غيرها من قبائل وزعماء » التي وردت في المسودة البريطانية . وبرر إصراره بالقول بأن كل الزعماء الذين تحميهم بريطانيا ولها علاقات تعاهدية معهم قد ذكروا جميعاً بالاسم . أما كوكس فيقول إنه وجد صعوبة في تبرير الإلحاح على إبقاء العبارة المذكورة باعتبارها احتياطاً لمتطلبات المستقبل ، وأنه لو ألح على إبقائها لاضطر لتعيين حالات ممكنة وثيقة الصلة بالأمر ، ولذلك فإنه وافق على حذفها .

ولا أملك هنا إلا الثناء على فطنة الإمام عبد العزيز وإدراكه الدقيق للمغازي الكامنة خلف تلك العبارة القصيرة ، فمما لا شك فيه أن الجانب البريطاني أراد استغلال هذه العبارة في منح نفسه حق حماية أية قبائل قد تنشق على الإمام مستقبلاً إذ استدعت المصالح البريطانية ذلك . كما إنه أراد الاحتفاظ بحقه في منح الحماية لحكام مناطق أخرى غير المناطق الخليجية المحددة كحاكم حائل مثلاً باعتبار ذلك وسيلة للضغط على الإمام عند الضرورة .

المادة السابعة ـ المسودة البريطانية

إن الحكومة البريطانية وابن سعود يوافقان على عقد معاهدة مفصلة إضافية تتعلق بأمور أخرى تهمهما بصورة مشتركة ، حالما يرتب ذلك بصورة مناسبة .

المادة السابعة ـ النص البريطاني

إن الحكومة البريطانية وابن سعود يوافقان على عقد معاهدة مفصلة إضافية تتعلق بالأمور التي تهم الجانبين .

ذكر كوكس أن الصياغة النهائية لهذه المادة كانت صياغة الإمام ، وأنه وافق عليها ، وأضاف أن الإمام أصر على حذف كلمة « أخرى » التي وردت في المسودة البريطانية لأنه كان يعتقد بأن كلمة « الأمور » لوحدها تكفي للإشارة إلى بعض القضايا التي ورد ذكرها في صلب المعاهدة الحالية والتي ستجري معالجتها في المعاهدة الجديدة التالية مثل قضية الحدود ، ولكون تلك النقطة غير مهمة ـ في نظر كوكس ـ فإنه لم يلح في مناقشتها ، وتبدو هذه النقطة غير مهمة بالفعل ظاهرياً ، ولكنها تعكس في جوهرها عدم ثقة الإمام بالجانب البريطاني ، وخشيته من أن يصر البريطانيون على إدخال « أمور أخرى » كثيرة في مباحثات المعاهدة الجديدة المزمعة حسبما تستدعيه مصالحهم ، بينما كان يريد هو من جانبه أن تقتصر مباحثات المعاهدة المنتظرة على الأمور التي أُجملت في المعاهدة الحالية وتحتاج إلى مزيد من التفصيل أو التحديد . ولكن صياغة هذه المادة لم تنجح في تحديد هذا المعنى الذي كان يدور في ذهن الإمام بشكل واضح .

وهكذا وقع الإمام عبد العزيز آل سعود وبرسي كوكس في الثامن عشر من صفر سنة ١٣٣٤ هـ/السادس والعشرين من ديسمبر ١٩١٥ م هذه المعاهدة التي أصبحت تسمى « معاهدة دارين » . وكان رأي كوكس في المعاهدة أنها ذات نص مرضٍ يستجيب للمتطلبات الأساسية للجانب البريطاني(٣٧) ، وأن ذلك كافٍ لجعل الحكومة البريطانية تصادق عليها ، ولكن يبدو أنه شعر بإخفاقه في تنفيذ تعليمات حكومته المؤرخة في السادس والعشرين من أغسطس ١٩١٥ م والتي مر ذكرها تنفيذاً دقيقاً ، فبرر ذلك بالقول أنه لو كان الإمام عبد العزيز مستعداً لمد المباحثات جلسة أخرى فلربما كان بإمكانه أن يدفعه بلباقة لتقبل نص أقرب لنص المسودة البريطانية . ولكنه سرعان ما تحفظ بالقول أنه لو لم يكن الإمام حريصاً على إنهاء المباحثات في جلسة واحدة ، فربما كان سيصبح أقل مرونة واستعداداً لمقابلة كوكس في منتصف الطريق .(٣٨) .

ورغم أن البعض انتقد تلك المعاهدة بالقول : « ولا تختلف هذه المعاهدة عن

المعاهدات الأخرى التي عقدت مع أمراء الخليج ، وفي هذه المعاهدة تجلى قصر نظر مستشاري ابن سعود وجهلهم بما يجري في العالم والاستفادة من الفرص المتوالية ،[٣٩] إلا أنه من الصحيح القول أنها كانت ذات فائدة مرحلية للإمام عبد العزيز ، وقد فهمها الإمام بهذا الشكل فعلاً حين نظر إليها من ناحية منفعتها له باعتبارها تحمي استقلاله من تدخلات الدولة العثمانية ، ولم ينظر إليها من ناحية القيود التي فرضتها عليه .[٤٠] .

الخلاصـــة :

وهكذا ، بعد أن استعرضنا بعجالة مراحل المفاوضات بين الإمام عبد العزيز وبريطانيا وتتبعنا منعطفاتها طوال ما يقرب من سنة كاملة ، يمكن القول إن ما حققه الإمام كان أقل من طموحه الذي تجسد في المسودة الأولية التي أعدها وسلمها لشكسبير ، ويتسق ذلك مع ما هو معروف في العلاقات السياسية بين الدول ، إذ أن ما يستطيع طرف تحقيقه عن طريق المفاوضات يتناسب عادة مع القوة الفعلية التي يستند إليها مقارنة بقوة الطرف الثاني ، وفي نافلة القول أن الإمام كان يقف في مفاوضاته إزاء قوة كبرى كانت تدير امبراطورية واسعة لا تغيب عنها الشمس . ولكنه ـ رغم ذلك ـ نجح في تحقيق نتائج تجاوزت حدود قوته الفعلية في ذلك الوقت . وقد ساعدته في ذلك الظروف السائدة في المنطقة مثل حالة الحرب القائمة بين بريطانيا والدولة العثمانية وحرص كل من الجانبين المتحاربين كسب وده . كما إن من العوامل التي ساعدته بلا شك ما اتصف به من مهارة واضحة في التفاوض ومن براعة في فهم النصوص الدقيقة والتعامل معها . ودليلي الواضح على أن الإمام حقق في تلك المعاهدة أكثر مما تؤهله ظروفه المادية ، هو إخفاق بريطانيا بكل قوتها في أن تملي عليه النص الذي وضعته للمعاهدة وقبولها بحلول وسط في صياغة أغلب المواد .

الهـوامـش :

(١) د. تركي بن محمد بن سعود الكبير ، علاقة بريطانيا بالملك عبد العزيز آل سعود ١٩٠٢ ـ ١٩٢٥ ، في « الدارة ، العدد الرابع ، السنة الحادية عشرة ، رجب ١٤٠٦ ـ مارس ١٩٨٦ ، ص ٣٨ » .

(٢) للتعرف على تفاصيل تلك الاتصالات وأسباب عدم تجاوب البريطانيين معها ، راجع :
عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، السلام البريطاني في الخليج العربي ، الرياض ، ١٤٠٢ ، ص ص ١٦١ ـ ١٨٠ ، وأيضاً Troeller, G., The Birth of Saudi Arabia, London, 1976, pp. 21 — 65.

(٣) Ibid, pp. 83 – 84.

(٤) عن تفصيلات هذا القرار ، راجع :
خالد السعدون ، العلاقات بين نجد والكويت ١٩٠٢ ـ ١٩٢٢ ، الرياض ١٩٨٣ ، ص ص ١٥٤ ـ ١٥٦ .

(٥) IOR, R/15/5/25, Enclosure in No – S–7 of 1914.

(٦) عن سبب التحاق السيد طالب بالإمام عبد العزيز راجع :
خالد السعدون ، سر رحلة السيد طالب النقيب إلى نجد ، في « الخليج العربي ، السنة الخامسة عشرة ، المجلة التاسع عشر ، العدد الأول ، ١٩٨٧ ، ص ص ٩٧ – ١١٢ » .

(٧) IOR, R/15/5/52, No - S–7 of 1914, from Captain W.H.Shakespar, Political Officer ou Specialduty to the Pol. Res. in the P. G., dated 7/12/1914.

(٨) IOR, R/15/5/25, No. 1494, from Knox, Bushire, to Foreign, Delhie, dated 31/12/1914.

(٩) IOR, R/15/5/25, No., from Sir P. Cox, to the Sec. to the Gov. of In. in the For. and Pol. Dep. Delhi, enclosure No. 1.

(١٠) لم يكن البريطانيون يفرقون بين الحرم المكي الشريف الذي « يحج » إليه المسلمون وبين أضرحة آل البيت المدفونين في العراق التي اعتاد المسلمون الشيعة « الزيارة » إليها . أما الإعلان الذي أشار إليه كوكس فهو الإعلان الذي نشرته حكومة الهند في الثاني من نوفمبر ١٩١٤ . انظر نصه في :
IOR, L/P + S/10/463, from Viceroy, to India Office, London, dated 3/11/1914.

(١١) IOR, R/15/25, No. – , from Sir P. Cox, to the Sec. to the Gov. of In. in the for. and Pol. Dep., Delhi, enclosure No. 2.

(١٢) ذكر د. عبد العزيز عبد الغني أن الاجتماع تم في « الخفجي » ، والصحيح أنه تم في الخفى – راجع : السلام البريطاني في الخليج العربي ، ص ١٨٠ .

(١٣) يشير بذلك إلى اتفاق الإمام عبد العزيز والسلطات التركية في مايو ١٩١٤ .

(١٤) يشير إلى شريف مكة وابن رشيد حاكم حائل .

(١٥) IOR, R/15/5/25. No. S – 13 of 1915, from Captain W.H. Shakespear, Pol. Off. on Special Duty, to Pol. Res. in the P. Res. in the P. G., Basrah, dated 4/1/1915.

(١٦) Ibid.

(١٧) عبد العزيز عبد الغني ، المرجع نفسه ، ص ١٨٠ .

(١٨) IOR, R/15/5/25, enclosure in No. S – 13 of 1915.
ويزعم البعض أن مسودة المعاهدة التي قدمها الإمام عبد العزيز لشكسبير نصت على وجوب تقديم بريطانيا أسلحة وأموالاً له في حالة قيامه بأي عمل ضد العدو . وذلك العدو هو ابن رشيد على وجه التحديد . ولا أجد لهذا الزعم سنداً . راجع :
Hawarth, D. The Desert King, Beirut, N.D., p. 85.

(١٩) IOR, R/15/5/25, No. 69 – B (3rd. Sec.), from Sir P. Cox, Basrah, to foreiga, Delhi, dated 17/1/1915.

(٢٠) Troeller, op. cit., p. 86.

(٢١) IOR, R/15/5/25, No. 105 – B, from Resideut, Basrah, to foreign, Delhi, dated 23/1/1915.

(٢٢) د. مكي شبيكة ، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ج ١ ، ص ص ٩٢ – ٩٥ .

(٢٣) IOR, R/15/5/25, No. 336 – B, from Sir P. Cox, Basrah, to foreign, Delhi, dated 24/2/1915.

(٢٤) IOR, R/15/5/25, No. 246 – DS, from Foreign, Delhi, to Sir P. Cox, Basrah, dated 27/2/1915.

(٢٥) Troeller, op. cit., p. 88.

(٢٦) Ibid., pp. 250 – 3.

(٢٧) Ibid., p. 89.

(٢٨) شبيكة ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ص ٤٩ ـ ٥١ .

(٢٩) لمزيد من التفاصيل عن تمرد قبيلة العجمان في الأحساء على الإمام عبد العزيز ، راجع : السعدون ، العلاقات بين نجد والكويت ، ص ص ١٧٠ ـ ١٧٨ .

(٣٠) IOR, R/15/5/25, No. 1030 – S, from Viceroy to Sec. of St. for In., London, dated 7/10/1915.

(٣١) IOR, R/15/5/25. No. 1093 – S, from Foreign, Simla, to Cox, Besrah, dated 29/10/1915.

(٣٢) IOR, R/15/5/25, No. 65 – C, from Keyes, Bahrain, to Sir P. Cox, Basrah, dated 4/12/1915.

(٣٣) نص المسودة البريطانية ونص المعاهدة ونص تعليقات كوكس ، في :
IOR, R/15/5/25, No. –, from Sir P. Cox, to Mr. A. Grant, For. Sec. to the Gov. of In. in the For. and Pol. and Pol. Dep., Delhi, dated 3/1/1916, enclosures No. 2 and 3.

(٣٤) يشير إلى المفاوضات التي أسفرت عن اتفاقية سنة ١٩١٣ بين الدولتين .

(٣٥) بمقارنة بنود المعاهدة كما نوردها هنا ببنود المعاهدة كما أوردها حافظ وهبة تظهر فروق واضحة . ولعلها نتيجة الاختلاف في الترجمة ، راجع :
حافظ وهبة ، خمسون عاماً في جزيرة العرب ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ط ٥ ، ص ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ .

(٣٦) توهم عدم وجود علامات وقف باللغة العربية ناشئ عن قلة معرفة كوكس بتلك اللغة .

(٣٧) IOR, R/15/5/25, No. 3500, from Sir P. Cox, tr D.C.P.O., Basrah, dated 27/12/1915.

(٣٨) IOR, R/15/5/25, No. –, from Sir P. Cox, Basrah, to Mr. A. Grant, For. Sec. to the Gov. of In. For. and Pol. Dep., Delhi, dated 3/1/1916.

(٣٩) وهبة ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٣ .

(٤٠) Dr. Iqbal, S.M., Emergence of Saudi, Arabia, 2nd. Edit., New Delhi, 1978, p. 73.

● مصادر البحث ●

أ ـ الوثائق المنشورة :

IOR, R/15/5/25:

No. S – 7 of 1914, from Captain W.H. Shakespear, Political Officer on Special Duty, tothe Pol. Res. Inthe P.G., dated 7/12/1914.

No. CF – 604, from Knox, on Special Duty, Bushire, to Pol. Agent, Kuwait, dated 31/12/1914.

No. 1494, from Knox, Busire, to Foreign, Delhi, dated 31/12/1919.

No. –, from Sir P. Cox, Qurua, to the Sec. to the Gov. of In. in the For. and Pol. Dep., Delhi, enclosure No 5. 1 and 2.

No. S – 13 of 1915, from Captain W.H. Shakespear, Pol. Off. on Special Duty, to Pol. Res. in

the P. G., Basrah, dated 4/1/1915, with enclosure.

No. 69 – B, from Sir P. Cox, Basrah, to Foreign, Delhi, dated 17/1/1915.

No. 105 – B, from Resident, Basrah, to Foreign, Delhi, dated 231/1/1915.

No. 336 – B, from Sir P. Cox, Basrah, to Foreign, Delhi, dated 24/2/1915.

No. 246 – DS, from Foreign, Delhi, to Sir P. Cox, Basrah, dated 27/2/1915.

No. 1030 – S, from Viceroy to Sec. of St. for In., London, dated 7/10/1915.

No. 1093 – S, from Foreign, Simla, to Cox, Basrah, dated 29/10/1915.

No. 65 – C, from Keyes, Bahrain, to Sir P. Cox, Basrah, dated 4/12/1915.

No. –, from Sir P. Cox to Mr. A. Grant, For. Sec. to the Gov. of In. in the For. and Pol. Dep., Delhi, dated 3/1/1916, with two encloswes.

No. 3500, from Sir P. Cox to D.C.P.O., Basrah, dated 27/12/1915.

IOR, L/P + S/10/463, from Viceroy to India Office, London, dated, 3/11/1914.

ب ـ مراجع باللغة العربية :

١ ـ تركي بن محمد بن سعود الكبير ، علاقة بريطانيا بالملك عبد العزيز آل سعود ١٩٠٢ ـ ١٩٢٥ ، في « الدارة ، العدد الرابع ، السنة الحادية عشرة ، رجب ١٤٠٦ ـ مارس ١٩٨٦ م » .

٢ ـ حافظ وهبة ، خمسون عاماً في جزيرة العرب ، ط ٥ ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

٣ ـ خالد السعدون ، العلاقات بين نجد والكويت ١٩٠٢ ـ ١٩٢٢ م ، الرياض ، ١٩٨٣ م .

سر رحلة السيد طالب النقيب إلى نجد ، في « الخليج العربي ، السنة الخامسة عشر ، المجلد التاسع عشرة ، العدد الأول ، ١٩٨٧ م » .

٤ ـ عبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، السلام البريطاني في الخليج العربي ، الرياض ، ١٤٠٢ هـ .

٥ ـ مكي شبيكة ، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى ، بيروت ، ١٩٧٠ م جزءان .

جـ ـ مراجع باللغة الإنجليزية :

1 – Hawarth, D., The Desert King, Beirut, N.D.

2 – Iqbal, S.M., Emergence of Saudi Arabia, 2nd. ed., New Delhi, 1978.

3 – Troeller, G., The Birth of Saudi Aravbi, London, 1976.

● المختصرات ●

Pol. Res. in the P.G. = Political Resident in the Persian Gulf.

Sec. to the Gov. of In. in the For. and P. Dep. = Secretary tothe Government of India in the Foreign and Political Department.

Sec. of St. for In. = Secretary of State for India.

D.C.P.O. = Deputy Chief Political Officer.

IOR = India Office Records (London).

مؤلفات العرب في علوم المعادن ... بين النّقلة والنسّاخ

للأستاذ مصطفى يعقوب عبد رب النبي

مقدمة :

لاشكّ أنّ القارئ للتراث العربي ولاسيما التراث الأدبي منه سوف تستوقفه قضيةٌ من أهم قضاياه ، والتي شغلت النقّاد العرب من القدماء والمحدثين على السواء زمناً طويلاً ، وهي قضية الوضْع والنحْل والتي تجلّت كأوضح ما تكون في الشعر الجاهلي . غير أنه « لم يكن الوضع أو النحل أو الانتحال مقصوراً على الشعر وحده بل لقد شمل كلّ ما يمتّ إلى الأدب العام بسبب ، كالنّسب والأخبار »(١) . وقد يظن البعض أنّ الوضْع والنحْل كان مقصوراً على عصر بعينه دون آخر أو أنّ العرب وحْدَهم دون سواهم من الأمم لم يَسْلم تراثهم من هذه الأمور إلاّ أن الحقيقة غير ذلك تماماً « فالوضع والنحل والانتحال ظواهر أدبية عرفها العصر الجاهلي كما عرفها العصر الأموي والعصر العباسي »(٢) . كما أنه في الوقت نفسه لَمْ تَسْلم أمّةٌ من الأمم من نَحْل آدابِها ، وفي ذلك يقول طه حسين « فلن تكون الأمّة العربية أوّل أمّةٍ نُحِلَ فيها الشعر نحلاً وحُمِلَ على قدمائها كذِباً وزوراً وإنّما نُحِلَ الشعر في الأمّة اليونانية والأمّة الرومانية من قَبْل وحُمِلَ على القدماء من شعرائها وانخدع به الناس وآمنوا له »(٣) .

وإذا كان النحْل ــ كظاهرةٍ أدبية ــ أمراً معروفة دوافعُه في عالم الشعر وأنّه قد خَضَع لنظر أهل العلم فميّزوا صحيحه من زَيْفه ووضعوا أيديهم على مواضع النحل فيه ، وكما يقول ابن سلام الجمحي « وليس يشْكَل على أهل العلم زيادة الرّواة ما وضعوا أوْ ما وضع المولّدون »(٤) ، وإذا كان التراث الأدبي ــ بصفة عامّة ــ لم يسلم من الوضع أو النحل فلابدّ أنْ يُثَار تساؤُل على قَدْرٍ كبيرٍ من الأهمية والخطورة ، وأغلب الظن أنّه يُثَارُ لأوّل مرّة وهو : وماذا عن التراث العلمي ؟ وهل سَلِمَ من الوضع أو النحل ؟ وهل دَاخَله شيءٌ منهما ؟ وبعبارة أخرى هل زِيدَ في التراث العلمي ممّا ليس فيه أصلاً ؟

والحقيقة أنّ البحث في هذه القضية قد أُغْفِلَ تماماً ، فلم يتطرّق إليها أيٌّ من الباحثين والمحقّقين العرب . أمّا الباحثون من غير بني العرب من مؤرّخي الغرْب ومستشرقيه فلم

يُعر أيٌّ منهما تلك القضية أدنى اهتمام ولعلّ السبب في هذا ـ كما نعتقد ـ أن الكثْرَة
من مؤرِّخي الغرب ومستشرقيه لا تَعْتقدُ في العلم العربي والإبداع العربي في مجال العلوم
العقلية سوى أنّ هذا العلم إنّما هو بضاعةٌ يونانية الأصل نتيجة لحركة الترجمة الواسعة
النطاق في العصر العباسي ، وأن دور العرب في هذا المجال لم يكن إلاّ كدور ساعي
البريد عندما نقلوا العلم اليوناني إبّان حركة الترجمة(٥) .

وللأسف الشديد إنّ الذين شَغَلتْهم قضيّة الوضع والنحل في الأدب العربي القديم
قد أَغْفلوا هذا الجانب بالنسبة للتراث العلمي . ومن الخطأ الكبير أنْ يظنّ ظانٌّ أنّ التراث
العلمي لدى العرب قد سَلِم من الوضع أو النحل ولعلّ مصدر هذا الخطأ هو توهّم
انتفاء دوافع الوضع في التراث العلمي بالنظر إلى اختلاف طبيعة وماهيّة ومحتوى هذا
النمط من التراث عن نظيره التراث الأدبي ، فيبدو للظاهر أنّ الدين والسياسة والقصص
وكلّها من دوافع الوضع في التراث الأدبي ـ والشعر الجاهلي خاصّة ـ أبْعد ما تكون
عن متناول معطيات التراث العلمي .

غير أنّ الباحث المدقّق في ثنايا هذا التراث العلمي وهو على ما نعرفُ من كثرة
مناحيه وتعدّد مجالاته وَوَفْرة مصنّفاته لابدّ أنْ يدرك أنّ الوضع والنحل قد عَرِفَا سبيلهما
أيضاً إلى هذا التراث الذي لا شأن له بالدين أو السياسة أو القصص .

ولعلّ هذا الإدراك الذي يعتمل في صدر الباحث المدقّق والبصير بما كتبه العرب
وغير العرب من مؤرّخي العلم في التراث العلمي العربي يَرْقى في كثيرٍ من الأحيان إلى
الجزم والقطع بوجود الوضع في بعض أسفار التراث العلمي العربي . غير أنه لا يَعْزُب
عن البال أنّ دوافع الوضع والنحل في التراث العلمي قضيّة تفوقُ في خطرها وتأثيرها
في تاريخ العلم عند العرب قضية الوضع في الشعر العربي القديم لأسباب شتى ولعل
أهم هذه الأسباب ما نجمله في النقاط التالية :

أولا :

أنّ القدماء قد تعرّضوا لقضية الانتحال والوضع في الشعر القديم ـ ولا سيّما الشعر
الجاهلي ـ من ناحية دوافعه وخضوعه لأهْل النّظر والعلم الذين تحفظوا في الاستشهاد
بروايات الوضّاعين ممّا هو معروفٌ للباحثين في الشعر العربي القديم فضلاً على المحدثين
الذي أدْلوا بدلوهم في ذات القضيّة ، الأمر الذي يجعل من قضية الوضع والنحل في
الأدب العربي القديم قضيّة لا مزيد فيها لمستزيد .

ثانياً :

الردّ على الناكرين دور العرب في بناء الحضارة الإنسانية وأنّ مآثر العرب ـ في نظرهم ـ لا تَعْدُو عن كونهم مجرّد أمناءٍ لمتحف الحضارة اليونانية فقد « كاد يَنْعَقد الرأي عند جمهرة المستشرقين في القرن التاسع عشر على الاستخفاف بدور العرب في بناء الحضارة الإنسانية والإدّعاء أنّ العرب بطبيعتهم لَمْ يُخْلَقوا للتفكير الأصيل المبتكر »(٦) .

ولم تَقْتصر هذه الفكرة على مافيها من جورٍ وعسْفٍ ومجانَبةٍ للصواب حيال حضارة امتدّت ما يقرب من ثمانية قرون فحسْب بل تمادى البعض « فاستعمل ألفاظاً نابيّةً في وصف الإنتاج العلمي العربي والعلماء العرب فرماهم بالبربريّة والجهالة »(٧) .

والحقيقة أنّه لا يكتمل الردّ على هذا الاجتراء على العرب لا مِنْ خلال تحقيق التراث العلمي العربي وبيان ما فيه من إبداع وابتكار فحسب ولكن ـ أيضاً ـ من خلال اكتشاف ما قد لَحِق بهذا التراث من وَضْعٍ غير ذي فائدة أو زيادة من ناقل أو إقحام من ناسخ ممّا يقلل ولاشك من أصالة وقيمة العلم العربي .

ثالثاً :

ردّ الخرافات والأساطير والأشياء غير المقبولة عقلاً ومنطقاً والتي تتناقض تمام المناقضة مع المعطيات العلمية والتي قد تكون مَبْثوثةً في بعض أسفار التراث العلمي إلى أصولها الأولى وبيان مصادرها . صحيحٌ أنّ لكلّ أمةٍ مَهْما رَقيت مخرّفُوها كما يقول الدكتور أحمد أمين(٨) ، إلاّ أنّ الخرافات أوْ الأساطير في هذا السِّفر أو ذاك من تراث العرب العلمي لم تكن بضاعةً عربية الأصل وأنّها ـ أي الخرافات ـ ليست أصلاً من أصول العقلية العربية وليس أدلّ على ذلك سوى ندرة الخرافات والأساطير العربية بالقياس إلى الخرافات والأساطير اليونانية كما هو معروفٌ ومشهور .

رابعاً :

إن البحث في الوضع والنحل في تراثنا العلمي وبيان ما أُدْخِلَ فيه وما أُقْحمَ عليه من النقلة والنساخ هو من الضرورات الواجبة البحث والتحقيق من وجهة النظر الموضوعية حتى يُصْبح تاريخ العلم وخاصّة تاريخ العلم عند العرب من حيث بداياته وتطوره ومدى نصيبه من السّبْق والإبداع أدْنى إلى الكمال وأقرب إلى الصواب وكيلا يكون العلم العربي بما فيه من أصالةٍ وابتكار غير مسبوق مفقوداً أو مشوّهاً في سِجل

تاريخ العلم العام . نقول هذا لأن بعض مؤرِّخي العلم من الغربيّين قد قسّموا العصور العلمية إلى عصرين رئيسيين : الأول : العصر الإغريقي ويمتد من سنة ٦٠٠ ق . م ـ سنة ٢٠٠ م أمّا العصر الثاني فهو عصر النهضة التي تبدأ من سنة ١٤٥٠م وحتى الآن[٩] ، أيْ أنّ هذا الفريق من مؤرّخي الغرب قد أسْقط في تأْريخه للعصور العلميّة عصر الحضارة العربية التي امتدّ ملكها من الأندلس غرباً حتى أطراف الصين شرقاً .

آفات التراث العلمي :

لم يكن التراث العلمي ـ بوجه عام ـ أسْعَد حالاً من نظيره التراث الأدبي ، فلم يَسْلم من الوضع أو النحل ، ويبدو أنّ هذه الظاهرة كانت أشْبه بالبضاعة الرائجة في سوق الكتابة والتأليف ، فقد دلّ عليها تحذيرٌ شديدٌ وجهه المسعودي في كتابه الشهير « مروج الذهب ومعادن الجوهر » إلى هؤلاء الوّضاعين في فاتحة كتابه بقوله : « فمن حرّف شيئاً في معناه أوْ أزال رُكْناً من مَبْناه أوْ طَمَس واضحةً من معالمه أو لبّس شاهدةً من تراجمه أو غيّره أو بدّله أو اختصره أو نسبه إلى غيرنا أو أضافه إلى سوانا فوافاه من غضب الله وسرعة نقْمته وفوادح بلاياه ما يَعْجَز عنه صَبْرُه ويَحارُ له فكره وجعله مثلةً للعالمين وعبرةً للمعتبريْن ... إلخ »[١٠] ومن العجيب أن يكرّر المسعودي هذا التجذير مرة أخرى في خاتمة الكتاب[١١] .

ولعلّ البحث في الوضع أو النحل في التراث العلمي بصفةٍ عامة من ناحية الكيفية التي تمّ بها هذا الوضع أو النحل ومظاهره التي ظهر بها في ثنايا هذا التراث ، لعلّ البحث في هذا يمرّ بعامليْن رئيسيين لَعِبَا وحدهما أخطر الأدوار فيما اعترى تراث العرب العلمي من تحريفٍ قد يصل في أحيانٍ كثيرة إلى حدّ التشويه ، ونَعْني بهذين العاملين : النّقلة والنسّاخ .

ولكيْ نُدْرك كيفية وأسباب ومظاهر تحريف وتشويه التراث العلمي لابدّ لنا أنْ نَبْحث أولاً ، وبشيءٍ من التفصيل طبيعة هذين العاملين .

أولاً : النّقلـة :

من المعروف أنّ الترجمة أيْ النقل من لغةٍ إلى لغة أخرى هي طورٌ لازم من أطوار حركة الأمم الناهضة ، قد أدْرَك العرب أهميتها ، كما أدركها من بعدهم الأوروبيون . ولقد كانت الترجمة في العصر الأموي عملاً فردياً محدوداً ، لا يتجاوز على سبيل الحصر وعلى أشهر الآراء ما أمر بترجمته الأمير الأموي خالد بن يزيد من كتب الصنعة

(الكيمياء) وهو أوّل نقل في الإسلام[١٢] ، وعمّا أمر بترجمته أيضاً الخليفة عمر بن عبد العزيز . ويعلّل أحمد حسن الزيات ذلك بقوله : « إن العرب لم تكن نفوسهم مهيّأة بَعْد للعلم ولا عقولهم ناضجة للبحث فيه وإنّما توزّعتهم عواطف الدين وشواغل الفتح ونوازع الأدب فاكتفوا منه بالضروري الموروث كالطب والنجوم »[١٣] غير أن الحال قد انقلب تماماً في العصر العباسي فأصبحت فيه الترجمة مَطلباً ملحّاً من مطالبها وحَظِيت بأكبر قَدْرٍ من التشجيع الأدبيّ والماديّ ممّا لا نَجِدُ له ضرباً في عصر من العصور ، الأمر الذي أدى بطبيعة الحال إلى كَثْرة النقلة إلى اللسان العربي كثرةً غير مألوفة في العصر العباسي . ويخيّل للباحث في هذا العصر أنّ النقلة لم يتركوا كتاباً في غير اللسان العربي إلاّ ونقلوه إلى العربية . وحَسْبنا للدلالة على ما بلغته حركة النقل في عصر المأمون خاصةً الذي كان عصراً ذهبياً للترجمة بكل المقاييس ، أنّ المأمون كان يُعْطِي من الذّهب زِنَة ما يُنْقَلُ إلى اللسان العربي مِثْلاً بمِثْل[١٤] .

ولقد كان لهذا العطاء الوافر الجزيل المتميّز أثرٌ إيجابي وآخرُ سلْبي ، ويتمثّل الأثر الإيجابي في تَشْجيع حركة الترجمة وهي كما هو معروف طورٌ لازم من أطوار حضارة الأمم استكمالاً لمقوّمات الحضارة العربية التي بلغت ذروتها في العصر العباسي .

أمّا عن الأثر السلبي فنقول أنه بعد ما راجت سوق الترجمة وأصبحت مطلباً رسمياً من مطالب الدولة العباسية وحَظِيَت لا بتشجيع أولي الأمر من الخلفاء فحسب وإنّما أيضاً من أهل اليسار من محبّي العلم ، أنْ كَثُرَت الترجمات التي شابت جزءاً غير قليل منها العَجلة والتسرّع وعدم الدقة في الترجمة طَلَباً لهذا العطاء المتميّز . ويلخّص المستشرق أُوليري الخطأ في الترجمة إلى ثلاثة أسباب :

« أولها : أن الكثير من كتب التراث اليوناني قد نُقِلَ إلى السريانية وَوَقع ناقلوه في أخطاء فلمّا نَقَل العرب هذه الكتب عن ترجماتها السريانية أو غيرها نقلوا هذه الأخطاء إلى لغة العرب . يقول أبو حيان التوحيدي في المقايسات : على أن الترجمة من لغة اليونان إلى العبرانية ومن العبرانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية ، قد أخلّت بخواص المعاني في أبدان الحقائق إخلالاً لا يخفى على أحد .

وثانيها : أنّ مترجمي العرب كانوا كثيراً ما يقْنَعون بنقل المعاني المهمة وإهمال ما عداها عن عمد ليس عن جهل أو سوء فهم .

وثالثها : أنّ أكثر المترجمين كانوا حَرِيصِين على أنْ يَشْرَحوا أثناء الترجمة وأنْ يَمْحصوا

ويضيفوا إلى الأصل معاني هدتهم إليها خبراتهم دون أنْ يهتمّوا بإرشاد القارئ إلى ما أضافوا إلى الأصل من معانٍ وأفكار »(١٥) .

ويُخيّل إلينا أنّ سَببيْن آخرين من أسباب سوء النقل قد غابا عن فِطْنة المستشرق أوليري ولعله من أوجب الأمور أنْ نخصّهما بشيءٍ من التفصيل في البحث والمراجعة :

(الأول) أن معظم القائمين على حركة النقل كانوا مجرّد نَقَلةٍ وتراجمة فقط وقصارى جهدهم في الترجمة أنهم مُلمّون باللسان الذي يترجمون عنه فضلاً على علمهم باللسان العربي ، فالذين ترجموا كتب الفلسفة لم يُؤْثر عنهم إشتهارهم بهذا العلم ، وكذلك الطب وسائر العلوم الأخرى ، ولكنّه مجرّد نقلٍ من لسانٍ إلى لسان ، الأمر الذي نتج عنه في بداية حركة النّقل كَثْرة المعرّبات كثرةً غير مألوفة ، ونَعْني بالمعرّبات هنا المصطلحات التي لم يتوصّل النقلة إلى معناها فنقلوها كما هي إلى الحرف العربي . ويذكر لنا ابن النديم عدداً كبيراً من هذه المعرّبات ولاسيما أسماء كتب أرسطو مثل قاطيغورياس وأنالوطيقا ... إلخ(١٦) . كما شاعت أيضاً أخطاء النّقلة فيما ينقلونه الأمر الذي أدّى بالتالي إلى كثرة الإصلاح والتعديل بل وإعادة الترجمة مرة أخرى . فقد كان حنين بن إسحاق وكان من أشهر مترجمي عصره يُصْلِح الكثير من ترجمات المعاصرين له من النّقلة . ويذكر لنا ابن النديم شيئاً كثيراً عن حركة الإصلاح هذه(١٧) كما يخبرنا أيضاً في مواضع كثيرة عن نَقَلةٍ كان نقلهم شيئاً كابن شهدي الكرخي الذي « نَقَل من السرياني إلى العربي نقلاً رديئاً »(١٨) . ولم تقتصر الكتب المترجمةُ على إصلاحها فحسب ولكنها احتاجت أيضاً – لسوء ترجمتها – إلى إعادة الترجمة من جديد مثل كتاب « أصول الهندسة ، لإقليدس فقد نقله الحجاج بن مطر نقلين أحدهما يُعرف بالهاروني وهو الأول ونقلاً ثانياً وهو المأموني وعليه يعوّل ، ونقله أيضاً إسحق بن حنين وأصلحه ثابت بن قرة »(١٩) .

ومن الكتب المترجمة التي تعرّضت – أيضاً – للإصلاح كتاب « النسبّة المحدودة لابلونيس وهو مقالتان أصْلَح الأولى ثابت والثانية منقولة إلى العربي وغير مفهوم »(٢٠) ومعنى هذا أن المقالة الثانية قد نُقِلَت نقلاً سيئاً إلى الحدّ الذي جعلها غير مفهومة ، ليس هذا فحسب بل أنّنا نرجّح أنّ ثابت بن قرة وهو عالم بالرياضيات كما أنه من أشهر النقلة لم يَسْتطع معها إصلاحاً ولا فهماً .

وللدلالة على مدى سوء الترجمة وقصور المترجمين نسوق ما قاله أحد المستشرقين

الذين توفّروا على البحث في الطب العربي وهو الدكتور بونيون والذي قام بترجمة النصّ السرياني لأقوال أبقراط حيث يقول : « والذي وَصَلنا منها ـ أيْ أقوال ابقراط ـ كان مُترجماً بطريقةٍ غامضة والإنشاء كله أخطاء والكلمات وُضِعَت دون الإلتفات إلى المعنى العام في سياق البحث . ولذا نجد في هذه التراجم جُمَلاً عديدة كلّها أخطاء وتعابير ليس لها أيّ معنى ـ ويستطرد الدكتور بونيون قائلاً ـ إنّ ترجمة أقوال أبقراط لا تطاق وكلّما جاء المترجم إلى نصٍّ لا يفهمه تَرْجَمهُ بصيغةٍ غير مفهومة وعند مواجهته لنصٍّ يُفْهَمُ على عدّة أوجه يَضَع الترجمة لتُفْهَم على وجوهٍ مختلفة »[٢١] .

ولم يكن اضطراب الترجمة وسوء النقل خاصّاً بمترجمٍ دون آخر ولكنّها ـ على الأرجح ـ سمةٌ عامة في أوساط المترجمين ، فها هو حنين بن إسحق وهو من أشهرمترجمي عصره لا يتردّد في أنْ يَنْتقد بشدة بعض ترجماته الخاصة[٢٢] . ولعل ما أورده عن كتاب « الحكمة الطبية » لجالينوس دليلاً كافياً لنعلم إلى أيّ مدى كان حال الترجمة حتّى على يد مشاهير النقلة حيث قال : « وقد تَرْجَم أيوب ـ يقصد أيوب الرهاوي ـ ترجمة سقيمة ثم حاول جبريل بن بختيشوع أن ينقّح الترجمة فجاءت أسوأ ممّا كانت ، ولهذا قارنْتُها بالنص اليوناني وصححّتها بحيث جعلتُ منها ترجمةً سريانية جديدة . وطَلَبَ إلّي أحمد بن محمد المدبر أنْ أترجم له هذا الكتاب فترجَمْتُ قِسْماً من الكتاب إلى العربية »[٢٣] .

نَخْلص من هذا إلى القول بأنّ حركة النقل قد سادها قدرٌ غير قليل من الإضطراب والأخطاء . وإذا كان هذا يرجع إلى قصور النقلة من جهة ، والعجلة في النقل طمعاً في العطاء الجزيل من جهة أخرى ، إلاّ أنّ طريقة النقل نفسها كانت سبباً من أسباب كثرة الأخطاء فيما نقله النقلة من تراث الفرس ، واليونان . ويشرح لنا الدكتور عمر فروخ في شيءٍ من الإجمال الكيفية التي كان المترجمون يسيرون على نهجها فيقول : « للنقل طريقتان :

(أ) الطريقة اللفظية : وذلك أنْ يأتي الناقل إلى النصْ ويَنْظُر في كلّ كلمة بمفردها ثم يضع تحتها مرادفها حتى يَنْتَهي من جملة ما يودّ نقله .

هذه الطريقة رديئةٌ لوجهين أحدهما أنّ كثيراً من الكلمات في كلّ لغةٍ لا مرادف لها في سائر اللغات ، ثمّ أنّ لكل لغةٍ تركيباً إسناديّاً (تركيباً للجمل) يخالف سائر اللغات . وكانت المشكلة الكبرى أنّ النقلة لم يكونوا يستطيعون النقل من اليونانية

إلى العربية رأساً فكان بعضهم ينقل الكتب من اليونانية إلى السريانية ثم يأتي آخرون ينقلونها من السريانية إلى العربية من جديد .

ومن هذه الطريقة تسرّبت أكثر الأخطاء التي ضلّلت العرب وشَغَلَتْهم زمناً طويلاً ثم تنبّهوا لها بعد حين . وهكذا احتاج كثيرٌ من الكتب التي نُقِلَتْ على هذه الطريقة إلى أنْ تُصْلَح فيما بعد .

(ب) الطريقة المعنوية: وذلك أنْ يأتي الناقل إلى الجملة فيحصّل معناها في ذهنه ثم يعبّر عنها من اللغة الأخرى بجملةٍ تطابقها في المعنى سواء استوت الجملتان في عدد الكلمات أم اختلفتا »(٢٤) .

(الثاني) وهو ما يتعلّق بأمانة النقلة أنفسهم ، وللأسف الشديد أنّه لم يكن للعرب دورٌ في بدايات حركة النقل « فقد كان القسم الأكبر من السريان الذين كان معظمهم نصارى ونساطرة ويعاقبة وقليلٌ منهم من اتباع المذهب الأرثوذكسي والماروني والقليل الأقلّ من اليهود »(٢٥) . وقد لُوحظ أنّ أمانة النقل لدى هؤلاء النقلة السريان لم تكن فوق الشبهات لا في مجال سوء الترجمة فحسب ولكن – وهذا هو الأمر المهم والخطير – أنّ النقلة السريان كانوا كثيراً ما يدسّون في الكتب المنقولة أشياء ليست منها ، أو يبدّلون فيها ويحذفون بحسب ما يَصِلُ إليه رقيهم العقلي وبحسب ما يمليه عليهم هواهم الديني والمذهبي(٢٦) .

ولعلّ هذا الدسّ فيما ينقلونه كان مرجعه إلى رَفْضِهم أوْ على الأقلّ تردّدهم في تعليم العرب المسلمين ، فقد رُوى عن أحد زعمائهم مِنْ أنّه أَفْتَى رجال الدين من النصارى بأنّه يحلّ لهم أنْ يعلِّموا المسلمين التعليم الراقي . ولَئِن دلّت هذه الفتوى على شيءٍ فإنّما تدلّ على إقبال المسلمين على علوم السريان وتردّد هؤلاء في تعليمهم(٢٧) . وفي ذلك يقول الدكتور أحمد أمين معلّقاً على حركة الترجمة « وتاريخ هذه الحركة التي قام بها هؤلاء النساطرة واليعاقبة يدلّنا على عَيْبَيْن كبيرين : الأول : قلّة الابتكار فلم يزيدوا على ما نقلوا علماً جديداً ولا نظريات جديدة ولا كثيراً من الآراء الجديدة . والثاني : أنهم حتّى في كثير ممّا نقلوا لم ينقلوا في دقّة ما كان عند اليونان بل غيّروا فيه وحرّفوا ، وكثيرٌ من الأخطاء التي وَقَع فيها العرب علميّاً كان مَنْشؤه هذا الخطأ السرياني »(٢٨) .

وإذا كان النّقلة يَقَع عليهم – في المقام الأول – ما أصاب التراث العربي عامّة

والتراث العلمي بصفةٍ خاصة من تحريفٍ وتشويه فضلاً عن ورود قدرٍ من الخرافات والأشياء غير المقبولة عقلاً ومنطقاً في التراث العلمي خاصة ، فإننا ـ في الوقت نفسه ـ لا نُبرّىء الشعوبيّة التي أطلّت برأسها ولكِنْ من وراء ستار . ويتحدث الدكتور أحمد أمين عن هذا بقوله : « ومما نأسف له أنّ الشعوبيّة أزْهَرت في عَصْر تدوين العلوم وكل حركة علمية كانت بَعْدُ ، إنّما أُسّسَت على ما دُوِّنَ في العصر العباسي ، ولو كان لدينا تاريخٌ مدوّنٌ في العصر الأموي لَفَهِمْنا كَيْفَ تَلاَعَبَ به الشعوبيّون في العصر العباسي ، ولو كان لدينا تاريخٌ للفرْس موثوقٌ به لأدْركْنا كَيْف جمّلَهُ الشعوبيّون . ولو كان العرب في العصر الإسلامي الأوّل وَضعوا كُتُباً في الأنساب ومناقبها ومثالبها وَوصلَتْ إلينا لَعَرَفْنَا ما اخْتَلقهُ الشعوبيّون عليهم لإفساد أنسابهم والحطّ من شأنهم وكذا في كل العلوم . ولكِنْ قُدِّرَ أنْ يقترن تدوين العلم بسطوة الشعوبيّة ، فكان ذلك من سوء حظ العلم ، وكذلك أجهد العلماء أنفسهم في تعرّف أسرار الشعوبية وخفاياها وآثارها في العلم ، ولا يزال المدى أمامهم فسيحاً والبحث في مهده »[٢٩] .

ولعل ما ذكره المسعودي يدل دلالة قاطعة لا شك فيها على مدى ما يحاول هؤلاء النقلة ـ وجميعهم كما أسلفنا من غير بني العرب ـ إخْفَاءه ومواراته في نفوسهم ، غير أن عثرات اللسانِ تأبى إلاّ أنْ تُفصِحَ عن الحقد الدفين وتَفْضَح التعصّب الكامن ضدّ العرب والشماتة حتّى أمام جلال الموت . فقد جاء في « مروج الذهب » ـ عندما حضرت الوفاة الخليفة المأمون صاحب العصر الذهبي للترجمة ـ : « فقال ـ أي المأمون ـ يامَنْ لا يزول مُلْكه إرْحَم مَنْ قد زال ملكه ثمّ رُدّ إلى مَرْقَده وأَجْلَس المعتصم رَجُلاً يشهده لما ثَقُلَ فرفع الرجل صوته ليقولها ، فقال له ابن ماسويه ـ أحد النّقلة النصارى ـ : لا تَصِحْ فوالله ما يفرّق بين ربّه وبين ماني في هذا الوقت ، فَفَتح المأمون عَيْنَه من ساعتها وبهما من العِظَم والكبر والإحمرار مالم يُر مِثْله قط وأقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه ورام مخاطبته فعجز عن ذلك .... إلخ »[٣٠] ولم يكن هذا الدسّ الشعوبي المتعمّد من النقلة بالشيء الذي يَخْفى على العرب ، وفي ذلك يقول الجاحظ في رسالته « الردّ على النصارى » : « وهؤلاء ناسٌ من أمّة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم وهم اليونانيون ودينُهم غير دينهم وأدبهم ، أولئك علماء ـ يقصد اليونانيين ـ وهؤلاء صناع ـ يقصد النقلة من النصارى ـ أخذوا كُتبهَم بقرب الجوار وتداني الدار فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم ومنها ما حوّلوه إلى ملّتهم إلاّ ما كان من مشهور كتبهم ومعروف حكمهم فإنّهم حين لم يقدروا على تغيير أسمائهم زعموا أن اليونانيين من قبائل الروم ففخروا

بأدبائهم على اليهود واستطالوا بها على العرب ، حتّى زعموا أن حكمائنا أتباع حكمائهم وأنّ فلاسفتنا اقتدوا على مثالهم »(٣١)

ولم ينس الجاحظ أنْ يذكر اليهود في رسالته تلك ـ وهم كما نعلم من النقلة ـ بقوله : « وأنت تعلم أنّ اليهود لو أخذوا القرآن فترجموه بالعبرانية لأخرجوه من معانيه ولحولوه عن وجوهه »(٣٢) .

وإذا كان هذا رأي الجاحظ في النقلة السريان واليهود فقد اتّهم صراحةً ابن المقفع وسَهْل بن هارون وغيرهما من النقلة الفرس بالتأليف والوضْع وليس بالترجمة والنقل حيث يقول : « ونحن لا نستطيع أنْ نَعْلم أنّ الرسائل التي بأيدي الناس للفرس أنها صحيحة ، غير مصنوعة وقديمة غير مولدّة إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان يستطيعون أنْ يولّدوا مثل تلك الرسائل ويَصْنَعوا مثل تلك السِّيَر »(٣٣) . وعلى ذكر الفرس ـ أو النقلة منهم ـ وهم حديثو عهد بالإسلام فإنه يجب علينا أنْ نُبيّن مدى ما وصل بهم التعصب والشعوبية فقد جاء في كتاب « أخبار العلماء بأخبار الحكماء » لابن القفطي : « وذكر جبرائيل ـ يقصد جبرائيل بن بختيشوع وهو من أشهر الأطباء في الدولة العباسية ـ أنّه دخل ذات يوم على الفضل بن سهل ذي الرئاستين بعد إسلامه وبين يديه مصحف قرآن وَهَمّ يقرأ فيه ، فقال له ـ أي جبرائيل ـ : كيف ترى كتاب الله فقال له ـ أيْ الفضل ـ : طيّب ومثل كليلة ودِمْنة »(٣٤) إذاً فلم تكن الأخطاء في الترجمة قاصرةً فقط على الأخطاء المِهَنيّة غير المقصودة الناجمة عن القصور في التعبير ، وإنّما قد شابت حركة الترجمة الكثير من الأخطاء المتعمّدة التي تمثّلت في دسّ بعض أفكار النّقلة بحسب ما تُمْليه عليهم مذاهبهم ذلك الدسّ المتعمّد الذي وَصَل إلى حدّ الوضع والتأليف . وعلى سبيل المثال ، لقد تحدّث غيرُ واحدٍ من الباحثين القدماء والمحدثين عرباً كانوا أم غير عرب عن تلك المؤلفات المنحولة على أرسطو . فها هو جورج سارتون يطرح في كتابه الشهير « تاريخ العلم » سؤالاً على قدر كبير من الأهمية حول مؤلفات أرسطو قائلاً : « هل هذه المؤلفات صحيحة ؟ إنّ السؤال أعقد مما يَبْدُو لأوّل وَهْلة ولا يمكن إجابته برمته وقد ناقش الناشرون صحّة كلّ كتاب على حدة غير أنّهم لم يتّفقوا دائماً في النتائج ، فَمِنَ المحتمل أنّ أرسطو لم يكتب هو نفسه من المؤلفات تمثل تعليمه »(٣٥) . ويقول الدكتور فيليب حتّى أنّه « قبل أنْ يَنْتَهي عصر الترجمة كانت مؤلفات أرسطو الموجودة ، والتي كان عددٌ كبيرٌ منها بطبيعة الحال مزيّفاً منسوباً إليه كذباً وقد ذكر

ابن أبي أصيبعة ومن بعده القفطي عدداً لا يقلّ عن مائة كتابٍ منسوباً إلى فيلسوف الإغريق »[٣٦] ، كما يذكر لنا بروكلمان بعضاً من أسماء الكتب المنحولة ، لأرسطو مثل كتاب « السياسة في تدبير الرياسة » الذي علق عليه بقوله هو كتاب لفقه أحد العرب[٣٧] ، ومثل كتاب « السحر »[٣٨] وكتاب « التفاحة »[٣٩] ..... إلخ .

ثانياً : النسّاخ :

ليس من شكٍّ في أنّ حركة النقل الواسعة النطاق ، قد واكبَتْها أيضاً ـ بالضرورة ـ حركةٌ أخرى لا تقلّ عنها إنْ لم تزد في السّعة والانتشار وهي نسخ الكتب المنقولة لأنّ النسخ في هذه الحالة هو بمثابة دور الطبع والنشر حتى يتمكّن العلماء العرب وأهل العلم في الأمصار العربية من الاطّلاع عليها والإفادة منها . وكان من الطبيعي مع انتشار حركتي النقل والنسخ أنْ تظهر في حياة المجتمع العباسي طائفة النسّاخ الذين يَنْسخون الكتب لقاء أجرٍ معلوم ، وليس أدلّ على انتشار مهنة النسخ التي عُرِفَ القائمون عليها بالورّاقين ـ وكثرة هؤلاء الورّاقين سوى تدنّي أجورهم حتّى أنهم كانوا يَنْسخون كلّ عشرة أوراق بدرهم[٤٠] . وقد تفاوت حظّ هؤلاء الورّاقين من الإجادة في النسخ إلاّ أنّه في الغالب قد اتّصف معظمهم بعدم الإجادة فقد « كانت ثِقةُ القوم بالورّاقين نازلة لأنّهم لم يكونوا من العلماء في الغالب أو من أهل الرواية بل هم أهّل صناعة وتكسّب وقد عُرِفَ الطعن فيهم قديماً »[٤١] .

وقد أدّت كثرة الوراقين ورواج بضاعتهم إلى الحدّ الذي تفشّت فيها الآفات التي مردّها جميعاً إلى العجلة والتسرّع في النسخ ، فضلاً عن أنّ غالبية هؤلاء الوراقين كانوا مجرّد أداة للنسخ لا دراية لهم بمحتويات ما ينسخونه من كتب ولا سيما كتب التراث العلمي التي لا تحتاج إلى مجرّد ناسخ فحسب بل تحتاج أيضاً إذا أُريدَ أنْ يكون النسخ صحيحاً سليماً من الأخطاء إلى ناسخٍ ملمٍّ بالعِلْم الذي ينسخ كُتباً فيه .

والسؤال الآن : أين يَكْمن خَطَأ النسّاخ ؟ والحقيقة أنّ خطأ النسّاخ ليس خطأ واحداً بل إنّه أكثر من خطأ لا نحسب أنّ أحداً من النساخ قد سَلِمَ منها أَوْ مِنْ بعضها على الأقل . ويُمْكِنُ لنا أَنْ نُمَيِّز بين نوعين من الأخطاء .

(الأول) هو خطأٌ طبيعيٌّ غير مقصودٍ وهو الخطأ المِهَنّي كالتصحيف والتحريف وإسْقاط بعض الكلمات سهواً وهي أخطاءٌ يسيرة الأمر ، ظاهرة لكلّ ذي عينٍ بصيرة بالتراث كما أنّ خبرة المحقق بالخطوط كفيلةٌ بتداركها .



(الثاني) هو الخطأ المتعمّد وهو خطأٌ من الصعب أنْ نَضَع أيدينا عليه كزيادةٍ من الناسخ مثلاً أوْ التصرّف في بعض فصول الكتاب أو شروح أدْخَلها الناسخ في مَتْن الكتاب ... إلخ . ومثل هذا النوع من الخطأ ليس لعلاجه من سبيل سوى البحث عن أكبر عددٍ ممكن من نسخ الكتاب حتى يُمكن الاستدلال عمّا خَفِيَ من أمْر زيادةٍ قد زادها الناسخ أو تصرّفٍ على نحوٍ ما تعمدّه الناسخ .

وقد يظنّ البعض أنّ ما أصاب التراث العلمي على يد النساخ هو من أهون الأمور وأيسرها علاجاً . غير أنّه في بعض الأحيان يبدو الأمر أَعْقَد ممّا نتصوّر فربّما يَحْلُو للنّاسخ أنْ يُزِيد من عِنْده ما ليس في الكتاب الأصلي الذي كتبه المؤلف بخطّه إمّا رغبةً في الشرح أو الاستدراك على المؤلف دون التنبيه على ذلك بحيث يَخْتلط ما كتبه المؤلف مع ما زاده الناسخ .

ولكي ندلّل على الزيادات التي تختلط بالمتن الأصلي للكتاب نسوق مثالين أحدهما خاصٌّ بالتراث الأدبي والآخر خاصٌّ بالتراث العلمي :

أما المثال الأول فقد جاء على لسان ابن النديم الذي يخبرنا أنّه رأى بنفسه بَابَيْن قد زِيدا على كتاب « كليلة ودمنة » الذي نقله من الفارسية ابن المقفع(٤٢) أيْ أنّ أحد النساخ قد أباح لنفسه أنْ يزيد في أبواب الكتاب الأصلي بابين كاملين . ولا يمكن بالطبع لابن النديم أنْ يقول مثل هذا بغير أنْ يضع يده على الكتاب الأصلي الذي نقله ابن المقفع ويطّلع عليه .

أما المثال الثاني وهو الخاص بالتراث العلمي فإنّنا نسوق ما قاله محقّق أراجيز ابن ماجد الملاح بشأن أرجوزته المسماة « بالسّفَاليّة » :

« وجلّ ما نريده الآن هو عَرْض قضيّة تخصّ السّفالية وحدها وتُثَارُ لأوّل مرّة . فالأرجوزة السّفالية لأحمد بن ماجد في جُمْلَتها . لكن زِيد عليها ماليس منها في الأصل ، مثلما حَصَل على نطاقٍ أَضْيق في « حاوية الاختصار في أصول علم البحار » التي أُضيفَ إلى أبياتها الـ ١٠٨٢ ثمانية أبيات تتعلّق بالبرتغاليين . فقد أُقْحِمَت ١٠٦ أبيات في أبياتها الـ ٧٠١ المحدّدة في بيتها الـ ٦٩١ وتضمّ الأبيات المُقْحَمة ٦٧ بيتاً تطري على الفرنج البرتغاليين ومقدرتهم الملاحيّة ، كما فعلت أبياتٌ خمسةٌ من أصل ثمانيةٍ في حاوية الاختصار . ويَدْفَعُ هذا الشبه إلى التفكير والتأمّل . إذ تمجّد معظم زيادة الحاوية والسفالية أعمال الإفرنج وأقوالهم أيْ الأفرنج البرتغاليين .

فهل دُسّت هذه الأبيات عمداً لإعلاء شأن الفرنجة على لسان أمْهر معلِّم عربي . ومهما كان غرض دسّها ، من قام بإدخالها السفالية ؟ ولماذا لم يُثر أحدٌ من المستشرقين هذه القضية ؟ »[٤٣]

هذا ما قاله المحقِّق عن زيادة زِيدَت على أرجوزة لابن ماجد ، ولاشكّ أنّ تلك الأبيات الزائدة التي تمجِّد معظمها الفرنجة إنّما هي دسٌّ متعمدٌ من ناسخ أغلب الظن أنّه من غير بني العرب أراد إعلاء شأن الفرنجة فأقحم ما شاء له الهوى أنْ يقحمه في ثنايا مؤلَّف عربي لحمةً وسدى وليس مُتَرْجماً عن الغير . وقد فات هذا الناسخ الشعوبي أنّ ابن ماجد الملاح قد حدّد عدد أبيات أرجوزته بقوله في البيت الـ ٦٩١ :

هِيَ سَبْع مَايه ، بيتٌ يزيدُ عَنْهَا عَنْ أَحْمد السعديّ إِحْفَظْنَها[٤٤]

نخلص من هذا لنقول إنّ آفة النسّاخ لا تقلّ في خطورتها عن آفة النقلة وأن التراث العلمي العربي قد وقع فريسةً بين النقلة والنسّاخ .

علوم المعادن بين النقلة والنسّاخ :

لم يَسْلم التراث العلمي العربي من أخطاء النّقلة الذين نقلوا علوم اليونان والفرس والهنود إلى اللسان العربي مابَيْن سوء النقل وسوء نيّة النّقلة . وقد بَيّنا أنّ النقل لم يكن نقلاً بالمعنى المعروف للترجمة ، بل كانت طريقة الترجمة ذاتها مدخلاً سهلاً لإختلال المعاني وشيوع التحريف الذي قد يصل إلى حدّ الوضْع والتأليف . وأنّ النقلة أنفسهم لم يكونوا فوق مستوى الشك ولاسيّما أنهم من غير بني العرب وأنّ بعضهم حديث عهد بالإسلام فضلاً عن أنهم أَهْل تكسّب وتجارة وليسوا أهل علم أو علماء عدا قلّة منهم .

كما لم يَسْلم هذا التراث أيضاً من أخطاء النسّاخ ، وإذا تجاوزنا عن مألوف الأخطاء كالتصحيف والتحريف وغيرهما من الأخطاء المِهَنيّة اليسيرة التقويم والإصلاح سوف نجد أنّ نفراً من هؤلاء النسّاخ قد استدخلوا أنفسهم في متن الكتاب الأصلي فتزّيدوا عليه بما ليس فيه أصلاً بما يفيد المشاركة في التأليف وليس مجرّد النسخ ، بل أنّ البعض منهم قد تجاوز حدّ الزيادة إلى الدسّ المتعمّد كما مرّ بنا أثناء الحديث عن أرجوزة ابن ماجد الملاح .

ولكيْ ندلّل تفصيلاً على مدى ما أصاب هذا التراث العلمي من تشويه وتحريف له ، وما أُقْحِمَ عليه ، وما زِيد فيه ، سواء أكان على يد النقلة أو على يد النسّاخ سوف

نتخيّر واحداً من علوم التراث العلمي عند العرب وهو علم المعادن لنتعرّف من خلال مؤلفات العرب فيه على مدى ما أصاب التراث العلمي من آفات ونقائص باعتباره مثلاً من أمثلة علوم التراث العلمي عند العرب وجزءاً من التراث العلمي ككلّ .

ولعلّه من الأنسب ـ في هذه الحالة ـ أنْ نستعرض بشيءٍ من التفصيل ما ألّفه العلماء العرب في علوم المعادن أو ما نَقلهُ النّقلة في هذا العلم وما أصاب هذه المؤلفات على يد النقلة والنسّاخ من آفاتٍ ونقائص ودسّ وتشويه في النقاط التالية :

أولاً : القصور من النقل إلى اللسان العربي :

عندما نستعرض ما تُرْجِمَ في علوم المعادن لا نجد تقريباً غير كتابٍ واحد قد بلغ من الذكر والاشتهار مبلغاً عظيماً وربّما كان اشتهار الكتاب راجعاً لشهرة صاحبه . وهذا الكتاب هو كتاب « الأحجار » المنسوب إلى اسم أرسطو ويقال إن الذي نقله هو ابن سرابيون(٤٥) .

أمّا بشأن ما نراه في القصور في النقل ، فقد نَقَل الناقل أسماء المعادن والأحجار كما هي من الحرف اليوناني إلى الحرف العربي . وربّ قائل يقول وما وجه القصور في ذلك ؟ لأنّ هذه الطريقة هي المتّبعة حالياً في كتابة أسماء الأعيان الأعجميّة من نبات وحيوان ومعادن وصخور وحتّى أسماء البلاد . غير أننا نقول إنّ نقل أسماء المعادن والأحجار بهذه الطريقة ومع وجود مثل هؤلاء النقلة ـ وهم كما علمنا سلفاً ـ قد أدّى إلى شيوع التحريف في أسماء المعادن والأحجار . ولو كان هؤلاء النقلة على شيءٍ يسير من العِلْمِ بالمعادن والأحجار لوجدوا أنّ بعضها معروف لدى العرب .

وإذا فاتَنَا أنْ ننظر في كتاب « الأحجار » هذا ، لنتعرّف على ما قد يكون في النقل من قصور ، لأنّ مخطوطات الكتاب غايةٌ في النّدرة ولعلّ المخطوطة الوحيدة منه هي مخطوطة باريس والتي نال عن دراستها المستشرق الألماني روسكا درجة الأستاذية(٤٦) إلا أنّه ـ في الوقت نفسه سنتعرّف على هذا القصور من كتابٍ قريب الصلة من كتاب « الأحجار » أيْ أنّ كتاب « الأحجار » ذو أثرٍ مباشر عليه . وهذا الكتاب هو « منافع الأحجار » لعطارد بن محمد الحاسب وهو أوّل كتاب أُلِّف بالعربية في هذا الفن من فنون العلم .. وقد أوضحت دراسةٌ حول هذا الكتاب مدى استفادة صاحبه ـ الذي شهد البدايات الأولى لحركة الترجمة ولاسيما فيما نُقِلَ عن أرسطو ـ من كتاب « الأحجار »(٤٧) .

وفي هذا الكتاب ـ أيْ منافع الأحجار ـ الذي نرى فيه أثر النقل مباشراً واضحاً ، سوف ندلّل على أوجه قصور النقل ببعض الشواهد حيث يُغني الشاهد الواحد عن شواهد كثيرة .

١ ـ من أهمّ هذه الشواهد التي تستوجب المراجعة والتحقيق أنّه بالنظر إلى بعض أسماء المعادن المنقولة حرفّياً عن اليونانيّة إلى العربيّة في كتاب « منافع الأحجار » التي أوْرَد صاحب هذه الدراسة : الدكتور عماد عبد السلام رؤوف مُعْجماً بأسمائها مقرونة بتعليق وملاحظة عطارد بن الحاسب ، سوف يستوقفنا اسم « أمِيُونِيس » ، وكانت ملاحظة عطارد على هذا الاسم بأنه « الخمست » .

ولم يفْطن الناقل عجزاً وقصوراً وجهلاً بعلم المعادن والأحجار إلى أنّ هذا المعدن ليس بالشيء الجديد معرفته . فقد عجز الناقل (أولاً) عن نقل الاسم ـ أي أمينونيس ـ نقلاً صحيحاً فهذا الاسم مشتقٌّ من كلمة إغريقية قديمة معناها غير مسكر لاعتقاد الإغريق أن من يشرب الخمر في وعاء من هذا الحجر لا يسكر ويقابله بالفرنسية Amethystos[٤٨] . وعجز الناقل (ثانياً) عن معرفة أن هذا المعدن معروفٌ في العربية باسم « الجمست » وهو ما نبّه عليه عطارد في ملاحظته ، وعلى الرغم من أنّ أحداً من قدماء اللغويين لم يذكره إلاّ أنّ أصحاب الفن قد ذكروه في مصنفاتهم[٤٩] . وعجز الناقل (ثالثاً) عن معرفة أن هذا المعدن معروفٌ بخواصه لدى العرب باسم « المعشوق »[٥٠] .

٢ ـ وهناك أمرٌ آخر لا شك في دلالته على مدى ما وصل إليه عجز النقلة فيما يتعلّق بأسماء المعادن . فمن المعروف في علم المعادن Mineralogy أنّ أسماء المعادن لا تخضع لقاعدةٍ ثابتة تجري على أساسها تسْمية المعادن . فقد تُسَمّى بعض المعادن حسب التركيب الكيميائي للمعدن ، أيْ تُنْسَبُ إلى العنصر الرئيسي الداخل في تركيب المعدن الكيميائي مثل معدن الكروميت Chromite (أكسيد كروم وحديد) نسبةً إلى عنصر الكروم المكوِّن الرئيسي في التركيب الكيميائي للمعدن[٥١] . وقد تسمّى المعادن ـ أيضاً ـ نسبةً إلى أشهر مناطق تواجدها مثل معدن الإلمنيت Ilmenite نسبة إلى منطقة إلمن بالاتحاد السوفييتي حيث توجد رواسب ضخمة من معدن الإلمينيت[٥٢] . وقد تسمّى المعادن كذلك تكريماً لبعض العلماء مثل معدن الشيليت Scheelite (تنجستات الكالسيوم) الذي سُمِّي بهذا الاسم تكريماً للعالم الكيميائي شيل Scheele الذي

اكتشف حمض التنجستيك في هذا المعدن[٥٣] ... إلخ .

وعندما نأتي إلى تسمية المعادن نسبةً إلى ألوانها ، لا نجد مِنْ بَينْ مجموع المعادن إلاّ القليل النادر الذي تمّت تسميته نسبةً لألوانه ، ونخصّ بالذكر معدن اللاّزوريت Lazurite الذي يُوشك أنْ يكون المثال الوحيد في علم المعادن الذي انتسب إلى لونه . ويتميّز معدن اللازوريت بلونٍ أزرق عميق وقد اشتق اسمه من Azur التي تفيد معنى الزرقة والتي جاءت بدورها من الكلمة العربية « الأزرق »[٥٤] .

نَخْلص من هذا القول بأنّه من النادر أَنْ يسمّى المعدن نسبةً إلى لونه ، لسبب بسيطٍ للغاية وهو تعدّد ألوان المعدن الواحد ، وذلك بسبب وجود الشوائب التي لا يخلو معدن من المعادن من وجودها والتي غالباً ما تكون شوائب ملوّنة . وتُعْرَف مثل هذه المعادن بأنها معادن متغيّرة اللون Allochromatic Minerals[٥٥] . فالمرو Quartz ـ على سبيل المثال ـ يتراوح لونه ما بَيْن الشفاف واللون الأبيض والأصفر والأحمر والقرمزي والبنفسجي والأخضر والأزرق والبني والأسود[٥٦] . إذاً فلا يجوز ـ لهذا السبب ـ أنْ تسمّى المعادن حسب ألوانها إلاّ إذا كان المعدن يتميّز عن غيره من المعادن بلونٍ فريد .

وعلى الرغم من هذا فإنّنا نجد القزويني يُفْرد قائمةً طويلة من المعادن والأحجار في كتابه الشهير « عجائب المخلوقات » نقلاً عن أرسطو مسمّياً تلك الأحجار بألوانها فهناك حجرٌ أبيض وحجرٌ أحمر وحجرٌ أسود وحجرٌ أخضر ... إلخ . والحقيقة ـ كما نراها ـ أنّ النقلة الذين نقلوا كتاب الأحجار المنسوب إلى أرسطو قد شقّ عليهم نقل أسماء تلك الأحجار من اليونانية إلى العربية فعمدوا إلى خاصيّة اللون فأطلقوا على الأحجار أسماءها نسبةً إلى ألوانها وهو عجزٌ واضحٌ لاشكّ فيه من النقلة .

٣ ـ ومن الشواهد التي لا يرقى إليها الشك في قصور النقلة وعجزهم عمّا ينقلون إلى اللسان العربي ما أورده القزويني بقوله : « حجرٌ يتولّد في الإنسان : قال أرسطو إذا سُحِقَ مع الكحل قلع البياض من العين إذا اكتحل به »[٥٧] . ويتّضح من هذه الجملة أنّ الناقل قد عجز تماماً عن نقل الاسم اليوناني إلى الحرف العربي فَعمِد إلى تَسْمية هذا الحجر بما يتراءى له لأنّ ما قاله أرسطو من خواص هذا الحجر بعيدٌ كلّ البعد عن فحوى اسم الحجر فضلاً عن أنّه لم تجر العادة على تسمية الأحجار في جملةٍ كاملة مكوّنة من فعل وفاعل وحرف جر ومفعول وإنما يُكْتَفَى بكلمة واحدة في تسمية الأحجار .

وعلى نفس النمط من المثال السابق يقول القزويني : « حجرٌ يتولّد في الماء الراكد : قال أرسطو : إذا سُحِقَ وسُعِطَ به نفع من الصرع والجنون »[٥٨] .

وصفوة القول بأنه كان من الأنسب لهؤلاء النقلة أنْ ينقلوا أسماء هذه الأحجار من لغتها الأصلية ـ كما هي ـ إلى الحرف العربي لأنّه من المعروف أن أسماء الأعلام الأعجمية وأسماء الأعيان من نبات وحيوان ومعادن تُنْقَل كما هي .

٤ ـ ومن الشواهد الطريفة الدّالة على عجز النقلة ما أورده القزويني بقوله : « حجر أسمانجوني : قال أرسطو .... »[٥٩] ويبدو عجز الناقل هنا واضحاً ولعلّه ناقل فارسيّ الأصل لأنّ كلمة « أسمانجوني » فارسيّةٌ ومعناها السمائي اللون أو أزرق اللون[٦٠] . وليس من المعقول ألاّ يكون في اللغة اليونانية لفظةً تفيد مثل هذا اللون الذي يدلّ على زرقة السماء أيْ أنه من الألوان الشائعة المألوفة . والذي نرجحّه أنّ الناقل قد استوعب معنى اللون في لغته الأصلية وعجز عن نقل اللفظ فاستبدل باللفظ اليوناني لفظة فارسية .

ثانياً : التحريف والدسّ المتعمّد في حركة النقل :

عَلِمْنا ـ كما قد مرّ بنا ـ أنّ النقلة كانوا أهل تكسّب وتجارة وليسوا من أهل العلم والمعرفة فيما عدا قلّة محدودة منهم . وكان من الطبيعي ألاّ تخلو ترجماتهم من الأخطاء الناجمة عن عجزهم في النقل . والذي نودّ أنْ نقوله أنّه لو كانت تلك الأخطاء قاصرةً على الخطأ المِهَنيّ غير المقصود لهان الأمر ، غير أنّ فريقاً من هؤلاء النقلة ـ وقد كانوا من غير بني العرب ـ قد تعمدّوا دسّ ما أَمْلَته عليهم أهواؤهم العرقيّة والمذهبيّة في ثنايا ترجماتهم فضلاً على تحريف الكثير من الكتب التي قاموا بترجمتها بما يوافق تلك الأهواء .

وعندما نأتي إلى علوم المعادن لا نجد غير كتاب القزويني « عجائب المخلوقات » لا لسببٍ سوى أنّ القزويني قد نَقَل جلّ خواص المعادن والأحجار عن أرسطو والقليل الأقل من غيره . ومن هنا كانت أهميّة البحث عمّا نقله النقلة عن أرسطو في كتاب القزويني .

وسوف ندلّل فيما يلي على دسّ النقلة ببعض الشواهد التي أوردها القزويني نقلاً عن أرسطو وبليناس .

١ ـ جاء في « عجائب المخلوقات » : « حجرٌ أسمانجوني : قال أرسطو إذا كان الحجر أسمانجونيّاً فحككته فخرج أبيض ، من استصحبه يبقى فرحاً غير حزين ، وإن خرج

أسود من علّقه لم يَنْجح في عمله ، وإنْ خرج أصفر فهو صالحٌ لكلّ عملٍ وإنْ طُرِحَ في بئرٍ أو نهر قلّ ماؤها وربما انقطع وإنْ خرج أحمر من استصحبه يرى كلّ خير وإن خرج أخضر يزكو ما يزرع في أرض خير أو أرض سوء وإنْ خرج أَغْبر واكتحل به على اسم امرأةٍ أحبّته »(٦١) .

وإذا تغاضينا عن فساد هذا القول من زاوية علم المعادن . فإنّ المعدن إنْ تعدّدت درجات ألوانه فإنّ المحك أو ما يُعْرف بالمخدش Streak ذو لونٍ ثابت لا يتغيّر مهما تعدّدت واختلفت ألوان المعدن الواحد .

غير أن الملْفِت للنّظر حقّاً فيما نُسِبَ إلى أرسطو ـ وهو صاحب المنطق ـ عن فوائد مزعومة لهذا الحجر ، فإنّ الدسّ ـ أو التحريف إنْ أحسنّا الظن ـ واضحٌ كلّ الوضوح فهذا الحديث ـ المنسوب إلى أرسطو ـ ليس إلاّ دعوةً لجعل الفرح مرهوناً بالمحكّ الأبيض ودعوةً ثانية لجعل الفشل في العمل إذا كان المحكّ أسود ، ودعوة ثالثة لبيان أنّ صلاح الأعمال سببه المحك الأصفر وليس لجهدٍ مبذول ودعوة رابعة لتعليل قلة أو انقطاع ماء الآبار والأنهار إذا طرح فيها هذا الحجر ، ودعوة خامسة لجعل نماء الزرع حتّى وإن كان في أرضٍ مواتٍ سببه المحكّ الأخضر ، ودعوة سادسة لجعل الحبّ سببه الاكتحال بالمحكّ الأغبر على اسم المحبوب .

وخلاصةُ القول أنّها دعوةٌ لبني العرب إذا أُريدَ زرعهم أنْ يزكو وأنْ تَنْجح أعمالهم وأنْ يكيدوا لأعدائِهم بِطرْحِ هذا الحجر في آبارهم إذا امتلكوا هذا الحجر العجيب الساحر الذي لا وجود له إلاّ في خيال ناقلٍ أراد أنْ يدسّ للعرب ما يَنْشغلون به عن السّعْي في الرزق إلى السّعي في البحث عن هذا الحجر .

٢ ـ ومثال آخر أورده القزويني نقلاً عن أرسطو لا يبعد كثيراً في الخواص الخارجة عن مألوف الخواص والتي أَشْبه بالخوارق عن الحجر السابق والتي لا تمتّ بأدنى صلةٍ بعلم المعادن فضلاً عن المنطق والعقل . جاء في « عجائب المخلوقات » « حجرٌ أحمر : قال أرسطو إذا كان الحجر أحمر فخرج محكّه أبيض فإنّ حامله يَنْجح في كلّ عملٍ يعمله وإن خرج أسود كان حامله أيّ شيءٍ يحدّث به نفسه يَقْدر عليه ، وإنْ خرج أصفر فمنْ ربطه على عَضدِهِ يحبّه الناس وإنْ خرج أَغْبر فإنّه حيث ذهب على عملٍ يحبّه الناس ويَنْجح وإنْ خرج أخضر فإنّ الذي يُمْسِكُه معه يَصْرف عنه السلاح »(٦٢)

ولا يشكّ مَنْ يقرأ هذه الخصائص السحرية العجيبة أنّ دسّ الناقل هنا كان صريحاً

فليس من المعقول أنْ يقول أرسطو ؛ وإنْ خَرَج هذا الحَجر أسود كان حامله قادراً على عمل أيّ شيء يحدث به نفسه أوْ أنّ هذا الحجر يحمي صاحبه من السلاح ـ أيْ من موارد الهلاك ـ . وعلى هذا النسق أورد القزويني مُعْظم ما أورده من خواص الأحجار نقلاً عن أرسطو دون أنْ يتحرّى مَبْلغ الصحّة أو الخطأ ولكنها حركة النقل التي أتاحت لغير بني العرب من سريان ونساطرة ويهود أن يكونوا روّاد حركة النقل فكثُر الدسّ والتحريف .

٣ ـ جاء في « عجائب المخلوقات » : « إثْمد : قال أرسطو : هو حجرٌ معروف له معادنٌ كثيرة وأغلبها في أكناف الشرق .... إلخ »[٦٣] .

والحقيقة أنّ التاريخ يَنْفي عن أرسطو هذا القول وأغلب الظنّ أنّه دسٌّ متعمدّ ألصقه ناقلٌ بأرسطو . فالإثمد هو حجر الكحل ومرادفه في علم المعادن الأنتيمونيت Antimonite ويرِّجح العالم الكيميائي Remy أنّ لفظة أنتيمون مشتقّةٌ من اللغة العربية ـ أيْ الإثمد ـ وانتقل الاسم من الخام ـ أيْ المعدن ـ إلى الفلز[٦٤] . والحقيقة التاريخية أنّ أرسطو لم يقل ما نُسِبَ إليه عن الإثمد لأن عصره أو بالأحرى لأنّ اليونان في عصره لم تعرف هذا الحجر إلاّ على يد بليني Pliny (٢٣ ـ ٧٩م) الذي وجد نساء الشرق يَسْتَخْدمنه في الاكتحال ومن الجدير بالذكر أنّ بليني هذا هو الذي أطلق عليه اسم Stibium[٦٥] غير أنّ لفظة أنتيمون ـ المشتقّة من الإثمد العربية ـ قد غَلَبت شهرتها على ما عداها لتبقى دليلاً حيّاً على سبق العرب . ومن المعروف أنّ أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م) كان سابقاً لعصر بليني بأكثر من ثلاثة قرون .

٤ ـ ذكر القزويني ضِمْن ما ذكره حجراً نَسَبه إلى بليناس حيث يقول : حجر بليناس : قال في كتاب الخواص إذا كان الجمل كثير الرغاء فربطتّ في ذَنَبه حجراً لا يرغو البتّة »[٦٦] . والحقيقة أنّ حياة العربي في الصحراء تصبح مستحيلة لولا الجمل ، وقد ظهر ذلك جليّاً لدى العرب سواء في أمثالهم وأشعارهم ومؤلّفاتهم وحتّى في مفردات اللغة ذاتها ، فلم تَتْرك العرب شاردةً أو واردةً تتعلّق بالإبل ـ مهما صغرت ـ إلاّ وكانت معروفةً لديهم ، كما أنّ القارىء للشعر الجاهلي يجد أنّ الإبل تحتلّ قسماً كبيراً من هذا الشعر وبالنّسبة لمفردات اللغة التي تتعلّق بالإبل فإنّ ابن سيده قد خصصّ سِفْراً كاملاً في معجمه الشهير « المخصّص » للحديث عن الإبل من ناحية صفاتها وكيفيّة حملها وأسنانها ..... إلخ[٦٧] . وصفوة القول أنّ كلّ ما يتعلّق بالجمل إنّما هو علمٌ

حِكْرٌ على العرب وحدهم لا ينازعهم فيه أحد . أمّا ما ورد منسوباً إلى بليناس فهو – أولاً – نحن نشكّ كثيراً أن هذاالقول قد وَرَد على لسان بليناس – كما يسمّيه العرب – فلو كان صحيحاً هذا القول لأطلق بليناس اسم هذا الحجر من واقع البيئة نفسها – أيْ البيئة العربية – ولكان من السهل عِنْدئذ على الناقل أنْ يُرْجِعَ الاسم إلى أصوله الأولى . نقول هذا لأنّ بليني أو بليناس هذا كان يُطْلق أسماء ما يجهله من أحجار من واقع البيئة نفسها التي رأى فيها الحجر لأوّل مرة كما حدث تماماً مع صخر السيانيت Syenite الذي سمّاه بليني بهذا الاسم نِسْبة إلى مدينة سيين – وهو الاسم القديم لمدينة أسوان بمصر(٦٨) – وهو ثانياً – من الناحية العلميّة لا يوجد حجرٌ له هذه الخاصيّة العجيبة التي تجعل الجمل لا يرغو إذا رُبطَ في ذَنَبِهِ وهو – ثالثاً – إذا كان القائل بليناس حقّاً فكيف يستقيم له أنْ يُدرِك خاصيّة حجر لم يعرفه العرب وهو في بلادهم وذي تأثير على أنْفس ما لديهم وهو الجمل ويُطْلِق عليه اسمه فيصبح حجر بليناس وكأنّ هذا الحجر مجهولٌ وغير معروف الاسم حتّى أتى بليناس في رحلةٍ عابرة لِيَكْشِفَ ما جَهِله العرب .

نخلص من هذا كلّه لنبيّن في النهاية أنّ ما أورده القزويني منسوباً إلى بليناس إنّما هو خبرٌ مختلقٌ جملةً وتفصيلاً قد لفّقه أو دسّه ناقلٌ أراد أن يبيّن عن طريقٍ غير مباشر جَهْل العرب في أمور حياتهم ، غير أنّ سوء حظّه شاء له أنْ يذكر أمراً غير معروف إلا للعرب وحدهم .

ثالثاً : أخطاء النُسّاخ الطبيعيّة والمتعمّدة :

حَفَلت مؤلّفات العرب في علوم المعادن بقدرٍ غير قليل من أخطاء النسّاخ الطبيعيّة منها والمتعمدّة ومن أشهر الكتب المؤلّفة في هذا العلم كتاب البيروني الشهير الموسوم « الجماهر في معرفة الجواهر » . يقول محقّقه سالم الكرنكوي في خاتمة التحقيق : « اعتمدّتُ في تهذيب الكتاب على ثلاث نسخ وليس في العالم نسخة أخرى وهي :

(س) نسخةٌ محفوظةٌ في خزانةٍ بالأستانة وهي أصحّ النسخ .

(ب) نسخةٌ كُتِبَتْ في مصر في زمن دولة المماليك . وقد أخطأ الكاتب في مواضع كثيرة ظنّاً أنّه يصحّح أَصْلَهُ فَوَهِم .

(أ) نسخة محفوظة في خزانة الأسقوريال بالأندلس وهي بقلم جاهل باللّغة وقد أسقط من جهله في مواضع كثيرة جُمَلاً بل نصف كلمة »(٦٩) . وسوف نستعرض



فيما يلي بعض الشواهد الدّالة على أخطاء النّسْخ فيه .

١ ـ جاءَتْ في « باب سائر ألوان الجواهر واليواقيت » فقرةٌ يَحْسِبُ فيها البيروني النّسبة بين وَزْن الياقوت الأكْهَب والياقوت الأحمر المساوِي له في الحجم جاء فيها : « أنّ الأكهب إذَا كان في الوزن مائة كان وزن الأحمر الذي يساويه في الحجم سبعة وتسعين مرّة وثُمْن . ولإزالة الكسر يكون نسبة وزن الأحمر إلى وزن الأكهب نسبة السبعمائة والسبعة والسبعين إلى الثماني مائة »[٧٠] وجاء في هامش المحقّق بشأن الجملة الأولى « النُّسَخ سبعين ولكنّ الحساب يَقْتَضِي ما كَتَبْنا »[٧١] أيْ أنّ جميع نُسَخ الكتاب قد نقَلت من أصلٍ سابقٍ له نقلاً خاطئاً ولم يكلِّف أحدٌ من هؤلاء النسّاخ نفسه بمراجعة الأرقام الحسابيّة . أمّا الجملة الأخيرة فقد أَسْقطها النّاسخ في (أ)[٧٢] وأغلب الظنّ أنّه قد أَسْقطها عمداً رغبةً في الاختصار ظناً منه أنّ الجملة الثانية إنّما هي من قبيل الزيادة والحشو والتي لا يختلّ بإسقاطها المعنى .

٢ ـ جاءت في « باب إصلاح فواسد اللآلئ » جملةٌ مضطربة المعنى ويبدو أنّ المحقق قد أَدَار في ذهنه الوجوه المحتملة لمعنى هذه الجملة فلم يوفَّق فعلّق عليها في حاشيته بقوله « كذا وَرَدَ في النّسخ فلم اهتد إلى صحّته وفي الألفاظ اضطراب[٧٣] » ويُفْهم من تعليق المحقَّق أنّ النّساخ قد أساءوا النّسْخ ، ولعلّ هذه الجملة المضطّربة قد حَوَتْ آفات النسخ جميعاً ما بين تصحيفٍ وتحريفٍ وسَقْطٍ وإضافة .

٣ ـ من المعروف لقارئ الجماهر أنّ البيروني كان كثير الاستشهاد بالشعر ومن بين تلك الأبيات التي استشهد به البيروني بيت رؤبة بن العجَّاج :

قَـدْ كان ذَاكم زَمـان الفَطْحَـلِ   والصّخر مبتلّ كطين الوَحَلِ[٧٤]

وجاء في حاشية المحقّق حَوْل هذا البيت « النّسَخ : الطّفْحَل » أيْ أنّ النّساخ الثلاثة قد أَخْطأوا في كتابة « الفطحل » فجعلوها « الطفحل » . وجاء بهامش (س) : « أنّ هذا التصحيف ليس من غير المصنِّف ـ يقصد البيروني ـ وصوابه ، قد كان ذَاكُم زَمَن الفَطْحَل »[٧٥] .

٤ ـ ومن الأخطاء المتعمّدة من النّساخ ما فَعَله ناسخ (أ) حين تصرّف في هَيْكل كتاب الجماهر حيث قام بِتَجْزِئَته إلى جزئين . ففي نهاية باب « في ذكر الأخبار في اللآلئ » كتب هذا الناسخ : « نَجز الجزء الأوّل من كتاب الجماهر في معرفة الجواهر

ويتلوه أوّل الجزء الثاني في ذكر الزمرد وأصنافه »[٧٦] على حين أنّ النسختين (ب) و(س) ليس فيهما ما يدلّ على أنّ الكتاب مقسَّمٌ إلى جزئين بل هو كتابٌ واحدٌ . ولعلّ ما فعله هذا الناسخ كان وراءه رغبة في زيادة الأجر باعتبار أنّ لكلّ جزءٍ أجْرَه .

ولم يكن الجماهر للبيروني مثالاً وحيداً لأخطاء النّساخ فإنّ هناك كتاباً آخر يتّضح فيه الكثير من أخطاء النساخ المتعمدة وهذا الكتاب هو « الجواهر وصفاتها » ليحيى ابن ماسويه الذي ذكر فيه سبعة وعشرين حجراً من الأحجار الكريمة كما جاء في فاتحة الكتاب[٧٧] والقارئ لهذا الكتاب لابد أنّ تَستوْقفه أمورٌ عدّة :

أولها : أنّ ابن ماسويه قد أَغْفَل ذكر ثمانية أحجار في مَتْن الكتاب ، كانت مذكورةً في فاتحة الكتاب .

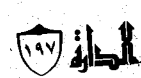
وثانيها : أنّ ابن ماسويه لم يأْت على ذكر ما أثْبته من الأحجار في مَتْن الكتاب بنفس الترتيب الوارد في فاتحة الكتاب[٧٨] أي أنّ هناك اختلافاً في ترتيب فصول الكتاب ما بَيْن المتْن وبين ما ذكره المؤلِّف في تقديمه للكتاب .

وثالثها : يُلحظ أنّ المؤلِّف قد زاد في المَتْن ثلاثة أحجار لم يَرِد ذِكْر أيّ منها ضمن الأحجار المذكورة في المقدمة وهذه الأحجار هي البجادي والبقراني والكبريت .

ورابعها : يُلحظ أنّ المؤلِّف لم يَعْدِل بين الأحجار من حيث الإفاضة في الحديث أو الإيجاز فقد أطال الحديث عن اللؤلؤ والياقوت والماس بَيْنما نجد أنّه قد أَوْجَز كلّ الإيجاز في أحجار أخرى كاللازورد والفيروزج والقبوري حيث شغل كلّ منها ما زاد على السطر الواحد بقليل .

نخلص من هذه الملاحظات إلى القول بأن دور الناسخ في هذا الكتاب كان كبير الأثر . فليس من المعقول أنْ يبدأ المؤلِّف خِطّة كتابه بترتيب ما ثم يَعْدل عن هذا الترتيب في مَتْن الكتاب . كما أنّه ليس من المعقول ـ أيضاً ـ أنْ يُسْقِط المؤلِّف ما يعادل ربع ما ذكره في المقدّمة من أحجارٍ ولاسيما أنّ الكتاب صغير الحجم حيث يقع في سَبْع أوراق وفي كلّ صفحة منها ٢٣ سطراً[٧٩] ، في نفس الوقت الذي يضيف فيه المؤلِّف ثلاثة أحجار لم تَرِد ضمن أحجار المقدّمة .

فالنّاسخ ـ على الأرجح ـ وليس أحداً سواه قد تصرّف على هذا النحو المتعمد فأسقط ما أسقط وأضاف ما أضاف من الأحجار وأختصر من الحديث عمداً في بعض الأحجار .



رابعاً : إقْحَامات وتَزيّد النّساخ على المَتْن .

يَحْدث كثيراً أَثْناء التحقيق ومن خلال المقابلة بين النّسخ المختلفة للكتاب الواحد في سبيل التوصّل إلى النصّ الأصلي أَوْ أقرب نصٍّ كتبه المؤلّف أنْ يَجد المحقّق جملةً أو فقرةً زائدةً قد انفردت بها نسخةٌ أو نسختان دون بقيّة نُسخَ المخطوط الأخرى مما أقْحمه بعض النّساخ على المتْن الأصليّ وتُمثّل هذه الظاهرة واحدةً من أهمّ آفات التراث العربي ، لأنّ مثل هذه الإقحامات ممّا تزيّده النسّاخ غالباً ما تكون مستترة قد تداخلت في ثنايا متن الكتاب الأصلي ولاسيما إذا كان الناسخ من أهْل الدّراية والعلم الذين يصعب معرفة ما أضافوه إلاّ بالبحث والمراجعة ودقّة التحقيق .

وعلى سبيل المثال فقد كَشَفَ الأستاذ محمود محمد شاكر في تحقيقه لكتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلاّم الجمحي خمسة مواضع استدْخَل فيها أبو خليفة الجمحي - راويَة ابن سلام نفسه - في نصّ كتاب ابن سلام(٨٠) . كما كشف أيضاً الأستاذ عبد السلام هارون محقّق « رسائل الجاحظ » في تحقيقه لرسالة الجاحظ المسمّاة « كتاب ذم أخلاق الكتّاب » عن فقرةٍ دخيلة قد أقحمها الناسخ(٨١) . وعندما نأتي إلى مؤلّفات العرب في علوم المعادن سوف نجد أنّ كتاب « أزهار الأفكار في جواهر الأحجار » للتيفاشي والذي حقّقه كلٌّ من الدكتور محمد يوسف حسن والدكتور محمود بسيوني خفاجى قد تفشّت هذه الظاهرة إلى الحدّ الذي كادت أن تكون أجزاء من بعض فصوله إنّما هي من إقحامات وتزيّد النساخ على المتْن الأصلي الذي كتبه المؤلف .

وقَبْل أَنْ نستعرض بعض الشواهد الدّالة على تزّيد النسّاخ يَجْدر بنا أَنْ نلمّ إلمامةً سريعة بنُسَخ الكتاب التي اعتمد عليها المحقّقان : (أولها) النسخة (أ) وقد اتُّخذت أصلاً لقرب تاريخها من إنجاز التيفاشي (٥٦١هـ) للكتاب و(ثانيها) النسخة (ب) وتاريخها غير مدوّن ولم يعتمد المحققان عليها كثيراً و(ثالثها) النسخة (جـ) وهي نسخةٌ مليئةٌ بالأخطاء وغير مؤرّخة و(رابعها) النسخة (د) وهي قليلة الأخطاء وغير مؤرّخة إلاّ أنه قد ذُكِرَ التاريخ في باب « الزبرجد » وحددّه الناسخ وهو عام ٦٤٠هـ و(خامسها) النسخة (هـ) وهي نسخةٌ مصورة طِبْق الأصل للنّسخة (أ) و(سادسها) النسخة (و) ويَرْجع تاريخ نسخها إلى القرن التاسع عشر(٨٢) .

وفيما يلي بعض الشواهد الدالة على تزيّد وإقحامات النساخ نعرضها على سبيل المثال لا الحصر :

١ ــ جاء في باب « الياقوت » ، وفيما يَقْرُب من صفحتين بدايةً من « والياقوت منه ما يُوجد في هذه الجزيرة ... ــ إلى أن يقول ــ ...... وتكون القطعة من الأسمانجوني أربعين مثقالاً »[٨٣] . وهاتان الصفحتان زيادةٌ مضافةٌ في النسخة (د) فقط أيْ أنّها « ساقطةٌ من باقي النسخ »[٨٤] . إذاً فنحن أمام ناسخٍ متزّيد شاء أنْ يقحم ما أراد إقحامه على متن الكتاب .

٢ ــ جاءت ضمن الفقرة السابقة فقرةٌ منقولةٌ عن ابن ماسويه نصّها : « وقال يوحنا ابن ماسويه إنّ أنْدر قطعة من الياقوت الأحمر غِالباً خمسة مثاقيل ، وقال الياقوت الأحمر والأسمانجوني يجوز أنْ يكون في بعضه صفرة ..... »[٨٥] . وبالرجوع إلى كتاب ابن ماسويه في باب « صفة الياقوت ومعدنه »[٨٦] لم نجد لما جاء في كتاب التيفاشي في تلك النسخة التي انفردت وحدها بذكر هذا الخبر وهي النسخة (د) نقلاً عن ابن ماسويه أيّ أثرٍ سواء بالمعنى أوْ اللفظ أي أنّ الخبر مختلقٌ في أساسه قد أقحمه الناسخ مرّتين مرة عندما تزيدّ على المتن ممّا ليس فيه أصلاً ، ومرة أخرى عندما ادّعى أنّ ما أورده كان مصدره كتاب ابن ماسويه في الأحجار .

٣ ــ أوْرد التيفاشي في باب « البازهْر » فقْرةً طويلةً جاء فيها : « وأخبرني من لا أشكُّ في صِدْق قوله .... إلى أن يقول ... وذكر أنّه جرّبه في ذلك ولم يعرف له اسماً ولا هل هو معدني أو حيواني »[٨٧] . وجاء في حاشية التحقيق أن هذه الفقرة مضافةٌ من النسختين (جـ) و(د) وقد وَرَدت بصورة مختصرة في (أ) و(ب) . ومعنى ذلك أنّ هذه الفقرة الطويلة مضافةٌ من نسختين وساقطةٌ من نسختين ووردت مختصرةً في نسختين وممّا يقوّي الاعتقاد لدينا بأنها زيادةٌ قد تزيّدها أحد النساخ وهو ناسخ (د) على وجه التحديد لا لكثرة ما أقحمه فحسب ــ كما مرّ بنا ــ ولكن لأنّه في نفس الباب ــ أيْ باب « البازهر » ــ قد وَرَدت فقرةٌ جاء فيها : « والخبرة الصحيحة والامتحان والتجربة .... إلى أنْ يقول ... وفرّق الباقي كما أمر » مضافةٌ من النسخة (د) فقط دون بقية النّسخ الأخرى[٨٨] .

٤ ــ جاء في باب « الماس » : « وقال أحمد ــ أيْ التيفاشي ــ ومن خواصّه أنّ الإنسان إذا ابتلع منه قطعةً ولو كانت أصْغر ما يكون خَرَقت أمعاءه فتقْتله على الفور »[٨٩] . ويبدو أنّ ناسخ (د) قد أراد شرح وتفسير ما أُجْمله التيفاشي وبدلاً من أنْ يشرح ما أراد شرحه في هامش الكتاب أقحم شرحه في متن الكتاب وكأنّ التيفاشي

هو قائله فقد جاءت بعد هذه الجملة فقرةٌ تقول : « وأخبرني بذلك ثقةٌ من الجوهريين بالمغرب والمشرق أنّهم كثيراً ما يجعلون القطعة الصغيرة منه في أفواههم ...... إلخ » وجاء في حاشية التحقيق حَوْل هذه الفقرة أنّها وَرَدت في النسخة (د) فقط[٩٠] . والحقيقة أنّ ناسخ (د) قد أقحم الكثير من الشروح والتعليقات ، ولعلّه كان مولعاً بالأحجار الكريمة أو كان ورّاقاً قد قرأ كتب السابقين في هذا الفن فجاءت شروحه وتعليقاته في ثنايا فِقَار المتْن الأصلي الذي كَتَبه التيفاشي . وجملة القول أنّ القارئ لفصول كتاب « أزهار الأفكار » للتيفاشي سوف يخرج بانطباعٍ لا جدال فيه وهو أنّ كلّ فصلٍ من فصوله لم يَخْل من إقحامٍ أو تزيّد على نحوٍ ما ، يكاد معظمها يشير إلى الناسخ صراحةً . ولولا خشية الإطالة لتناولنا تفصيلاً إقحامات النساخ في هذا الكتاب وحسْبنا ما قد ذكرنا من أمثلة[٩١] .

خاتمة :

وفي ختام هذا البحث لا يسعنا إلاّ أنْ نطرح سؤالاً على قدر كبير من الأهميّة ، ولا نجاوز الصواب كثيراً إنْ قلنا إنّ هذا السؤال هو أخطر ما يواجه محقّق التراث العلمي .

والسؤال هو : كيف السبيل إلى كَشْف وإثبات آفات ونقائص التراث العلمي من سوء نقل أوْ وضع من النقلة أو تزيّد وإقحامٍ من النسّاخ ؟ وسوف نحاول بدورنا أنْ نلقي بعضاً من الضوء على هذه القضية ، لعلّنا بهذا نُلْفِتُ الانتباه إلى أهميّة تَنْقِيَة التراث العلمي العربي ممّا أُقْحِم عليه أو زِيدَ فيه سواء من النّقلة أم النسّاخ ، الأمر الذي قد يقلّل من قيمة هذا التراث . ويُمكن إجمال الإجابة عن هذا السؤال في النقاط الآتية :

١ ـ التحقيق العلمي :

ونعني بالتحقيق العلمي هو شَرْح وتفسير المخطوط أو الكتاب على ضوء معطيات العلم الحديث أيْ تقييمه علميّاً وذلك من خلال إيراد المقابل العلمي لبعض الألفاظ التي قد تَرِد في النصّ ذات المدلول العلمي كأسماء المعادن والأحجار مع التعليق اللازم لهذا التفسير العلمي . وبيان مَبْلغ الصحّة أو الخطأ في المعطيات العلميّة الواردة في النص على ضوء العلم الحديث .

٢ ـ التطور العلمي :

أيْ دراسة تطوّر العلم موضوع مادة التحقيق منذ بداياته الأولى وحتّى عصر المؤلّف . فإذا كان موضوع مادّة التحقيق يختص بالمعادن ، فإنّه من الأنسب أنْ تكون بداية هذه الدراسة ـ التي يُفضّل أنْ تكون دراسةً تفصيليةً ـ عن نشأة هذا العلم منذ أقدم العصور في مواضع الحضارات القديمة كمصر الفرعونية وبلاد ما بين النهرين واليونان ووصولاً إلى العرب حتى عصر المؤلف . وترجع أهمية هذه الدراسة إلى أمرين أولهما : بيان ما اكتسبه العرب من معارف وآراء خاصّة بعلوم المعادن عن غيرهم وما أضافه العرب إلى هذا العلم ، وما هو من إبداعٍ غير مسبوق كان للعرب وحدهم وثانيهما : معرفة ما إذا كان هذا العلم ، جاء نقلاً عن تراث اليونان أمْ لا ، فربّما أخذ اليونانيون هذا العلم أو بعضه عن المصريين القدماء أو البابليين ، وقد كانت لهما حضارةٌ زاهرةٌ فاقت حضارة اليونانيين في أوجهٍ كثيرة .

ولاشكّ أن مثل هذه الدراسة سوف تُفْصِح عن مصادر الخرافات والأشياء غير المقبولة عقلاً ومنطقاً والتي نطالعها بين الحين والحين في ثنايا مؤلّفات العرب في علوم المعادن . وفي اعتقادنا أنّ هذه الدراسة سوف تؤدّي في النهاية إلى تبرئة العلم العربي وبالتالي العقل العربي من تلك الخرافات فليس من المعقول أنْ يكون العرب هم أوّل من توصّلوا إلى المنهج التجريبي . وهو عماد العلوم الحديثة . باعتراف مؤرِّخي الغرب أنفسهم وعلى رأسهم المؤرخ الشهير جوستاف لوبون(٩٢) وأن يكون للخرافات مكاناً في مؤلفاتهم العلمية إلاّ في معرض النقل عن غيرهم .

٣ ـ الحياة العقليّة في عصر المؤلف :

من المعروف أن المؤلف هو أولاً وأخيراً ابن بيئته ونتاجها بما فيها من حياةٍ اجتماعية وسياسية ودينية وعقلية . فمن المهمّ أيضاً دراسة هذه الجوانب مع التركيز بصفة خاصّة على الحياة العقلية لعصر المؤلف التي يُمكن التعرّف عليها تفصيلاً من خلال مؤلّفات معاصريه سواء أكانوا من العلماء أم الأدباء وسواء أيضاً أكانت تلك المؤلفات شعراً أم نثراً .

٤ ـ التطوّر الفكري للمؤلف :

إذا كانت الترجمة الذاتية للمؤلف التي تتناول مولده ونشأته ووفاته مع سردٍ لمؤلّفاته ، وغير ذلك ممّا تحفل به التراجم الذاتية هي من الأمور التي يَحْرِص عليها

المحقّقون . غير أنّ ما يغفله معظم المحقّقين هو دراسة الجانب الفكري للمؤلِّف من حيث تطوّره الذي يتمثّل في دراسة مصادر علمه ، وهل كان هذا العلم عن أشياخ عاصرهم المؤلِّف كطالب علمٍ واستقى من علومهم أمْ عن كتبٍ موضوعة فيه ، وهل كانت هذه الكتب الموضوعة منقولةً عن تراث اليونان والفرس أم أنها مؤلَّفات عربيةٌ لحمة وسدى .... إلخ .

إن النقاط السابقة إنّما هي نقاطٌ موجزةٌ تتعلّق بتحقيق التراث العلمي بصفةٍ عامّةٍ أردْنا بذكرها أنْ يكون العلم العربي بما فيه من سبقٍ وابتكار نقيّاً من شبهات الوضع والإقحام والاستدخال التي تتضمّن في الغالب أموراً تقلل من قيمة العلم العربي ولاسيما الخرافات والأشياء غير المقبولة عقلاً ومنطقاً والتي هي أبْعد ما تكون عن المنهج التجريبي للعلماء العرب ولعلّ فيما سطرناه في هذا البحث يَلْقى صدىً في نفوس المحقّقين والباحثين العرب .... إنّها دعوةٌ لعلّها تلقى مجيباً .

●●●

● الهـوامـش ●

(١) مصادر الشعر الجاهلي ـ د . ناصر الدين الأسد ص ٣٢١ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٢١ .
(٣) في الأدب الجاهلي ـ د . طه حسين ص ١٢٨ .
(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ـ تحقيق محمود محمد شاكر ج ١ ص ٤٦ .
(٥) شمس العرب تسطع على الغرب ـ زجريد هونكه ـ ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ص ١٢ .
(٦) في تراثنا العربي الإسلامي ـ د . توفيق الطويل ص ٥٨ .
(٧) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ـ د . عبد الحليم منتصر ص ١٢٨ .
(٨) فجر الإسلام ـ د . أحمد أمين ص ٤٠ .
(٩) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ـ مصدر سابق ـ ص ١٢٨ .
(١٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ج ١ ص ١٨ .
(١١) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٠٨ .
(١٢) الفهرست لابن النديم ص ٣٣٨ .
(١٣) تاريخ الأدب العربي ـ أحمد حسن الزيات ص ٢٠٦ .
(١٤) عصر المأمون ـ د . أحمد فريد رفاعي ج ١ ص ٣٧٧ .
(١٥) في تراثنا العربي الإسلامي ـ مصدر سابق ـ ص ٧٧ .
(١٦) الفهرست ـ مصدر سابق ـ ص ٣٤٧ .
(١٧) المصدر السابق ص ٣٤٨ .
(١٨) المصدر السابق ص ٣٤١ .
(١٩) المصدر السابق ص ٣٧١ .

(٢٠) المصدر السابق ص ٣٧٣ .

(٢١) الطب العربي - إدوارد براون - ترجمة د. داود سلمان علي ص ٣٢ .

(٢٢) تاريخ العلم - جورج سارتون - ترجمة لفيف من الأساتذة ج ٢ ص ٣٠١ .

(٢٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٠١ .

(٢٤) تاريخ الفكر العربي - د. عمر فروخ ص ٢٧٧ .

(٢٥) الموجز في تاريخ العلوم عند العرب - د. محمد عبد الرحمن مرحبا ص ٧٥ .

(٢٦) عبقرية العرب في العلم والفلسفة - د. عمر فروخ ص ٣٥ .

(٢٧) الموجز في تاريخ العلم عند العرب - مصدر سابق - ص ٦٧ .

(٢٨) ضحى الإسلام - د. أحمد أمين ج ١ ص ٢٦٣ .

(٢٩) المصدر السابق ج ١ ص ٧٧ .

(٣٠) مروج الذهب - مصدر سابق - ج ٤ ص ٤٥ .

(٣١) رسائل الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون ج ٣ ص ٣١٤ .

(٣٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٣٦ .

(٣٣) البيان والتبيين للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون ج ٣ ص ٢٩ .

(٣٤) أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٩٨ .

(٣٥) تاريخ العلم - مصدر سابق - ج ٣ ص ١٦٣ .

(٣٦) تاريخ العرب - د. فيليب حتي - ترجمة محمد مبروك نافع ج ٢ ص ٣٩٣ .

(٣٧) تاريخ الأدب العربي - كارل بزوكلمان ترجمة د. السيد يعقوب بكر وآخرين ج ٤ ص ٩٤ .

(٣٨) المصدر السابق ج ٤ ص ١١١ .

(٣٩) المصدر السابق ج ٤ ص ١٢٩ .

(٤٠) تحقيق النصوص ونشرها - عبد السلام هارون ص ٢٤ .

(٤١) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٤٢) الفهرست - مصدر سابق - ص ٤٢٤ .

(٤٣) أراجيز ملاحية - نظم أحمد بن ماجد - تحقيق إبراهيم خوري ص ١٠ .

(٤٤) المصدر السابق ص ٤٣ .

(٤٥) الجواهر وصفاتها - يحيى بن ماسويه - تحقيق د. عماد عبد السلام رؤوف ص ٥ .

(٤٦) المستشرقون - نجيب العقيقي ج ٢ ص ٤٢٢ .

(٤٧) المورد - المجلد ٥ العدد الأول ١٩٨٦م - منافع الأحجار - د. عبد السلام رؤوف ص ٨٨ .

(٤٨) نخب الذخائر في أحوال الجواهر لابن الأكفاني - تحقيق انستاس ماري الكرملي ص ٦٧ .

(٤٩) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٥٠) المصدر السابق ص ٦٨ .

(٥١) المعادن والصخور - د. أحمد البصيلي ود. مظفر محمود ص ١٤ .

(٥٢) المصدر السابق ص ١٣٦ .

(٥٣) مجلة العلم العدد ١٠٤ أكتوبر ١٩٨٤م - الولغرام - مصطفى يعقوب عبد النبي .

(٥٤) نخب الذخائر - مصدر سابق - ص ٩٢ ، وانظر أيضاً شمس العرب تسطع على الغرب ص ٥٥٣ .

(٥٥) مجلة العلم العدد ١١٢ يونيو ١٩٨٥م - أسرار الجمال الفني في عالم المعادن مصطفى يعقوب عبد النبي .

(٥٦) Mineralogy - E. Kraus - p. 295

(٥٧) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، للقزويني ـ تحقيق فاروق سعد ص ٢٥٩ .
(٥٨) المصدر السابق ص ٢٦٠ .
(٥٩) المصدر السابق ص ٢٥٢ .
(٦٠) نخب الذخائر ـ مصدر سابق ـ ص ٥٩ .
(٦١) عجائب المخلوقات ـ مصدر سابق ـ ص ٢٥٢ .
(٦٢) المصدر السابق ص ٢٥٣ .
(٦٣) المصدر السابق ص ٢٥٢ .
(٦٤) *Treatis on Inorganic Chemistry, H. Remy - Vol. 1, P. 663*
(٦٥) *Mellor's Modern Inorganic chemistry, G.D. Parkes, P. 844*
(٦٦) عجائب المخلوقات ـ مصدر سابق ـ ص ٢٥٢ .
(٦٧) المخصص لابن سيده ـ السفر السابع .
(٦٨) *Petrology of the Igneous Rocks, Hatch & Wells, p. 272*
(٦٩) الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني ـ تحقيق سالم الكرنكوي ص ٢٧٢ .
(٧٠) المصدر السابق ص ٧٧ .
(٧١) المصدر السابق هامش ٦ ص ٧٧ .
(٧٢) المصدر السابق هامش ٧ ص ٧٧ .
(٧٣) المصدر السابق ص ١٣٥ .
(٧٤) المصدر السابق ص ١٨٩ .
(٧٥) المصدر السابق هامش ٦ ص ١٨٩ . والذي نرجحه هنا أن النساخ ومن بعدهم كاتب التعليق قد أخطأوا في كتابة صدر البيت ، فقد قرأناه في كل من الأمالي لأبي علي القالي ج ١ ص ٢٨١ ، ولسان العرب مادة « فطحل » ج ٥ ص ٣٤٣٢ بصورة مغايرة لما جاء في الجماهر ضمن أبيات منها :

تسألني عن السنين كم لي ... فقلت لو عمرت عمر الحسل
أو عمر نوح زمن الفطحل ... والصخر مبتل كطين الوحل

(٧٦) المصدر السابق ص ٢١٤ .
(٧٧) الجواهر وصفاتها ـ مصدر سابق ـ ص ٢٤ .
(٧٨) المصدر السابق ص ٩٩ .
(٧٩) المصدر السابق ص ٢٢ .
(٨٠) طبقات فحول الشعراء ـ مصدر سابق ـ ج ١ ص ٥٦ .
(٨١) رسائل الجاحظ ـ مصدر سابق ـ ج ٢ ص ١٩٩ .
(٨٢) أزهار الأفكار في جواهر الأحجار للتيفاشي ـ تحقيق د . محمد يوسف حسن ود . بسيوني خفاجي ص ٢٩ .
(٨٣) المصدر السابق ص ٦٥ .
(٨٤) المصدر السابق هامش ١٣ ص ٦٥ .
(٨٥) المصدر السابق ص ٦٦ .
(٨٦) الجواهر وصفاتها ـ مصدر سابق ـ ص ٤١ .
(٨٧) أزهار الأفكار ـ مصدر سابق ـ ص ١٢٠ .

(٨٨) المصدر السابق ص ١٢٣ .
(٨٩) المصدر السابق ص ١٠٨ .
(٩٠) المصدر السابق ص ١٠٩ .
(٩١) لمزيد من الأمثلة الدالة على تزيد النساخ في كتاب أزهار الأفكار انظر هامش ١٢ ص ٩٧ وهامش ١١ ص ١٠٢ وهامش ٦ ص ١١٠ وهامش ١٢ ص ١١٥ وكلها فقار وردت في النسخة (د) فقط دون بقية النسخ الأخرى .

• المـراجـع العـربيـة •

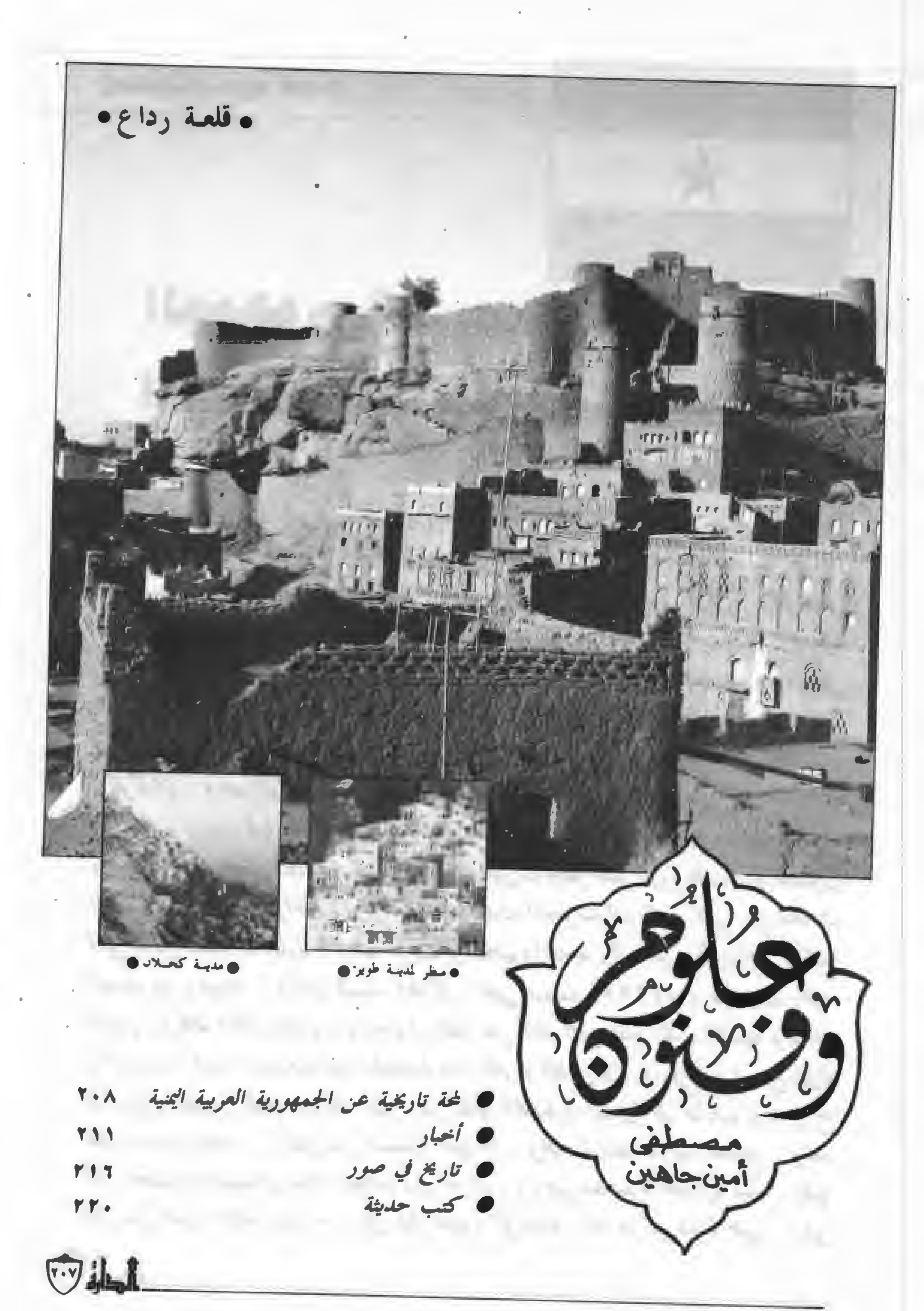
(١) أراجيز ملاحية ـ أحمد بن ماجد ـ تحقيق إبراهيم خوري ـ منشورات وزارة الإعلام والثقافة ـ صنعاء ـ بدون تاريخ .
(٢) أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ـ أحمد بن يوسف التيفاشي ـ تحقيق د . محمد يوسف حسن ود . بسيوني خفاجي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٧م .
(٣) البيان والتبيين ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي ـ الطبعة الرابعة ـ القاهرة ١٩٧٥م .
(٤) تاريخ الأدب العربي ـ أحمد حسن الزيات ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر الطبعة الخامسة والعشرون ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .
(٥) تاريخ الأدب العربي ـ كارل بروكلمان ترجمة د . رمضان عبد التواب وآخرين ، دار المعارف ـ الطبعة الخامسة ـ القاهرة ١٩٨٢م .
(٦) تاريخ العرب ـ د . فيليب حتى ـ ترجمة محمد مبروك نافع ـ دار التوزيع والطباعة والنشر ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٤٩م .
(٧) تاريخ العلم ـ جورج سارتون ترجمة لفيف من الأساتذة ـ دار المعارف الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٧٩م .
(٨) تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ـ د . عبد الحليم منتصر ـ دار المعارف الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٦٧م .
(٩) تاريخ الفكر العربي ـ د . عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٩م .
(١٠) تحقيق النصوص ونشرها ـ عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي الطبعة الرابعة ـ القاهرة ١٩٧٧م .
(١١) الجماهر في معرفة الجواهر ـ أبو الريحان البيروني ـ تحقيق سالم الكرنكوي حيدر آباد الدكن ـ الهند ١٣٥٥هـ .
(١٢) الجواهر وصفاتها ـ يحيى بن ماسويه ـ تحقيق د . عماد عبد السلام رؤوف ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٧م .
(١٣) حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٩٦٩م .
(١٤) رسائل الجاحظ ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٧٤م .
(١٥) شمس العرب تسطع على الغرب ـ زجريد هونكه ـ ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ـ دار الآفاق الجديدة ـ الطبعة السادسة ـ بيروت ١٩٨١م .

(١٦) ضحى الإسلام ـ د . أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة العاشرة ـ القاهرة ١٩٨٤م .
(١٧) الطب العربي ـ د . إدوارد براون ترجمة د . داود سلمان علي ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ وزارة الثقافة والإعلام ـ الطبعة الثانية ـ بغداد ١٩٨٦م .
(١٨) طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام الجمحي ـ تحقيق وشرح محمود محمد شاكر مطبعة المدني ـ القاهرة ١٩٧٤م .
(١٩) عبقرية العرب في العلم والفلسفة د . عمر فروخ ـ منشورات المكتبة العصرية ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت ١٩٨٠م .
(٢٠) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ـ زكريا القزويني ـ تحقيق فاروق سعد ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت ١٩٨١م .
(٢١) عصر المأمون ـ د . أحمد فريد رفاعي ـ مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٧م .
(٢٢) فجر الإسلام ـ د. أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثالثة عشرة ـ القاهرة ١٩٨٢م .
(٢٣) في الأدب الجاهلي ـ د . طه حسين ـ ضمن مجموعة من تاريخ الأدب العربي المجلد الأول ـ دار العلم للملايين ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٩٧٨م .
(٢٤) في تراثنا العربي الإسلامي ـ د . توفيق الطويل ـ سلسلة عالم المعرفة ، رقم ٨٧ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت ـ ١٩٨٥م .
(٢٥) الفهرست ـ محمد بن إسحق النديم ـ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٨م .
(٢٦) لسان العرب ـ ابن منظور ـ تحقيق عبد الله الكبير وآخرين ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٠م .
(٢٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ علي بن الحسين المسعودي ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ دار الفكر ـ الطبعة الخامسة ـ القاهرة ١٩٧٣م .
(٢٨) المستشرقون ـ نجيب العقيقي ـ دار المعارف ـ الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٨١م .
(٢٩) مصادر الشعر الجاهلي د . ناصر الدين الأسد ـ دار المعارف ـ الطبعة السادسة ـ القاهرة ١٩٨٢م .
(٣٠) المعادن والصخور ـ د . أحمد البصيلي ود . مظفر محمد ـ مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ـ جامعة الموصل ـ العراق ـ ١٩٨٠م .
(٣١) الموجز في تاريخ العلوم عند العرب ـ محمد عبد الرحمن مرحبا ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٧٠م .
(٣٢) نخب الذخائر في أحوال الجواهر ـ محمد بن إبراهيم المعروف بابن الأكفاني تحقيق الأب أنستاس ماري الكرملي ـ عالم الكتب ـ القاهرة ١٩٣٩م .

• المراجع الأجنبية •

(٣٣) *Mellor's Modern Inorganic chemistry - C.D Parkes 6th Edition - Longmans - Bristol - Great Britain 1967.*
(٣٤) *Mineralogy - E.H. Kraus - 5th Edition MC Graw-Hill - London 1959.*
(٣٥) *Petrology of the Igneous Rocks - Hatch & Wells 13th Edition, Thomas Murby & Co. London 1972.*
(٣٦) *Treatise on Inorganic Chemistry-Romy El Sevier Bublishing Company, New York 1956.*





• قلعة رداع •

• مدينة كحلان •

• منظر لمدينة طويز •

علوم وفنون

مصطفى أمين جاهين

● لمحة تاريخية عن الجمهورية العربية اليمنية ٢٠٨
● أخبار ٢١١
● تاريخ في صور ٢١٦
● كتب حديثة ٢٢٠



الجمهورية العربية اليمنية

تقع اليمن في الركن الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب . (مساحتها ١٩٥٠٠٠ كم^2 . تقريبًا ، وسكانها حوالي عشرة ملايين نسمة) ، عاصمتها صنعاء في الشمال ، وتليها تعز في الجنوب . يعيش سكانها في مدن وفي قرى ، ولا يعيش في الخيام إلا نسبة قليلة جدًا في بعض الجهات الصحراوية على حدودها الشرقية والشمالية . وتنقسم اليمن قسمين رئيسيين ، وهما : الهضبة ، والمنطقة القريبة من ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندي . فيها جبال عالية يزيد ارتفاع بعضها على ٣٠٠٠ متر ، تزرع المحاصيل المختلفة ، وأهم مدن اليمن : صنعاء ، وتعز ، وزبيد ، وبيت الفقيه ، وكوكبان ، وعمران ، وذمار . وأهم موانيها الحديدة . يزرع باليمن أكثر النباتات المعروفة ، وتنبت فيها أنواع من الفواكه ، نظرًا لتربتها البركانية الخصبة ، وتنوع المناخ بسبب وجود الجبال العالية . أهم صادراتها البن ـ وهو أهم المزروعات ، والمحصول الرئيسي للتصدير ـ والجلود ، والتمباك . وأثبتت البحوث أن باليمن كثيرًا من المعادن التي يمكن استغلالها تجاريًا ، ومنها الزيت والفحم والحديد والنحاس والرصاص والملح الصخري وغيرها . وكان البيت الحاكم (حتى سبتمبر ١٩٦٢م) هو بيت حميد الدين ، وكان الحاكم يلقب بالإمام وفي كثير من أنحاء اليمن بقايا المدن القديمة والمعابد والسدود . فقد ازدهرت فيها الحضارة منذ القرن الثامن ق. م. ولكنها ترجع دون شك إلى عصور أقدم . ونجد كثيرا من بقايا الحضارة السبئية في مأرب وصرواح ففيها مدن ومعابد ، وكثير من السدود المهدمة ، وبخاصة سد مأرب الشهير . ونجد آثار الحضارة المعينية في بلاد الجوف وفي نجران . (وهي معاصرة لحضارة سبأ . وفيها آثار من القرن الثامن ق. م.) إلى قبل ظهور الإسلام . أما مركز دولة حمير . وهي





• قرية من المحويت •

آخر دول اليمن القديمة فكان في جنوبي اليمن ، وكانت عاصمتها في مدينة ظفار على مقربة من يريم ، ودخلت المسيحية اليمن واعتنقها كثيرون من أهلها . ثم حدث أن اعتنق بعض ملوك اليمن الديانة اليهودية ، وقام ذو نواس باضطهاد المسيحيين وحرقهم ، وهو الحادث الذي أثار العالم المسيحي . وكان من نتائجه قيام الأحباش بغزو اليمن انتصارا لإخوانهم في الدين . وقبيل ظهور الإسلام تمكن الفرس من غزو اليمن . وطرد الأحباش ، فلما انتشر الإسلام أسلم الحاكم الفارسي باذان . وأصبحت اليمن منذ ذلك اليوم بلدا يدين بالإسلام . وخرجت قبائله مع جيوش المسلمين لفتح الأمصار ، واستقرت بعض قبائله خارج بلادها . ولم تعد للبلاد وحدتها وقوتها بعد زوال دولة الحميريين ، إذ أخذت دول كثيرة تنشأ ، وسادت الفتن والحروب ، وتعرف أسماء دول كثيرة كان بعضها معاصرا لغيره ، وأهمها بنو زياد ، والقرامطة ، والصليحيون ، وفي القرن ١٨ غزا الأيوبيون بلاد اليمن ، وأقاموا فيها وقتا غير قصير . ثم استقل أحد عمالهم بالبلاد ، وكان يسمى نور الدين رسول ، وأسس دولة بني رسول في تعز . وغزا الأتراك العثمانيون هذه البلاد ١٥٣٨ ، إلا أن نفوذهم ظل مقصورًا معظم الوقت على السواحل ، وظلوا فيها حتى ١٦٣٥م ، ثم عادوا إليها مرة أخرى وحاولوا

إخضاعها ، ولكن نفوذهم اقتصر على تهامة وجنوبي اليمن وصنعاء وما حولها ، وظلوا يحكمون البلاد رغم معارضة الأئمة وثورات القبائل حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عندما تركوها في أيدي أبناء البلاد ١٩١٨م ، فاستولى الإمام يحيى على الملك واستقل بالبلاد ، ثم حكمها ابنه الإمام أحمد منذ اغتيال أبيه ١٩٤٨م . كان اليمن منذ القرن ١٦ هدفا لاستعمار البرتغاليين ، ثم أتى بعدهم العثمانيون ، وأخذ الاستعمار البريطاني يثبت أقدامه في هذه المنطقة ـ للسيطرة على طريق الهند ـ منذ أواخر القرن ١٨ ، إذ احتلوا جزيرة بريم (وتسمى أيضا ميون) ١٧٩٩م ، واحتلوا ميناء عدن ١٨٣٩م ، ثم أخذوا يوسعون دائرة نفوذهم حتى شملت جزءًا كبيرًا من البلاد ، ولا تسلم الحكومة اليمنية للإنجليز بأي حق في احتلالهم لعدن أو المحميات ، وهي في نزاع مستمر معهم . وكان لعدم استقرار الحالة الداخلية في اليمن في عصر الدولة الإسلامية ، ثم احتلال الأتراك لليمن ، أثر كبير على تقدم البلاد ، فلما استولى الإمام يحيى على الملك آثر سياسة الحذر من الاتصال بالخارج ، فكان لهذه السياسة أثرها أيضًا . ومنذ ١٩٤٧م أصبحت اليمن عضوًا في هيئة الأمم المتحدة . وسميت منذ اعتلاء الإمام أحمد للعرش : «المملكة المتوكلية اليمنية» ، وهي عضو في جامعة الدول العربية .

وبوفاة الإمام أحمد ١٩٦٢م اعتلى ابنه الإمام محمد البدر العرش ، ولم يمض أسبوع حتى نشبت ثورة عسكرية بقيادة العقيد عبد الله السلال ، وأعلنت إلغاء الملكية وقيام الجمهورية العربية اليمنية ، وأنشئ مجلس لقيادة الثورة ، وآخر للوزراء ، أعلن بعد أيام ظهور الإمام البدر ، وأعلن تمسكه بالإمامة ، ونشبت في بعض أنحاء اليمن بعض الفتن ، وكانت حكومة الجمهورية تقضي عليها أولاً بأول ، أعلن السلال دستورًا مؤقتا لليمن (٣١ أكتوبر ١٩٦٢م) ، وقرر مجلس قيادة الثورة انتخاب عبد الله السلال رئيسا للجمهورية العربية اليمنية إلى جانب منصبه رئيسًا لمجلس قيادة الثورة ورئيسًا لمجلس الوزراء .

وقد حكمها عدة رؤساء بعد الرئيس عبد الله السلال .

أما الآن فيحكم اليمن الرئيس/علي عبد الله صالح .

المراجـع :

- اليمن .. الوطن الأم : علي بن علي صبرة ـ وزارة الإعلام والثقافة ـ ط ١ ـ ١٤٠٧هـ .
- الموسوعة العربية الميسرة : إشراف محمد شفيق غربال ـ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ـ (د. ت) .

الدارة تشارك في اجتماعات الدورة الثانية عشرة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية

شارك الأستاذ عبد الله الحقيل الأمين العام لدارة الملك عبد العزيز في حضور الدورة الثانية عشرة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية المنعقدة في مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة والذي بدأت اجتماعاتها في ١٤١٠/٥/٢ هـ وقد شارك في هذه الدورة كل من أعضاء الأمانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق وهم :

١ ـ مركز الوثائق التاريخية ـ دولة البحرين .
٢ ـ دارة الملك عبد العزيز . الرياض ـ المملكة العربية السعودية .
٣ ـ مركز الوثائق والدراسات في أبو ظبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة .
٤ ـ مركز دراسات الخليج العربي . جامعة البصرة ـ الجمهورية العراقية .
٥ ـ مركز الوثائق والأبحاث بالديوان الأميري . الدوحة ـ دولة قطر .
٦ ـ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ـ جامعة الكويت .
٧ ـ مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء ـ الجمهورية العربية اليمنية .
٨ ـ مركز الدراسات والوثائق . رأس الخيمة ـ دولة الإمارات العربية المتحدة .
٩ ـ مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ـ جامعة قطر .
١٠ ـ مركز الوثائق التاريخية في الديوان الأميري ـ دولة الكويت .
١١ ـ مركز التوثيق الإعلامي لدول الخليج العربي .
١٢ ـ مركز المعلومات بالأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجي . الرياض ـ المملكة العربية السعودية .
١٣ ـ مركز الدراسات التركية بجامعة الموصل .

وقد افتتح الندوة وزير التعليم العالي والبحث العلمي وجرى افتتاح معرض الكتاب وخلال الجلسات جرى مناقشة الأعمال التنظيمية للأمانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية والاهتمام بالوثائق والمخطوطات .

كما ألقى الأمين العام للدارة الأستاذ عبد الله الحقيل كلمة عن الدارة وما تمارسه

من النشاطات التي تخدم أهدافها وتحقق الغرض الذي أنشئت من أجله وهي فيما يلي :

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين .. وعلى آله وصحابته أجمعين ، وبعد :

أيها الاخوة الزملاء رؤساء ومديرو المراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية ..

أحييكم أطيب تحية .. وأود أن أتوجه أولا بوافر الشكر والتقدير إلى الاخوة المسؤولين عن مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ، بالعراق الشقيق ، على ما بذلوه من جهد ملحوظ لاستضافة الدورة الثانية عشرة للمراكز والهيئات العلمية .. مؤكدا على فعاليات تلك الاجتماعات العلمية .. وأثرها الطيب .. ومردودها الإيجابي في بحث بعض المسائل والقضايا العلمية ، والتعاون في إيجاد الوسائل المفيدة لمواجهتها .. وتبادل الأفكار والآراء في إيجاد الحلول لها .. على الوجه الذي يخدم منطقتنا وتاريخها الحافل ، وينمي الوعي بالحفاظ على تراثها الإسلامي ، واستعادة دورها الحضاري في مختلف المجالات .

وقد لا أكون مغاليا إذا قلت إن الوعي يتوقف على مدى الاهتمام بنشر العلم ، والثقافة بين المواطنين ، وتيسير سبل القراءة والاطلاع ، وتوفير الكتاب في متناول أيديهم ، والعمل على جلب المخطوطات ، وحفظ الوثائق ، وصيانتها ، وإعادة الدراسات التاريخية على ضوء تلك الوثائق .. والعمل على مساعدة الباحثين بتوفير المراجع لهم ، وتشجيعهم بنشر بحوثهم وغير ذلك من مسائل ومن أعمال علمية متنوعة .

وعلى ضوء ذلك .. يسرني أن أقدم موجزاً عن نشاطات ومنجزات دارة الملك عبد العزيز .. حيث تمارس الدارة العديد من النشاطات التي تخدم أهدافها .. وتحقق الغرض الذي أنشئت من أجله .. ومن أهمها :

١ ـ المكتبـة :

أنشأت الدارة مكتبة ، وزودتها بالعديد من المراجع والمصادر والدوريات التي تعين الباحثين والدارسين والزائرين لها بقصد القراءة والاطلاع ، كما تمد الباحثين بكل ما من شأنه أن يستهدف عمق البحث وأصالته .. ويعين على إجراء البحوث في كافة الميادين

التي تدخل في نطاق الأغراض التي تخدمها الدارة .

كما وفرت الدارة من المتخصصين في شؤون المكتبات من يقومون على خدمة الباحثين ، وتوفير احتياجاتهم من المراجع والمصادر ، بل وإرشادهم إلى ما يفيدهم في موضوع بحثهم ودراساتهم مما قد يكون قد غاب عن أذهانهم ، وكذلك العمل على تصوير ما يحتاجون إليه من تلك المراجع إذا لم يكن متوفرا في أسواق الكتب .. وقد بلغ عدد المراجع والكتب والمجلدات التي بحوزة المكتبة ستة وعشرين ألف مجلد ، عربي وأفرنجي ، وبلغت الدوريات ٢١٢ دورية عربية وأفرنجية .

٢ ـ المركز الوطني للوثائق والمخطوطات :

لقد هيأت الدارة مقرا للوثائق والمخطوطات ، وزودته بالاحتياجات الضرورية ، وذلك بتوفير وسائل الحفظ والصيانة ، وعمل الفهرسة والتصنيف اللازمين ، كما تم جمع كثير من الوثائق الإنجليزية والتركية التي تتعلق بتاريخ المملكة وكذلك يجري العمل على جمع المخطوطات وتصوير كل ما له علاقة بتاريخ المملكة والتراث الإسلامي .. وقد بلغ ما لدى الدارة من وثائق ٢٧٥٠ وثيقة عربية ، ٥٠٠٠ وثيقة تركية ، ٦٥٢٠٠ وثيقة انجليزية ، من بينها ٤٥٠٠٠ وثيقة على ميكروفيلم ..

وبلغت المخطوطات ٨١١ مخطوطة ، منها ٢١٨ على ورق ، ٥٩٣ على ميكروفيلم ، ويجري العمل على ترجمة الوثائق التركية والإنجليزية ، كما يجري تصنيف جميع الوثائق وفهرستها وتبويبها لوضع الميسر منها أمام الباحثين للاستفادة منه فيما يدرسونه ، أو فيما يعدونه من رسائل وأطروحات علمية .

ونتيجة لتوافر تلك الخدمات فقد زاد إقبال الباحثين وطلاب الجامعات السعودية على الدارة ، لما لمسوه من تجاوب ، ومساعدة ، وتزويدهم بالكتب والمراجع ، وتصوير المراجع غير المتوافرة في المكتبات ، للمساعدة في تدعيم بحوثهم التي ينالون بها الدرجات والأطروحات العلمية ..

٣ ـ البحوث والنشر :

تقوم الإدارة الفنية بالدارة بإعداد البحوث والدراسات التي تعالج مجالاً معيناً ، أو توضح جانباً تاريخياً ، أو جغرافياً ، أو أدبياً ، أو غير ذلك مما يخدم أغراض الدارة ، كما يتولى بالبحث والدراسة كل ما يرد للدارة من مختلف الجهات الحكومية والهيئات

الأخرى ، من داخل المملكة وخارجها وكل ما يرد للدارة بغرض الدراسة ، والبحث ، والتقييم ، وإعداد الدراسات اللازمة عليها .. كما أنه يتولى دراسة بعض الكتب التي تمت طباعتها ، سواء داخل المملكة ، أو خارجها ، أو المعدة للطباعة ، لتقويمها وتصويب ما بها من أخطاء تاريخية ، وغير ذلك من أعمال علمية .. ولقد بلغت مطبوعات الدارة أربعين كتاباً ، وبلغت الكتب التي ساهمت الدارة في نفقات طباعتها خمسة كتب ..

٤ ـ مجلة الدارة :

وإن مجلة « الدارة » صورة مشرقة لإنجازات دارة الملك عبد العزيز بما اتسمت به من تخصص رفيع المستوى للمادة العلمية التي تتبنى نشرها .. وقد استحوذت على إعجاب الكثيرين من الباحثين والقراء .. وهي مجلة فصلية ، تصدر كل ثلاثة أشهر ، وصدر العدد الأول منها في غرة ربيع الأول عام ١٣٩٥ هـ ، وهي الآن قد أكملت عامها الرابع عشر وتسير بخطى ثابتة .. تواكب التطور العلمي والثقافي والفكري .. وتساهم في إبراز المؤتمرات والندوات والدراسات والأبحاث في مجال اهتمامات الدارة ، وعلى نفس المسار والمنهج الإسلامي الذي تنتهجه المملكة ..

٥ ـ القاعة التذكارية للملك عبد العزيز (المتحف) :

لقد بادرت الدارة بإنشاء القاعة التذكارية للملك عبد العزيز ، طيب الله ثراه ، ووضعت بها ما تمكنت حتى الآن من جمعه من مقتنيات الملك عبد العزيز ، ومن أبرزها المكتبة الخاصة به رحمه الله ، وهي تحتوي على ١٥٥١ كتابا ومجلدا ، في مختلف العلوم والفنون ، وكذلك سيارتين كان رحمه الله يركبهما ، وساعة جيب كان يحملها ، أهداها للدارة جلالة المغفور له الملك خالد ، كما تحتوي القاعة على كثير من المقتنيات والآثار والصور واللوحات والخرائط والأسلحة التي لها دلالات تاريخية تمط الحياة الاجتماعية في عهد الملك عبد العزيز ، ولبعض المواقف التاريخية لجلالته مع قادة العالم ، ولمراحل نشأة الدولة السعودية الأولى ، والمراحل الثلاث التي مرت بها ، كما أضيفت إليها المسبحة التي تلطف وأهداها للدارة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ، والتي حملها معه رائد الفضاء العربي المسلم الأمير سلطان بن سلمان في رحلته التاريخية للفضاء .. وكذا بعض مقتنيات جلالة المغفور له الملك عبد العزيز والتي تلطف أصحاب السمو الأمراء فأهدوها للدارة مؤخرا ..

ولقد هُيئتَ القاعة بشكل يعطي زائرها صورة واضحة عن تاريخ المملكة بشكل

عام ، وبحيث يستوعب من التاريخ خلال ساعة ، ما لم يستوعبه من باطن الكتب خلال سنوات .. وعموما فإن الدارة ما تزال تضم إلى مقتنيات القاعة ما يتيسر لها جمعه من مقتنيات ..

٦ ـ قسم التصوير :

تم إنشاء قسم للتصوير يحتوي على أحدث الآلات والمعدات والأجهزة الضرورية واللازمة للتصوير الفوتوغرافي ، والتسجيلي ، والوثائقي ، والاستنساخ الميكروفيلمي ، بحيث أصبح يزود الدارة بكل احتياجاتها ويساهم في نشاطها .. وخاصة تصوير الوثائق والمخطوطات واستنساخهما ، وتسجيل أفلام وثائقية ..

٧ ـ نشاطات أخرى :

نظمت الدارة فيما مضى مسابقة في البحوث والدراسات التاريخية ، وقد قامت حتى الآن بتنظيم مسابقتين باسم « جائزة الملك فيصل » وثالثة باسم « جائزة الملك عبد العزيز » ..

والدارة تمثل المملكة في عضوية الأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية ، ومقرها حاليا البحرين ، وتضم دول الخليج بالإضافة إلى اليمن الشمالي وتعقد اجتماعات دورية ، سنوية تقريبا ، تعقد بشكل دوري في إحدى الدول الأعضاء ، وقد استضافت الدارة إحدى هذه الدورات في ١٤٠١/٦/١٦ هـ ، وهي الدورة الخامسة للمراكز ..

كما أن الدارة تمثل المملكة في عضوية المركز الدولي للوثائق والفرع الإقليمي العربي التابع له .. وتشارك في اجتماعاتهما ، كما إنها عضو في اتحاد المؤرخين العرب .. وتمثل المملكة في تلك العضوية ، إضافة لما لها من صلات وعلاقات بكثير من الهيئات والمراكز العلمية على الصعيدين العربي والعالمي .. وهي بهذا تؤدي دوراً مهماً في مجال البحث العلمي الأكاديمي .. وصورة مشرقة لإحدى معالم النهضة العلمية التي تعم أرجاء المملكة العربية السعودية .. تحت رعاية رائدها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ، وولي عهده الأمين ..

سدد الله على طريق الحق خطانا .. وهدانا جميعا لما فيه سواء السبيل ..



● من أرشيف الأستاذ خليل الروّاف «٩٧ سنة» أمدّ الله في عمره●



● الملك «فهد» في عام ١٩٤٥م، ومعه الأستاذ خليل الروّاف.



● الملك فيصل بن عبد العزيز «طيب الله ثراه» أثناء إلقاء خطاب.



● الملك فهد بن عبد العزيز «حفظه الله» وبجواره الأستاذ خليل الروّاف عام ١٩٤٥م.



• الملك فهد بن عبد العزيز ، حفظه الله ، وعلى يمينه سمو الأمير ، محمد بن عبد العزيز رحمه الله ،، وعلى يساره الأستاذ حافظ وهبه، وخلفهما الأستاذ خليل الروّاف.

• الملك فهد ، حفظه الله ، وعلى يمينه الأمير عبد الله الفيصل والأمير نواف، والدكتور رشاد فرعون، وعلى يساره الأستاذ خليل الروّاف.

• الملك فيصل ، رحمه الله ، ووقف خلفه من اليمين كل من الملك فهد والأمير عبد الله الفيصل، والأمير نواف، والسيد علي رضا.



• الملك فيصل، والملك خالد ، رحمهما الله ، وخلفهما الأستاذ خليل الروّا



• صاحب السمو الملكي الأمير ، سلمان بن عبد العزيز ، أمير منطقة الرياض.

• في إحدى الدوائر العسكرية حضر الوفد السعودي وقد ارتدى ملابس رجال المدرعات .

• الملك سعود بن عبد العزيز ، رحمه الله ،، وخلفه الأستاذ خليل الرواف.



● جواهر الشعر الشعبي
شعراء وشاعرات
من المملكة العربية السعودية ودول الخليج ، الجزء الأول ،
خليف بن سعد الخليف
٣٨٠ صفحة ـ الطبعة الأولى
١٤١٠هـ



● جواهر الشعر الشعبي
شعراء وشاعرات
من المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربي ، الجزء الثاني ،
خليف بن سعد الخليف
٤٠٠ صفحة ـ الطبعة الأولى
١٤١٠هـ

● مجموع فتاوي ومقالات متنوعة ، الجزء الثالث ، التوحيد وما يلحق به .
تأليف الشيخ : عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن باز .
٤٥٩ صفحة ـ الطبعة الأولى
١٤١٠هـ
الناشر : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض .

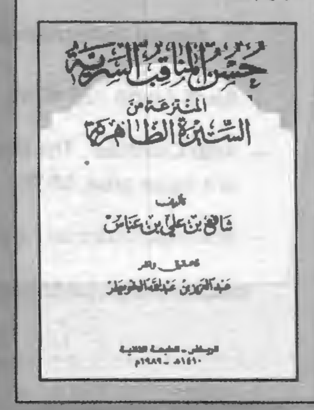


●تاريخ أبي سعيد هاشم بن مرثد الطبراني (المتوفى ٢٧٨هـ)
حققه : نظر محمد الفاريابي
٢٤٨ صفحة ـ الطبعة الأولى
١٤١٠هـ

● جوانب من التنمية والتقدم في المملكة العربية السعودية .
تأليف : د. سناء عبد الحميد قاعود ، د. السيد خالد المطري .
راجعته ونقحته : سمو د. الجوهرة فهد آل سعود
٥٩٦ صفحة ـ الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ

● الشرائع السابقة ومدى حجيتها في الشريعة الإسلامية
تأليف : عبد الرحمن بن عبد الله الدرويش
٦١٢ صفحة ـ الطبعة الأولى
١٤١٠هـ

● حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية
تأليف : شافع بن علي بن عباس .
تحقيق ونشر : أ.د. عبد العزيز بن عبد الله الخويطر .
٣٩٢ صفحة ـ الطبعة الثانية ١٤١٠هـ





● **الأدب الانجليزي من البدايات في القرن السابع إلى ثمانينيات القرن العشرين**
تأليف : ج. ثورلي ، ج روبرتس
تعريب : د. أحمد الشويخات
نشر دار المريخ ، ٣٧٠ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ

● **قائمة مُعجمية بألفاظ القرآن الكريم ودرجات تكرارها.**
د. محمد حسين أبو الفتوح
٢٤٨ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ مكتبة لبنان ـ بيروت





كلام • • في أحلى الكلام
دراسات شعرية
عبد الله بن إدريس
١٧٦ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ

● **علم الإجتماع.**
تأليف :بيث هس
السيزابث ماركوس
بيستر ستين
تعريب : د. عمر مصطفى الشعبيني ـ **تقديم** : د. سلطان المحمد السلطان **نشر دار المريخ**
٧٧٦ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ



● **بين بيتين**
السفر الأول
أحمد عبد الله الدامغ
٣٠٢ صفحة ـ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ

The writers' views do not necessarily reflect those of the magazine



Annual Subscriptions

— Saudi Arabia : 20 Riyals.

— Arab Countries : The equivalent of 4 issues price: SR 20.

— Non-Arab Countries : US 6 $.

- ***Articles can not be returned to authors whether published or not.***
- ***Articles are arranged technically regardless of the writer's prestige.***

• PRICE PER ISSUE •

— Saudi Arabia	**: 3 Riyals**	**— Morocco**	**: 5 Dirhams**
— U.A.E.	**: 4 Dirhams**	**— Tunisia**	**: 400 Millimes**
— Qatar	**: 4 Riyals**	**— Non-Arab Countries**	**: 1 U.S. $**
— Egypt	**: 40 Piastres**		

• Distributors •

Saudi Arabia : Saudi Distribution Co P.O.Box 13195, Jeddah 21493 Tel. 6694700

Abu-Dhabi : P.O.Box 3778, Abu Dhabi, Tel. : 323011

Dhubai : Dar-Al-Hikma Library. P.O.Box 2007, Tel. : 228552

Qatar : Dar-Al-Thakafa, P.O.Box 323, Tel. : 413180

Bahrain : Al-Hilal Distributing Est., Manama, P.O.Box 224, Tel. : 262026

Egypt : Al-Ahram Distributing Est., Al-Gala'a Street, Cairo, Tel. : 755500

Tunisia : The Tunisian Distributing Company 5, Nahg Kartaj.

Morocco : Al-Sharifia Distributing Company, P.O.Box 683, Casablanca,. 05.



Articles

articles should be directed to the Editor-in-chief
☎ : 4417020

Editorial Board

All Correspondence should be directed to:
☎ : 4412318 - 4413944
Fax: 4412316

Subecriptions

Subscripitons should be directed to king Abdul Aziz research centre



IN THE
NAME OF ALLAH
THE MERCIFUL.
THE BENEFICENT



**King Abdul Aziz
Research Centre**

— Established by a Royal decree No. M/45 dated 5/8/1392 A.H. as an autonomous body with independent jurisitic identity.
— Run by a Board of Directors vested with full authority to have its objectives materialized.

Objectives :
— To further studies pertaining to the history of the Kingdom, its geography, literature, intellectual and cultural heritage in particular as well as those of the Arab and Islamic world in general.
— TO issue a cultural magazine carrying its name.

ADDARAH.
— In accordance with the Royal approval No. 5/12608 dated 20/5/1396 A.H. the Centre has become the home of the National Saudi Archives and Manuscripts.

An Academic Quarterly Issued by: King Abdul Aziz Research Centre - Riyadh

No. "4" • Year 15 • February, March, April 1990 A.D.

P.O.Box 2945 Riyadh 11461 • Kingdom of Saudi Arabia

• Facsimile No : 00/966/1/4417020